



**IBN-E-SHU'HAID AL-UNDULUSI
AND HIS CONTRIBUTION
TO
ARABIC LITERATURE**

**ABSTRACT
of
THESIS**

SUBMITTED FOR THE AWARD OF THE DEGREE OF

**Doctor of Philosophy
IN
ARABIC LITERATURE**

BY

NISAR AHMAD PARRAH

UNDER THE SUPERVISION OF

DR. MOHD. SAMI AKHTAR
(Associate Professor)

**DEPARTMENT OF ARABIC
ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY
ALIGARH (INDIA)**

2012



ابن شهيد الأندلسي ومساهمته في الأدب العربي

الملخص

(رسالة قدمت لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي)

إعداد

نثار أحمد بره

تحت إشراف

الدكتور محمد سميع اختر

(الأستاذ المشارك)

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

2012م

خلاصة البحث

قد امتازت بلاد الأندلس بين الأقطار التي فتحها العرب بجوها المعتدل وتربتها الخضبة ليس بها قفر ولا صحارى بل أكثرها حقول خضراء ورياض باسمه وأنهار جارية ومراع واسعة فكانت لاتزال من أجمل بقاع الأرض تجلب بالألباب والعقول بجمال طبيعتها وأبنيتها شائخة وقصورها زاهرة، وزاد في جمال شعره وميزه بذلك من أهل المشرق وجعل للأندلسيين صبغة خاصة في الأدب العربي وفتح أمامهم بابا واسعا من الخيال وبها ازدهرت علوم العرب وآدابهم، قد أجمع المؤرخون على أن خصائص بلدان الإسلام الأخرى كانت موجودة في سكان هذه البلاد فهي عندهم جامعة وافية، كما نقل المقرئ (ت ١٠٣٨ م) عن أبي عبيد البكري (ت ١٠٩٤ م) وصفه فقال:

"الأندلس شامية في طبيها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها."^١

وموضوع مقالتي هو: "ابن شهيد الأندلسي ومساهمته في الأدب العربي" - هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى شهيد المعروف بأبي عامر أشجعي النسب الأندلسي القرطبي، ولد بقرطبة عام ٣٨٢هـ، وتوفي عام ٤٢٦هـ، وهو من بيت أدب ومجد، كان جده وزير عبد الرحمن الناصر، وأديباً من أكبر الأدباء في عصره، وورث عنه حفيده أدبه، كما ورث عنه صلتة الحسنه بالأمويين، وإن لم يستوزره لثقل كان في سمعه، ويظهر أنه ورث عن آبائه مالاً كثيراً سبب لميوله إلى اللهو والخلاعة حتى ليقول أبو حيان:^٢

^١ نفح الطيب، ج ١ ص ١٢٥

^٢ الذخيرة ق ١ ج ١/ ١٦١.

"إن البطالة غلبت عليه، فلم يحفل في آثارهم بضيا ع دين، ولا مروءة" وهذا الشخص المترف الذي ساق حياته في اللهو والخلاعة كان مثقفاً ثقافة واسعة بمعارف عصره، فقد ذكر في إحدى رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أدب، وخبر، وفقه ووطب، وصنعة، وحكمة، على أن الجانب الذي تميز به، إنما هو جانب الأدب، فقد كان شاعراً كبيراً كما كان كاتباً ضليعا أيضاً، ويدل ما روي عنه من آثار أن نثره كان أكبر من شعره، كما قد شهد له النقاد.

وهذه الرسالة تشتمل على مقدمة وخمسة أبواب، فقد بحثنا في الباب الأول عن الأحوال السياسية والاجتماعية والأدبية لعصر ابن شهيد الأندلسي، كما تناولت في هذا الباب تاريخ الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة، مع كون هذه الحقبة من تاريخ الأندلس تمثل عصرين مختلفين: العصر الأول ما يسمى بعصر الولاة، يمتد حكمهم زهاء إلى أربعين عاماً (٩٢-١٣٨هـ) وهو الذي يبدأ بالفتح الإسلامي، وينتهي بإقامة عبدالرحمن الداخل لدولة بني أمية في الأندلس، أما العصر الثاني فهو ما يسمى بعصر بني أمية، وهو الذي يبدأ بقيام عبد الرحمن الداخل بالأمر، ويعتبر أزهى عصور الحضارة الإسلامية بالأندلس وقد حكم طوال هذه المدة من بني أمية تسعة عشر خليفة وبلغت الدولة ذروة مجدها في عهد عبد الرحمن الثالث (٣٠٠-٣٥٠هـ) وينتهي بسقوط الخلافة الأموية في الأندلس، وقام عصر الطوائف في قرطبة على يد ابن جهور ثم بينت أحواله الاجتماعية، نشأ فيه ابن شهيد، ثم ركزت على أحواله الأدبية من ناحية إيجابية وسلبية مع وجود فتنه الكثيرة.

قد استعرضت أولاً عن أحوال السياسية التي تفتحت عيناه شاعرنا، كما نعرف قد عاش أبو عامر بن شهيد في فترتين من تاريخ الأندلس على طرفي نقيض:

الأولى هي أزهى عصور التاريخ الأندلسي في ظل دولة العامريين، حيث ولد ونشأ وترعرع في أحضان العامريين، وقضى في عهدهم أجمل أيام حياته.

والثانية: عصر الفتنة البربرية التي تمخض عنها أُمُيَّار الدولة الإسلامية، وتفكك الأندلس إلى دويلات متناحرة في ظل حكم ملوك الطوائف.

لقد عانت قرطبة، مسقط رأس ابن شهيد، الكثير من جراء هذه الفتنة، إذ نُهبت دورها وأحرقت مبانيها وقتل العديد من أهلها، كما دُمِّرت مدينتا الزهراء والزاهرة، ومع هذه الملاحظات قد بيّنت فيها الأحوال الاجتماعية التي تأثرت حياة الشاعر العظيم من كثرة البناء والعمران، ثم أُلقيت الضوء على الحالة الأدبية لهذا العصر وإذا تصفحنا أوراق التاريخ فوجدنا أن عصر العامريين مع فتنة الكثيرة كان عصراً علمياً أيضاً، كما تنعقد المحافل الأدبية والمناظرات الدينية في كل أسبوع تحت إشراف منصور بن أبي عامر، وكان المنصور بن أبي عامر من أشد العاملين على ترقية العلوم وقد تشبه بالمأمون العباسي في زيارته لدروس العلم وحضور المجالس العلماء، وأنشأ لذلك المساجد والمدارس في المدن والقرى، وعنهم أخذ أهل أوربا نظام المدارس والكليات والمعاهد كما بدأت حركة التأليف في مختلف العلوم وألف العلماء الأندلسيون جديداً من الكتاب لم تكن عند المشاركة خاصة في مجال الرياضة، والطب، والبيطرة، والزراعة كما في علوم اللغة والتاريخ والأدب.

أما الباب الثاني: فقد ذكرت فيه حياة شاعرنا، أولاً قد ذكرت عن أسرته، ثم عن ولادته ونسبه، ثم حاولت رسم صورة حياته وشخصيته وأخلاقه، وكما تحدثت فيه عن ثقافته وعوامل تكوينه الأدبية، تناولت أولاً عن نشأته اللاهية في النعيم وانغماسه في الترف بين أحضان المنصور، وفي رحاب أولاده من بعده

مما كان له الأثر الكبير في تكوين كثير من طباعه ورغباته وتوجيهها الوجهة التي تناسب هذه النشأة.

والثاني: أسرته التي كانت - إلى جانب صنتها بذوى السلطان - تمارس الأدب والثقافة على نطاق واسع، رأينا ذلك متمثلاً في والده وجدّه وغيرهم، ممن أشارت إليهم بعض المصادر وأورد أبو عامر نفسه بعضاً من أشعارهم، وكان لذلك من غير شك، أثر لا يستهان به في تكوين ثقافة أبي عامر بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وقد ذكرت فيه مرضه ووفاته ووصاياه وأشعاره التي أنشد لرتاء نفسه في حياته، ثم تحدثت فيه عن آثاره الشعرية والنثرية، كما استعرضت رسالته الوحيدة "رسالة التوابع والزوابع" الذي حققها الأديب الشهير بطرس البستاني، ومجموعة أشعاره "ديوان ابن شهيد الأندلسي" الذي جمع أولاً شارل بيلا، ثم جمع الأديب اللبناني محي الدين الديب.

وبالباب الثالث: تحدثت فيه عن آثاره الشعرية والشعر هو مرآة حياة الأمة التعليمية والاجتماعية يتغنى بها الشاعر حيثما نزل وأينما ارتحل ويرسم فيه ما يحول بنفسه فكان لجمال الأندلس أثر في نفسه وفي ذكريات بلاده وأهله،

كما أنشد ابن شهيد في مختلف مراحل حياته، وقد حدثت فيه عن نوعية شعر أبي عامر من حيث الإصالة والجودة أو التقليد والمحاكاة، فقد تبين لنا، من دراسة شعره، أنه قلّد الكثير من الشعراء وعارض العديد من معانيهم، أما بنفس القافية والوزن أو على خلافهما وممن قلّدهم أبو عامر إمروء القيس وقيس بن الخطيم وأبو نواس والبحري وغيرهم، وأشرنا إليه في غير موضع، من حرصه على الصنعة اللفظية والإكثار من صور البديع والبيان إلى درجة تفقد الشعر قيمته الفنية والأدبية بما تحويه من صور مكدسة في التشبيه الغريب أحياناً أو المتتابع دون نسق أو نظام أحياناً أخرى، ومع ذلك قد شرحت فيه الألفاظ الصعبة التي تحتاج إلى

التشريح والتوضيح، وخرجت من هذا الباب مع ذكر مفردات لشعر الأندلسي و انعكاسات الصنائع اللفظية والبديعة لأشعار ابن شهيد الأندلسي.

والباب الرابع: يحتوى على أحواله الكتابية ورسائله النثرية، وقسمتها إلى قسمين: رسائل متنوعة للأمراء والحساد وفي وصف الأشياء والأحياء، وقد وجدنا أن له آثاراً كثيرة في هذا المجال، منها الضائع الذي لم يصلنا عنه سوى الإسم، ككتاب كشف الدك، وإيضاح الشك وكتاب حانوت عطار، ومنها فصول من رسائل في أغراض مختلفة، فبعد ذلك قد ألقيت الضوء على رسالة التوابع والزوابع من حيث القصة وعناصرها، ثم قد استعرضت فيه لآراء ابن شهيد النقدية، فإن الكثير منها _ كما تبين لنا _ لا يختلف في أصوله عن آراء أهل المشرق من النقاد والبلاغيين وخاصة الجاحظ حيث اعتمد أبو عامر كثيراً من آراء أهل المشرق من النقاد والبلاغيين وخاصة الجاحظ حيث اعتمد أبو عامر كثيراً من آرائه كأساس لما أورده من ملاحظات وآراء في النقد والبلاغة.

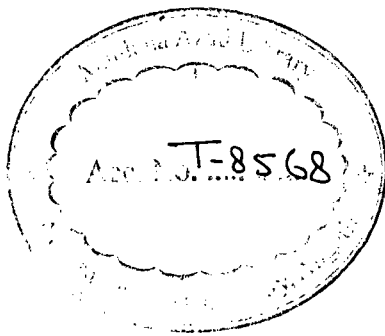
أما الباب الخامس: فقد خصصته لرسالته الشهيرة "رسالة التوابع والزوابع" لدراسة أدبية ونقدية، ويعدّ من أهم آثار أبي عامر النثرية والشعرية على الإطلاق أولاً بحثت عن تسميتها، وأشارت إلى سبب تأليفها وتاريخها، وكل ما قيل في تقليد ابن شهيد في التوابع والزوابع عن رسالة الغفران لأبي العلا المعري فهو قول محتمل على أيّ حال، كما ذهب معظم النقاد والكتاب أن رسالة التوابع والزوابع ألّفت قبل رسالة الغفران.

أما القول باطلاع أبي العلا على التوابع والزوابع لابن شهيد ونسجه على منوالها في رسالته الغفران تفتقر إلى دليل ثابت قوي، وليس لدينا من ذلك شيء يعتمد وإن هذه الرسالة "التوابع والزوابع" جديدة مبتكرة لا تعتمد على تقليد أو محاكاة لرسالة أخرى سابقة لها سواء من آثار المشرقيين أو غيرهم، وإن أصل الفكرة في

كتابة هذه الرسالة هي تصوير صور العالم الآخر، تعتمد على القرآن الكريم ومعراج الرسول صلى الله عليه وسلم، بالذات وما ورد من آيات كثيرة في سور متعددة من ذكر الجنة والنار وأحوال الناس فيهما. كما بين الدكتور هيكمل، واختتم هذا الباب بالمقارنة بين التوابع والزوابع ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

وفي النهاية أوضحت النتائج فيها التي قد توصلت إليها في دراسة آثار ابن شهيد الشعرية والنثرية، مع آرائه حول الشعر والنثر والبلاغة والبيان كلها، قد بيناها في هذه المقالة، وإنها أثبتت إطلاعه الواسع على آثار الأدباء في المشرق على اختلاف درجاتهم إلى جانب اطلاعه البالغ على جملة من العلوم الأخرى، من البلاغية واللغوية والشعرية، وكان له باع طويل في قضايا اللغة والنقد ومعرفة تامة عن نفسية الفنان وأثرها على انتاجاتهم الأدبية وحتى بعض الآراء في الفلسفة وعلم الكلام والمنطق.

لهم
(نثار أحمد بره)





**IBN-E-SHUHAID AL-UNDULUSI
AND HIS CONTRIBUTION
TO
ARABIC LITERATURE**

THESIS

SUBMITTED FOR THE AWARD OF THE DEGREE OF

Doctor of Philosophy
IN
ARABIC LITERATURE

BY

NISAR AHMAD PARRAH

UNDER THE SUPERVISION OF

DR. MOHD. SAMI AKHTAR
(Associate Professor)

DEPARTMENT OF ARABIC
ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY
ALIGARH (INDIA)

2012



إبن شهيد الأندلسي و مساهمته في الأدب العربي

(رسالة قدمت لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي)

إعداد

نثار احمد بره

تحت إشراف

الدكتور محمد سميع اختر
(الأستاذ المشارك)

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

2012م



T8568

DR. MOHD. SAMI AKHTAR
Associate Professor
Department of Arabic
A.M.U., Aligarh-202002
Phone No. 0571-2709062 (Off)
1300/1301 (Int)



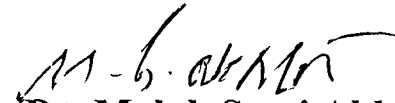
أ.د. محمد سمیع اختر
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة علی کرہ الإسلامية علی کرہ
0571-2702200 (R), 09897053096 (Mob)
e-mail: mdsamiakhter@gmail.com
amualigarharabic@yahoo.com

Dated: 28.5.2012

TO WHOM IT MAY CONCERN

This is to certify that **Mr. Nisar Ahmad Parrah** Enrolment No. **GD-5996** has successfully completed his research work entitled “**Ibn -e-Shuhaid Al-Undulusi (d- 426 A.H.) and His Contribution to Arabic Literature**” under my supervision.

The work is his original contribution to the topic. It is now forwarded for the award of Ph.D. degree in Arabic language and literature.


(Dr. Mohd. Sami Akhtar)
Supervisor



الإهداء

أ-ح

مقدمة البحث

١٧-١

الأحوال السياسية والاجتماعية والأدبية
لعصر ابن شهيد الأندلسي

الباب الأول

٤٠-١٨

ابن شهيد الأندلسي حياته ونشأته وثقافته
وآثاره الأدبية

الباب الثاني

١١٢-٤١

ابن شهيد شاعراً

الباب الثالث

١٦٧-١١٣

ابن شهيد كاتباً

الباب الرابع

١٩٨-١٦٨

رسالة التواضع والزواجع

الباب الخامس

٢٠٣-١٩٩

الخاتمة

٢١٣-٢٠٤

المصادر والمراجع

الإهداء

إلى

والديّ العطوف والحنون.

ربّ أرحمهما كما ربّاني صغيراً

الإسراء، ٢٤

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد بن عبدالله الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

من المعروف أن دولة بني أمية في الأندلس - في أواخر أيام القرن الرابع الهجري - التي أرسى قواعدها عبد الرحمن الداخل (١١٣ - ١٧٢هـ) وساعد في بنائها الشاذلي عبد الرحمن الناصر، كانت مسرحا للاضطرابات والفوضى، لأن المملكة كانت قد انتقلت إلى أيدي لم تُحسن الحفاظ عليها، ولذا انفرط ذلك التاج الذي طالما زها في مفرق الدهر مجدا وعزة ومنعة، وانقسمت هذه المملكة إلى ممالك وإمارات دُعيت بدول ملوك الطوائف، وإبن شهيد الذي موضوع بحثنا في هذه الرسالة تفتحت عيناه في ذلك العصر ونبغ فيه وعرج إلى سماء الشهرة.

إن بذور الثقافة التي غرست في العصر الأموي ازدهرت وأينعت في عصر الطوائف وساعد على ازدهارها التنافس القوي القائم بين ملوك الطوائف في الإنماء والإشاعة والتشجيع للحركة الفكرية وهذا التنافس القائم بين الناس صار سببا عظيما للإنتاجات الأدبية الأندلسية، ولذلك نجد كثيرين من ملوك الطوائف كانوا شعراء وأدباء وعلماء ومؤلفين.

ولا شك في أن أبرز ما اتسمت به الحقبة التاريخية الأولى من أيام العرب في الأندلس هو تأثير الأندلسيين بالمشاركة والأخذ منهم، كما نراهم في أول الأمر حريصين على تقليد المشاركة في شعرهم ونثرهم مؤلفاتهم وفي العلوم والمعارف حتى أنهم يتلقَّبون بألقابهم، ولكن الأمر انقلب من التقليد إلى المنافسة أو التحدي فقام كثير من أعلامهم ينادون بالتخلص من هذه التبعية ويهتفون بالإستقلال، نرى إبن بسام (ت ١٠٤٠هـ) يؤلف كتابا المسمى "بالذخيرة" ليتحدى به "يتيمة الدهر" للثعالبي (ت ١٣٦٣هـ)، ويؤلف إبن زيدون (ت ٤٦٣هـ) كتابه "التبيين" في تاريخ خلفاء بني أمية بالأندلس مباريا فيه كتاب "التعيين" في خلفاء الشرق

للمسعودي، ويؤلف أبو الفرج الجياني كتاب "الخدائق" منافسا به كتاب "الزهرة للأصفهاني، (ت ٥٩٣هـ)، فهذه حقيقة أن الأندلسيين أخذوا يتميزون عن المشاركة ويحاولون التفوق عليهم، هكذا يعرف دارسوا تاريخ الأدب الأندلسي أن الأندلس كيف أسهمت في بناء مجدها وعظمتها وكيف ازدهرت وأينعت ثقافتها المتنوعة بذكرها، حينما كانت أوربا في جهالة عمياء، وقد اعترف هذه الحقيقة المؤرخ الكبير المستشرق لين بول:

"ملك المسلمون ثلثي شبه الجزيرة وسموها الأندلس لتميزها، وأسسوا فيها مملكة قرطبة العظمى التي صارت أعجوبة للقرون الوسطى، وحملت مشعل المدنية والثقافة متألفة متوجهة إلى الغرب على حين كانت أوربا غارقة في ظلمات الجهالة والبربرية والمنازعات والحروب"^١

ويالأسف أن هُدمت منارة عظمة مسلمي الأندلس بأيدي اليهود والنصارى الظالمة الغاصبة، فأحرقت مَدَنها وهُدمت جامعاتها تبذرت مكتباتها وشدت أهلها وقضت على آثار الحضارة فيها ظلما وجهلا واستبدادا مما لا نسميه حركة التحرير، لأن الشعب الأندلسي كان قد اختلط حينئذ بالشعب العربي وصار أهل البلد شعبا واحدا له خصائصه الفكرية والثقافية ولأن حركة التحرير لا ترادف الجهل والرجعية والوحشية ولا يعنى بها سفك الدماء وهدم الجامعات وإحرق المكتبات واستباحة الأعراس وانتهاك الحرمات والقضاء على شعب كبير له تاريخه وسماته وخصائصه في تاريخ الحضارة الإنسانية وما أصدق ما يقول الشاعر الأندلسي: الوَزيز الأَجَل أبو الحزم جهور بن مُحَمَّد بن جهور (ت ٤٣٥هـ)

قلت يوما لدار قوم تفانوا أين سكانك العزاز علينا؟
فأجابت هنا أقاموا قليلا ثم صاروا ولست أعلم أيناً؟^٢

^١ قصة العرب في اسبانيا، ص ٢٤

^٢ مطمح الأنفس، ص ١٥

وها هو ذا أحد الشعراء الأندلسيين يبكي ماضع من ثمرات العقول والأفكار الإسلامية في الأندلس، فيقول في قصيدة وجهها إلى با يزيد العثماني مستغيثا من ملك الروم وتنكيله بالمسلمين وقضائه على تراثهم الفكري: وقال

وخان عهودا كان قد غرنا بما ونصرنا كرها بعنف وقسوة

وأحرق ما كانت لنا من مصاحف وخلطها بالزبل أو النجاسة

وكل كتاب كان من أمرديننا ففي النار أبقوه براء وحقرة

ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم ولا مصحفا يخلى به للقرأة^١

وقد اعتنى كثير من الباحثين العرب وغيرهم في هذا المجال، وألّفوا كتباً كثيرة وأتوا ببراہین تدل على أجماد الأندلسيين العظيمة ومفاخرهم الحميدة ومآثرهم الرفيعة المتنوعة المتعددة، نراهم يستفيدون من المخطوطات المحفوظة في مكتبات الغرب ويخرجون عنها كنوزهم المسروقة على أيدي النصارى الظالمة، فمثلاً نفح الطيب، للمقري. والمغرب في حلى الغرب، لابن سعيد، (ت ٦٨٥ هـ) وكتاب ابن حيان (٤٦٩ ت هـ) المسمى بالمقتبس، وكتاب ابن حزم الأندلسي المسمى بنقط العروس، وكتاب الملحمي المسمى بتاريخ غرناطة، وكتاب ابن الفرضي (ت ٤٠٠ هـ) المسمى بتاريخ الأندلس، وقصة الأدب في الأندلس، لعبد المنعم الحفاجي، وكتب جودت الركابي "في الأدب الأندلسي" وتاريخ الأدب الأندلسي لإحسان عباس، هكذا قد كتب أحمد أمين (ت ١٩٥٤ م) فجر الإسلام، ضحى الإسلام، ظهر الإسلام وغير ذلك.

ومع ذلك فلا يزال عدد كبير من الأدباء الأندلسيين منسيين لم تمتد إليهم يد الدراسة والبحث المفصل.. ومن هؤلاء أبو عامر ابن شهيد الأندلسي، تناول به بعض من الكتاب والناقدين بالدرس كالدكتور زكي مبارك (ت ١٩٢٥ م) في كتابه "النثر الفني في القرن الرابع" والأستاذ البستاني (ت ١٣٠٠ هـ) في "رسالة التوابع والزوابع

^١ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ص ١٢٢، لأبي العباس المقري التلمساني.

"والدكتور أحمد ضيف (ت ١٩٤٥ م) في "بلاغة العرب في الأندلس" و الدكتور إحسان عباس فإنه قد كتب في مصادره "تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة"، "وتاريخ النقد الأدبي عند العرب" - عن أبي عامر في مختلف مراحل حياته منذ نشأته حتى وفاته مشيراً إلى أهم خصائص شعره ونثره، وهكذا سار على منوالهم الناقد المشهور الدكتور شوقي ضيف فقد تحدث عنه في كتابه "الفن ومذاهبه في النثر العربي" حين تكلم عن رسالته التوابع والزوابع، كذلك قد ذكر عنه حنا الفاخوري، والدكتور هيكمل، والدكتور مصطفى شكعة وغير ذلك.

فلا تزال كثير من ملامح أدبه وآثاره بحاجة إلى المزيد من الدراسة والبحث، ذلك أن هذه الدراسات كانت تتناول -في الأغلب- جانباً من جوانب أدب أبي عامر أوناحية من نواحي حياته في حين بقيت الجوانب الأخرى مطوية أو غامضة لم يكد ما قام حوله من بحث يفي بالغرض المطلوب.... وإذا تذكرنا أن أبا عامر من أصحاب الملكات المزدوجة وأن لديه آثاراً لا يستهان بها في النثر والشعر... تبين لنا وجوب دراسته دراسة مفصلة دقيقة.. ولعل هذا كان الدافع الأول الذي شجّعني على اختياره موضوعاً للدكتوراه.

و حين مضيت في دراسة بعض ملامح أدب أبي عامر وآثاره الثقافية تبين لي أن لديه شعراً وافراً يتناول العديد من الأغراض في قصائد قصار وطوال إلى جانب آراء له في النقد والبلاغة وحول التعليم والمعلمين في عصره... فازداد حرصى على المضى في دراسته للكشف عن هذه الآثار وتبين ملامحها وسماها المهمة وكان هذا الدافع الثاني لاختيار الموضوع.

أما نثر أبي عامر وما احتواه من رسائل مختلفة في عدة أغراض.. وخاصة رسالة التوابع والزوابع التي أوردها ابن بسام في الذخيرة وما احتوته من فصول ورحلات شائقة وآراء في بعض أوجه الثقافة والأدب ونوادر لطيفة ممتعة.. ومجالس أدبية مفيدة، فهذا السبب الثالث والمهم الذي دفعني لاختيار أبي عامر موضوعاً للدراسة والبحث.

ولكني حينما بدأت دراسة حياته اخافله وتتبع آثاره القيمة وجدت فوق ما تصورته، فاحسست بجسامة العبا وثقل المسؤولية، فثبّطت همتي وضعفت استكاني، ثم جعلت أناقش مع مشرفي هذا الموضوع فشجّعني وأرشدني إلى أن أقوم بزيارة الجامعات والمكاتب الهندية، فزرت إليها بنفسي على رغم قلة مؤنّي وقلة الوسائل الأخرى، وهذه الزيارات العلمية أثمرت بالنتائج المتفاعلة وساعدتني في إعداد الرسالة، وزرت إلى الجامعات الهندية منها جامعة كشمير، والجامعة المليّة الإسلامية، وجامعة جواهر لال نهرو، ومكتبة العلامة شبلي النعماني لدارالعلوم التابعة لندوة العلماء، لكناؤ، ومكتبة جامعة دارالعلوم رحيمية باندي فوره كشمير، فحصلت على المواد المطلوبة قليل من الكثير.

كما استفدت من ارشادات وتوجيهات لبعض الأساتذة الكبار المتقاعدين، الذين قابلتهم وناقشتهم حول الموضوع أمثال الأستاذ احتشام أحمد الندوي، الأستاذ محمد راشد الندوي، والأستاذ عبد الباري، فأخذت منهم الأقوال النافعة، ولا أقول إني وجدت جميع المواد الضرورية ولكن كل ما حصلتها حاولت أن أستنتج روحه وفكره.

وبعد الدراسة المتخصصة المذكورة أعلاها قد قسمت البحث إلى مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة.

عرضت في الباب الأول: الأحوال السياسية والاجتماعية والأدبية لعصر ابن شهيد الأندلسي، كما تناولت في هذا الباب تاريخ الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة، مع كون هذه الحقبة من تاريخ الأندلس تمثّل عصرين مختلفين: العصر الأول ما يسمّى بعصر الولاة، وهو الذي يبدأ بالفتح الإسلامي، وينتهي بإقامة عبدالرحمن الداخل لدولة بني أمية في الأندلس، أما العصر الثاني فهو ما يسمّى بعصر بني أمية، وهو الذي يبدأ بقيام عبد الرحمن الداخل بالأمر، وينتهي بسقوط الخلافة الأموية في الأندلس، وقيام **عصر ملوك الطوائف** في قرطبة على يد ابن جهور. ثم بينت أحواله

الاجتماعية التي نشأ ابن شهيد، ثم ركزت على أحوالها الأدبية من ناحية إيجابية وسلبية مع وجود فتنه الكثير.

وفي الباب الثاني: قد ذكرت فيه حياة شاعرنا، أولاً إسمه ونسبه وولادته، ثم حاولت رسم صورة حياته وشخصيته وأخلاقه، وكما تحدثت فيه عن ثقافته وعوامل تكوينه، ثم ختمت هذا الباب بحديث عن آثاره الأدبية.

والباب الثالث: تحدثت فيه أولاً تطور الشعر العربي في الأندلس، ثم أغراض الشعر الأندلسي التي مارس فيها ابن شهيد والتي أشدها في مختلف مراحل حياته، وقارنت أشعاره بأشعار الجاهليين والإسلاميين وغير ذلك، وقد شرحتها أيضاً فيه الألفاظ الصعبة، ومع ذلك قد ذكرت فيه مفردات لشعر الأندلسي، وخرجت من هذا الباب مع ذكر انعكاسات الصنائع اللفظية والبديعة لأشعار ابن شهيد الأندلسي.

وفي الباب الرابع: استعرضت فيه عن مساهمته في الكتابة ورسائله الثرية، وقسمتها قسمين: رسائل متنوعة للأمراء والحساد وفي وصف الأشياء والأحياء. ثم رسالة التوابع والزوابع من حيث القصة وعناصرها، وقد كملت هذا الباب عن آراء ابن شهيد النقدية التي تتعلق بمختلف أصناف الأدبية، كالنقد والبيان، والبلاغة، والطبع والصناعة، والسرقات وغير ذلك،

أما الباب الخامس: فقد خصصته رسالته الوحيدة "رسالة التوابع والزوابع" لدراسة أدبية ونقدية، كما بحثت عن تسميتها، وأشارت إلى سبب تأليفها وتاريخها، وختمت هذا الباب بالمقارنة بين التوابع والزوابع ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري. وفي الخاتمة ألقيت فيها الضوء على نتائج عديدة ظهرت لي أثناء البحث في الدراسة.

وفي النهاية يجب على أن أقدم الشكر والإمتنان أولاً: إلى الله عز وجل الذي تمّ

هذا البحث بتوفيقه وعونه.

وثانياً إلى كل من ساعدني في إعداد هذا البحث بمعونة آيا كان شكلها. وعلى وجه الخصوص:

مشرفي العطف الدكتور محمد سميع اختر حفظه الله، الذي أرشدني عند كل خطوة، خطوطها في غضون البحث وأخذ بيدي عند كل زلة، وقعتها في جميع مراحل البحث وأطواره، وهو الذي غمّرنى بلطفه وكرمه ورعاني بعنايته البالغة وتجاربه العلمية حتى وفقت لتقديم هذه المقالة، ويسعدني أن أقدم شكري وامتناني إلى الأستاذ الدكتور كفيل أحمد القاسمي رئيس القسم العربي كما أقدم الشكر إلى الأستاذ صلاح الدين العمري، ويكون من نسيان الجميل إن لم أذكر الدكتور تسنيم كوثر حفظها الله، التي كانت بمثابة الأخت العظوفة والتي هي شجعتني دائما أن استقبل الحياة بهدوء واطمئنان وأواجه المصائب والمشاكل لكل صلابة وعزم، وكذلك أشكر جميع أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها وكما أشكر إلى أمي الحنون التي حرمني الأجل من لطفها وأبعدني من دفء حضنها، وإلى والدي العطف الذي لم يدخر بوسع في تثقيف أولاده وبناته، وكان متطلعا إلى أعلي منزلي، ولكن حرمت من ظله وودّه قبل أن يتمّ هذا البحث، وأنا مشكور من شقيقي الأكبر رياض احمد بره وزوجته، وشقيقتي الأربعة الذين لم دور ملموس في تحضيرى وتعليمى وتثقيفى وفي خدمة أسرنا التي كان عبئها على أكتافهم وكواهلهم وحدهم، وأشكر جميع زملائي الكرام وأصدقائي الأعرء الذين ساعدوني في سبيل تقديم هذا البحث، وعلى وجه الخصوص الأخ محمد رمضان الندوي. والأخ محمد ارشاد الحق، والأخ معراج الدين الندوي، والأخ فاروق احمد مير القاسمي، والأخ نور الزمان الرحيمي القاسمي الندوي والأخ توصيف احمد، والأخ محسن أفضل، والأخ محمد ثاقب الندوي، وغير ذلك. ولا يمكن لى أن لا أنسى دارالعلوم رحيمية باندي فوره كشمير وخاصة فضل رئيس هذه المعهد العلمي الشيخ محمد رحمت الله مير القاسمي، ودارالعلوم التابعة لندوة العلماء بلكناو، وأساتذتهما، أما الأولى فتهذبت وتثقت فيها منذ الصغر، والثاني قد أمكنتني للالتحاق بالجامعات فحصلت على العلوم العصرية والدينية، واستفدت من مكتبتيهما كثيرا، وأخذت حظا وافرا من أساتذتهما الكرام، كما أرشدوني إلى السبل التي ساعدتني لإعداد هذا

البحث، ولتسهيل المشاكل والصعوبات التي يواجهها كل باحث ودارس في غضون الدراسة والبحث، وكذلك أحب أن أقدم شكري إلى الموظفين في مكتبة الدراسات الإسلامية واللغة العربية لجامعة علي كره الإسلامية.

لقد بذلت كل جهدي لإيضاح الأفكار والنظريات التي ناقشها ابن شهيد في آثاره، ولا أدري هل وفيت حقه أم لا ولكني آمل أنني وفيت حقه..

وما توفيقي إلا بالله..

لله

نثار أحمد بره

قسم اللغة العربية

جامعة علي كره الإسلامية

٤ رجب المرجب ١٤٣٣هـ

٢٦ مايو ٢٠١٢م

الأندلس

الأندلس هي جزيرة شهيرة منذ القدم بجمالها الطبيعي وهوائها المعتدل، معروفة لبساتينها الجميلة وخضرواتها البهيجة وأثمارها الجارية وسمائها الصافية وجبالها الشاخنة وأرزاقها الوافرة وأثمارها المتنوعة وخيراتها العظيمة ومنافعها الكثيرة وأوديتها الخصبة ومبانيها الفخمة وأزهارها المتفننة وفتاتها الحلوة، قد عبر شعراء الأندلسيون مناظرها الطبيعية الخلابة بصورة رائعة، و عبر ابن حفاجة الأندلس بجنة الأرض . كما يقول لسان الدين ابن الخطيب :

”خص الله تعالى بلاد الأندلس من الربيع وغدق السقياء ولذاذة الأوقات وفراحة الجيوان، ودرور الفواكهة، وكثرة المياه، وشجر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابتضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وفنون الصنائع ، وشهامة الطبائع، ونفوذ الإدراك، بما حرمة الكثيرين الأقطار مما سواها“^١

فجذب إليها الأمراء والسلاطين من النصارى والمسلمين من كل أنحاء العالم في الفترات المختلفة من التاريخ الإنساني حتى فتح هذه الجزيرة الخصبة طارق بن زياد وبدأت صفحة جديدة في تاريخها الديني والثقافي والأدبي والعلمي واستقرت قوائم الحكومة الإسلامية وغيرها، من قبل أن ألقى الضوء على هذه الأحوال المختلفة، أذكر أولاً وجه تسمية هذه الجنة على الأرض وأحوالها الجغرافية، لكي لا يصعب علينا أن نفهم كل هذه الأحوال وغيرها.

الأندلس إسم أطلقه المسلمون على شبه الجزيرة _أيبريا_ تعريباً لكلمة ”فنداليسيا“ التي كانت تطلق على الإقليم الروماني المعروف بإقليم ”باطقة“ الذي احتلته قبائل الفندال الجرمانية ما يقرب من عشرين عاماً، ويسمّيهم الحميري

بالأندلس^١ قال ابن سعيد، "أما سميت بالأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح، لأنه نزلها، كما أن أخاه" سبت بن يافث نزل العدو المقابلة لها، وإليه تنسب سبته^٢ وقال ابن غالب: "إنه أندلس بن يافث^٣ سمي العرب جميع البلدان الإسبانية التي فتحوها بإسم الأندلس."

يقول جودت الركابي "ليس من السهل شرح هذه التسمية يمكن تعريبها من إسم جماعات الفنداليسين الذين هاجموا إسبانيا ومروا بها مهاجرين إلى أفريقيا الشمالية في مبدأ القرن الخامس الميلادي، إذ يقال إن هولاء الفنداليسين عند قطعهم مضيق جبل طارق سمي المرفأ الذي أبحروا منه ولعله مرفأ طريف (Tarifa) أو الجزيرة سمي بإسمهم وقيل له فندلس وقد حافظ هذا المرفأ على هذا إسم حتى جاء المسلمون فجعلوه شاملا لجميع البلدان التي احتلوها بعد أن مرّفوه وجعلوه "أندلس".^٤

قال ابن حوقل التاجر الموصلي: "أرض الأندلس من — على البحر تواجه من أرض المغرب تونس، وإلى طبرقه إلى جزائر بني مزغناي ثم إلى نكور ثم إلى سبته ثم إلى أزيلى ثم إلى البحر المحيط، وتتصل الأندلس في البر الأصغر من جهة جليقية وهي جهة الشمال ويحيط بها الخليج الخارج من بعض مغربها وجنوبها، و البحر المحيط من بعض شمالها ومشرقها من حد الجلاقة إلى كوره شنترين ثم إلى أشبونة ثم إلى جبل الغور ثم إلى ما لديه من المدن إلى جزيرة جبل طارق المحاذي لسبته ثم إلى مالقه ثم إلى المرية ثم إلى بلاد مرسية ثم إلى طرطوشه ثم تتصل ببلاد الكفر هما يلي البحر الشرقي في ناحية أفرنجة ومما يلي المغرب ببلاء علجسكس وهم جيل من الأنكبردة، ثم إلى بلاد

١ دائرة المعارف الشعب، ج ٢، ص، ١

٢ نفح الطيب، ج ١، ص، ١٢٤

٣ أيضا

٤ في الأدب الأندلسي، ص، ٩

بسكونس ورومية الكبرى في وسطها ثم ببلاد الجلالقه حتى تنتهى إلى البحر المحيط^١.

الفتح الإسلامي للأندلس

كانت إسبانيا قبل الفتح العربى على أسوأ حالة من الضعف السياسى والاجتماعى وهذا ما ساعد على فتحها، فإنّ الضرائب الباهظة امتصّت ثروة الطبقة الوسطى واستبدّ الموسرين على قلتهم والأثرياء استبدّوا بأراضى الفلاحين يستغلونها لترفعهم ومصالحهم، والنصرانية مع انتشارها في إسبانيا لم تتغير كثيرا من الشرائع الرومية القديمة^٢ فظلت السيادة لأصحاب الإقطاعات عامة الناس والفلاحون يقضون حياة العبيد.

وكان القوط (wisigoth) هم الذين دخلوا هذا البلاد في القرن الخامس (ق م) أقامو فيها مطمئنين، وأزالوا السلطان الروم، وبنوا سلطاهم وانتحلوا النصرانية دينا،^٣ ولكنهم صاروا بها إلى اضطهاد اليهود، وإلى احتقار الرومانين لأنهم مغلوبون، فطبعي أن تفضى هذه الحالة إلى اختلال في بناء الدولة، وأكثر الشعب يمتنى زوالها لأن الأحكام تتغير بتغير الحكام.

وكان على إسبانيا ملك يقال له "لذريق" (Roderic) اغتصب العرش القوطى بعد وفاة الملك غيطشه وجعل العاصمة قرطبة (cordove) بدلا من طليطة لأن أشياعه فيها، ولم يكن من سلالة الملوك، وإنما رجل نبيل أيده ناصره الروم ورجال الدين لأنه وقف بغيطشه يعارضه في إزدراء الروم، وعبثه بأوامر الكنيسة، فلما صار إليه الملك فرع أولاد غيطشه، المندو (Olmendo) ورملة (Romulo) وأرطباش

١ معجم البلدان، ج ١، ص، ٢٦٢

٢ في الأدب الأندلسي لجودت الركابي، ص، ١٠

٣ أدباء العرب في الأندلس، ص، ٧

(Ardabast) وأخوه أباس (OPPAS) إلى يليان (JULIEN) صاحب سبته (CUETA) وكان عاملاً لقيصر الروم.^١

رؤى أن يليان (Julien) اشتد كرهه للذريق ونقمته عليه بعد ما انتهك عرض إبنته، وذلك أنه جرت عادة الأشراف في إسبانية أن يرسلو أولادهم وبناتهم إلى طليطلة ليتشرفوا بخدمة ملكهم ويتأدّبوا بأدبه وينالوا من كرامته، وكان "ليليان" ابنة بارعة الجمال إسمها "فلورندا" فبعثها إلى بلاط "لذريق" ف وقعت من قلبه موقعا حسنا ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضها فاحتالت حتى أعلمت أباهها بذلك سرّا بمكاتبة خفية، "قال عنده ذلك دين المسيح لأزيلن ملكه وسلطانه فكان امتعاضه من فاحشة إبنته" هو السبب في فتح الأندلس بالذى سبق من قدر الله تعالى.^٢

فكتب "يليان" إلى موسى بن نصير عاملاً للوليد بن عبد الملك في المغرب يزين له غزو الأندلس فأذن له على أن يخوضها، أول الأمر بالسرايا، فأرسل موسى له من البرابرة يقال له "طريف بن مالك النخعي" في أربع مائة راجل ومائة فارس فحملتهم أربع سفن "ليليان" إلى جزيرة الفندال التي اشتق منها إسم الأندلس فسمّت جزيرة طريف لتزوله بها، وأقاموا فيها أياما ثم كرّوا إلى المغرب وقد أصابوا مالا جسيما سببا لم ير موسى وأصحابه مثله.^٣

وأغرى هذا التوفيق الميسر موسى بن نصير فأرسل في عام ٩٢هـ — ٧١١م "طارق بن زياد" وبعثه في سبعة آلاف من البربر ليس فيهم إلا ثلاث مائة من العرب نزل الجهم على صخرة تسمى من ذلك الحين "جبل طارق" ولا أريد أن أدخل في تفاصيل الحوادث، فقصة الفتح وما رافقها من زيادة أو نقص موجودة في مختلف الكتب التاريخية ولكننا نشير فقط، أن العنصر البربري هو الذي كان يهيمن في

١ أدباء العرب في الأندلس، ص، ٧

٢ نفح الطيب، ج ١، ص، ٢٣٦

٣ أدباء العرب في الأندلس، ص، ٧

هذه الحملة الأولى. وأن المقاومة التي لاقاها العرب في الجزيرة الخضراء لم تكن شديدة، فعند ما علم لزريق بتقدّم المسلمين حشد الخيوش وكتب إلى أولاد غيطشه يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العرب، يحذرهم من القعود عنه، فلم يجدوا بداً من إجابته ومضوا معه وهم رصدون لمكروهة لأنه كان قد اغتصب الملك من أبيهم، وفي وادي "بكة" التقى الفريقان وكان جيش طارق قد أمدّ بخمسة آلاف بربري جاءه من المغرب فبلغ إثني عشر ألفاً سلاحهم حسن، وقلوبهم متّحدة، وكان جيش لذريق على رواية ابن خلدون أربعين ألفاً وعلى رواية المقرئ مائة ألف.^١

يروى أن طارق لما بلغه قرب جيش لزريق منه قام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم حثّ المسلمين على الجهاد ورغبهم فيه^٢ وخطب في جيشه خطبته المشهورة التي يقول فيها "أيها الناس! أين المفرّ؟ والبحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر" الخ.

واستمرت المعارك بين المسلمين والإسبانيين مدة ثمانية أيام فرجحت كفة طارق، وشالت كفة لذريق، فانهزم من المعمة وحاول أن يعبر النهر بجواده فلم يبين له أثر، وتمّ النصر للمسلمين في رمضان ٩٢هـ - وكانت خسارتهم نحو ثلاثة آلاف رجل، وأما الإسبانيون خسارتهم بإضعاف.

وبعد أن تم النصر وجد طارق من سهولة الفتح ما أغراه بإمعان في أن يشحن في الأرض، فوالى حركاته الحربية، وتوالى انتصاراته حتى لم يلبث أن أرسل سبع مائة من رجاله فتحوا قرطبة، ورأى طارق أن يعجّله ويسرع إلى طليطلة قبل أن يؤولوا عليهم ملكاً يجمع كلمتهم ويلمّ شعثهم، فيقدم قاصداً طليطلة، بعد أن فرق جيشه فرقا، فأرسل فرقة إلى قرطبة وأخرى إلى مالقة وثالثة إلى غرناطة فاستولت كل فرقة على البلد الذي قصده وسار هو إلى طليطلة عاصمة البلاد، فوجدها مغلقة الأبواب،

١ نفح الطيب، ج ١، ص، ٢١٥

٢ نفس المصدر، ص، ٢٢٥

حصينة الأسوار فحاصرها زمنا حتى اضطر أهلها إلى الصلح، فصالحهم على أن لهم الحرية في الخروج إن شاؤوا وهم أحرار في دينهم أن بقوا وترك لهم كنائسهم، وانتهى طارق على طليطلة دار مملكة القوط فألفاها خالية قد فرأهلها عنها إلى الجبال فضم يهودها إليها، وخلف بها رجالا من أصحابه وراح يطارد الفارين.

عهد الولاة ٩٢ - ٢٣٨هـ - ٧١٠ - ٧٥٥م

من العصور المختلفة التي توالى على الأندلس طيلة القرون الثمانية التي مرت بها، والتي كانت للمسلمين فيها دولة رفعت راية الإسلام عالية خفاقة، ندرك أن التقلبات السياسية والأحداث الاجتماعية، والظروف الطارئة كانت تختلف اختلافا بينا، جعل نصيب البلاد من العلم والآداب والثقافة والتهديب والحضارة والمدينة والرقى والتقدم يتفاوت قوة وضعفا على حسب كانت الفرص الموهوبة تساعد عليه، أوتفوق دونه، وقد علمنا أن عهد الولاة الفاتحين والمرابطين والموحدين مثلا من فترات الغفوة والنوم أو الركود، والضعف، والمرض، والانتكاس لا قيمة له في حساب الزمن ولا اعتبار له في نظر التاريخ.^١

بدأ عهد الولاة في الأندلس بطارق ثم بموسى بن نصير ثم بإبنة عبد العزيز، فبعد قتل عبد العزيز هذا بقيت الأندلس نحو ستة أشهر وبنو أمية لا يرسلون إليها والياً، فاجتمع زعماء البربر واختاروا أيوب بن اللخمي هو ابن أخت موسى بن نصير فحكم في قرطبة مدة قصيرة، ولم يطل عهده لأن محمد بن يزيد عامل إفريقية من قبل سليمان بن عبد الملك عزله وولّى مكانه الحر بن الثقفى،^٢ ولم يقتصر عهد الولاة على الحروب بين المسلمين والنصارى في أوروبا بل حدث شقاق عظيم في المسلمين أنفسهم فعهد الولاة كان عهدا مضطربا قامت فيه من ناحية ثورات البرابرة ضد العرب، واستحكم الشقاق والتنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق

١ تاريخ الأدب الأندلسي، ص، ٣١

٢ أدباء العرب، ص، ١٥

وانتقلت معهم العصبية القبلية وبدأ نزاعها ظاهرا بين القحطانية والعدنانية أو القيسية واليمانية.^١

وأخيرا كان الأمويون في الشرق قد تضعضت أحوالهم بنشاط الدعوة العباسية، فعجزوا عن ضبط الولايات القاصية فباتت الأندلس فوضى، لا راع لها، يتصرف فيها الجند بحسب أهوائهم، فاتفقوا على اقتسام الإمارة بين المضرية واليمانية، يتداولونها سنة فسنة فقدم المضرية عليهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة (١٢٩هـ - ٧٤٦م).

واستتم سنة ولايته بقرطبة، ثم جاءته اليمانية لميعاد دولتهم فبيّتهم يوسف في شقندة من قرى قرطبة، وبالغ في تقتيلهم وعاونهم الصميل وسائر المضرية، فبلغوا على أمرهم واستكانوا ليوسف الفهري على مضض، ثم أصاب الأندلس قحط عظيم، واشتد عليهم الجوع مدة ثلاث وأنشاء الدولة الأموية الجديدة.^٢

سقطت الخلافة الأموية في دمشق عام (١٣٢هـ - ٧٤٩م) وقضى العباسيون على دولة بني أمية، وأخذوا يتبعون بني مروان بالقتل، واستطاع أحد هؤلاء الأمراء عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن مروان، وكان شابا وينجوا بنفسه من فتك العباسين وينجح في اجتياز مصر ملتصقا بالنجاة في الأطراف الغربية للدولة الإسلامية حتى وصل إلى أفريقية وعبر منها سنة (١٣٨هـ - ٧٥٥م) إلى المنكب ودخل الأندلس فسمي بالداخل لأنه أول من دخل من بني مروان، واستطاع بفضل أليعته وذكائه أن يقتحم وحده هذا البلاد في وقت نشبت فيه الأحن بين العصبتين اليمانية والمضرية^٣، وقد توافقت عدة أسباب لنجاح ابن معاوية، منها حماية البربر لأنهم أخواله ومنها اجتماع موالى المروانية إليه لأنها مرواني، ومنها ضعفت الدعوة العباسية في الأندلس،

١ في الأدب الأندلسي، ص، ١٤

٢ أدباء العرب، ص، ١٧

٣ دائرة المعارف الشعب، ج ٢، ص، ٧٦

لأن المضرية كانت في كثرهما شامية أموية فاثالت إليه من كل جانب، وعجز الصميل ويوسف الفهرى فتمايلت إلى عبدالرحمن تشدّ إزره، وقديما كانت اليمانية أنصار أمية على قيس عيلان.

ومازال الأموى يحتل بلدا بعد بلد حتى دخل قرطبة، وجعل فيها سريره، وانتصر على الصميل ويوسف الفهرى والى الأندلس وأهلكهما ودانت له الأندلس فأصبح أميرها عبدالرحمن الداخل، ودعى له على المنابر، وبنى المسجد الجامع في قرطبة واختط مدينة الرصافة في شمالها على مثال رصافة الشام لجدّه هشام، وجعل قصره كقصر لذريق في عظمته وبهائه، وبدأت منذ ذلك العهد إمارة قرطبة المستقلة وتأسست الدولة الأموية وكانت مدة ملكه أربعاً وثلاثين سنة.

ثم تولى عبد الرحمن الداخل عدة أمراء كان لهم الفضل في توطيد أركان الدولة الأموية بالأندلس سياسياً وثقافياً، وأهم هؤلاء الأمراء عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن الداخل (٢٠٦ هـ - ٢٣٨ هـ).

ثم تولى عبدالرحمن بن محمد المعروف بالناصر لدين الله (٣٠٠ هـ - ٣٥٠ هـ) واستقامت له الأندلس، وأظل البلاد عهد من الاستقرار السياسي، تلقب بألقاب الخلافة سنة (٣١٦ هـ - ٩٢٨ م) حين لمس مبلغ الضعف الذي تردّت فيه الدولة العباسية.

وكان عبدالرحمن الناصر أعظم ملوك الناس وخليفة فيها، بلغت الأندلس في زمنه أوج مجدها واحتلت مكانه سياسية ومدينة عظيمة في نظر المسيحية والعالم الإسلامية نفسه^١ وأصبحت قرطبة في زمنه معهد الحياة الرفيعة ومصدر و موطن الفلاسفة والشعراء ومركز الفنون، والآداب، وشهدت عصر من الرخاء و الثراء لم تشهده حاضرة من قبل، توفي عبدالرحمن الناصر كان عمره سبعون عاماً، وحق لقرطبة في زمنه أن تدعى مدينة العلم والأدب والفن.

تولى الحكم بن عبدالرحمن بعد أبيه وتلقب بالمستنصر على الخلافة بقرطبة (٣٥٠، ٣٦٨هـ) وهذا الوقت الذى بلغ فيه الإزدهار السياسى والاقتصادى فى الأندلس ذروته، وفى عهده بلغت الحضارة الإسلامية أوجها، وصلت قرطبة إلى قمة المجد والبهاء وأخذت تنافس ببغداد والقسطنطينية.

بعد وفاة الحكم بن عبدالرحمن تولى الأمر بعده ولده الوحيد هشام الملقب بالمؤيد سنة تسع سنين (٣٩٩، ٣٦٦هـ) وكان هشام طفلا فقامت أمه السيدة "صبح" بالوصاية عليه، واتخذت محمد بن أبي عامر حاجبا للدولة وقد نجح ابن أبي عامر فى كسب محبة الناس، فلم يعد للخليفة من النفوذ سوى إثبات اسمه فى السكة وذكره فى الخطبة، وقيل إنه غزا بنفسه ستا وخمسين غزوة طوال سنى حكمه وتلقب ابن عامر بالمنصور.

وتولى الأمر بعد ابن أبي عامر ابنه عبد الملك وتلقب بالناصر لدين الله، وجرى على سنن أبيه وأخيه فى الحجر على اللخيفة، فطلب من هشام أن يوليه عهده فكتب له هشام فكان ذلك سببا فى نهاية العامرين وانقراض دولتهم، فنقم الأمويون والقرشيون وخلعوا هشام المؤيد وبايعوا محمد بن هشام من حفدة عبدالرحمن الثالث وتلقب بالمهدى فلما بلغ هذا الخبر قفل عائدا إلى قرطبة فأرسل إليه المهدى من قبض عليه واحتز رأسه وذهبت بموته الدولة العامرية، كذلك صار الأمر فى قرطبة إلى الطبقة الاستقرائية، وأما الولايات فإن رؤساء الطوائف فيها من بربر وعرب وموال اقتسموا خططها، فعرف هؤلاء الرؤساء بملوك الطوائف.^١

إن صورة المجتمع الأندلسي فى عصر ابن شهيد الأندلسي واضحة المعالم وهذه الفترة الخطيرة تعرف فى التاريخ الأندلسي بدورالفتنة، تولد ابن شهيد فى سنة ٣٨٢هـ فى قرطبة وفى هذه الفترة سيطر أبو عامر على الحكم بعد وفاة الحكم المستنصر، وتولى ابنه هشام ٣٦٦هـ، ولما كان هشام صغير السن لا يستطيع القيام

بأعباء الحكم كان لابدّ من الإشراف عليه، ولم يزل أبو عامر بشدة حزمه ودهائه، حتى سيطر على الخلافة وحجب هشاما عنها وتمتع بجميع سلطاتها حتى لم يبق لهشام إلا الاسم.

إن أبي عامر من نسل عبدالملك المعافى أحد المحاربين الداخلين مع طارق بن زياد ويتصل نسبه ببني عامر إحدى قبائل اليمن، وكان أبوه من علماء عصره، أما محمد بن أبي عامر نفسه فقد رحل إلى قرطبة شابا يطلب العلم ويتمرس بالأدب وبدأ حياته العلمية كاتب عرائض على باب القصر الخلفى بقرطبة، ثم انتقل إلى عمل في القصر، حيث اختارته الملكة "صبح" ليكتب عنها.^١

قضى المنصور بن أبي عامر معظم أيام حكمه في الحرب والغزو حتى غدا نجم الجهاد الصاعد لكن هذا كله لا يعدو أن يكون مجرد ردع للممالك النصارى وكفّ عدوانه على إسبانيا الإسلامي، بل يستطيع تحقيق الغاية المنشودة وهى القضاء التام على الممالك النصرانية في إسبانيا وسحقها.

أخيرا: توفى الحاجب المنصور ٣٩٢هـ الموافق ١٠٠٢م وتولى منصب الحجابة من بعده ابنه عبدالملك ولقب بسيف الدولة وبالمظفر^٢ سار عبدالملك على نفس سياسة أبيه من الاستبداد وجمع السلطة في يده والحجر على الخليفة هشام فكان هذا مظهر من مظاهر ضعف الخلافة الأموية وقتذاك. وقد قام الأمير الأموى محمد بن هشام بن عبدالجبار "فتى من بني أمية" بالدعوة لنفسه^٣ منتهزا غياب الحاجب عبدالرحمن شنجول سنة ٣٩٩هـ عن قرطبة في إحدى غزواته، واستولى على قصر الخلافة بقرطبة، وأرسل الأمير إلى الخليفة هشام المؤيد بأمره يخلع نفسه فاستجاب له

١ الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص، ٢٦٤، ٢٦٥

٢ اعمال الإعلام، ص، ٨٣

٣ بغية الملتبس، ص، ١٩

الخليفة هشام فقام الفقهاء والوزراء بمبايعته محمد بن هشام الذي تلقب بألقاب الخلافة ولقب بالمهدي.

خلال هذه الفترة العصبية تولى فيها حكم الأندلس عددا من الخلفاء الأمويين يزيد عددهم على عدد كل من تولى الحكم منذ قيام الأندلس لوقتها، وضاعت هبة الخلافة وانقسمت البلاد مرة أخرى وبرزت العصبية والقبلية المقيمة أكثر مما سبق وظهرت لأول مرة فكرة الاستعانة بنصارى إسبانيا الذين وجدوا في ذلك فرصة ذهبية في النيل من المسلمين ثم أعلن وزير المعتد أبو محمد بن جمهور انتهاء وسقوط الخلافة الأموية لعدم وجود من يستحقها، وأنه سيحكم الدولة جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهوري وبانتهاء هذه الفترة انقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة، واستقل كل أمير بمقاطعته وأعلن نفسه ملك عليها، ودخلت الأندلس النفق المظلم الذي لم تخرج من تعدها أبداً، هذه هي الحالة السياسية.

أما الحالة الاجتماعية فإن دولة يستعريفها الحكم وتتوطد فيها الأركان ويسودها الأمن وتكثر الفتوحات وتزداد الرقع التي تضم الي بيضتها باستمرار لا بد أن يعيش أهلها في أتم ما يكون من السعادة والرفاه وهذا ما كان في الأندلس - وخاصة في قرطبة - في عهد المنصور حتى لقد ذكرت كتب التاريخ والأدب أن المنصور "ملاً الأندلس غنائم وسببا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم وفي أيامه تغالي الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلي الدور"^١ وكما أسهب لسان الدين الخطيب في ذكر مظاهر الرخاء الاقتصادي وكثرة الأموال التي تدفقت علي خزينة الدولة فعاش الناس في أمن و دعة، وقال:

"فباحوا بالنعم واستثاروا بالكنوز وتنافسوا في الأموال وتنازعوا في المكاسب وتحاسدوا في اقتناء الأصول وابتناء القصور وغالوا في الفرش والأمتعة واسترفهوا

المراكب والغلمان وغالوا في الجواري والقيان فسمت أثمان ذلك في تلك المدن وبلغت الأندلس فيها الحد الذي فاق الكمال^١“

وفي أثناء ذلك - كان للمرأة مكانها خاصة وشأنها شأن الرجل بلا أي تفاوت من الناحية الإنسانية فذلك في حدوده ما أوجبه الإسلام على أساس طبيعة المرأة وفطرتها لقد كانت تتمتع بقسط من الحرية وكان بعضهن يتمتعن بنفوذ كبير في الحياة العلمية والعامة كما قد شارك بعضهن في رواية الحديث، فكانت غالبية بنت محمد المعلمة تروى الحديث. وشارك أخريات في الشعر ومنهن عائشة بنت أحمد بن قادم القرطبية. وكانت تمدح ملوك زمانها وتخطبهم بما يعرض لها من حاجاتها. وقد جمعت لنفسها مكتبة قيمة. وصفية بنت عبدالله الرئيس الشاعرة التي توفيت دون الثلاثين. ومريم بنت أبي يعقوب الفيصولي الغانية الشاعرة التي كانت تمدح الملوك وعارض ابن دراج إحدى قصائده حين مدحت خيران العامري^٢“

ولقد حفل عصر الطوائف بهذا النوع من الابتذال للمرأة باسم الفن، وكانت قصور الأثرياء مثنوى لفنون الغناء والرقص والموسيقى وما يدخلها في باهما من صور الترف. وكان معظم الأثرياء من عشاق الموسيقى وما يتبعها من الغناء كما قال محمد عبد الله عنان:

”وكانوا يتنافسون في اقتناء الفتيات الحسان البارعات في العزف والغناء، ويبدلون في سبيل ذلك الأموال الطائلة، وكان في قصورهم أسراب أسراب^٣“
وإلى جانب آخر:

١ أعمال الاعلام، ص، ٩٣

٢ جذوة المقتبس، ص، ٤١٣

٣ دول الطوائف، ص ٤٤

لم يغفل المنصور ببناء العمران الدّور والقصور وتعمير المساجد وزخرفتها وزينتها كما قد اتّصلت العمارة في مباني قرطبة بأحيائها في أيام بني أمية - ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضاً وكان يمشي فيها بضوء السرج المتصلة عشرة أميال^١ وهذه الإضاءة الليلة المتصلة قد سبقتها نظافة للشوارع، بحيث صح أن تكون قرطبة "جوهرة" هذا بينما كانت في ذلك العصر بعض المراكز غير الإسلامية ترى أن النظافة معصية فكانت بالتوالي شوارع قرطبة آية في الجمال والاتساق وحسن الرونق.

هكذا قد كثرت المساجد في قرطبة كثرة عظيمة ويرى القلقشندي أن عدد مساجدها بلغ ألفاً وستمائة مسجد^٢ ويرى الآخرون أنها كانت نحواً من ٣٨٧٧ مسجد^٣، ويرى الحميري أنها كانت أربعمائة وتسعين مسجد^٤، ولكن قد يؤثّق الدكتور أحمد شلي ظاهرة كثرة المساجد، وينفى المبالغة في الأرقام التي وردت عن عددها، ويفسر هذه الظاهرة بأن المساجد كان في غالب الأحيان - مجرد حجرة تعد بالبيت للصلاة ويطلق عليها كلمة مساجد.^٥

وكانت هذه المساجد هي مراكز الحياة الاجتماعية في قرطبة، فكانت تقوم حوله الأسواق والحوانيت بالإضافة إلى الدّور الاجتماعي والديني والسياسي والعلمي الذي يقوم به المسجد ففيه كانت تعقد الاجتماعات، وتقرء به المنشورات والأوامر النظامية وتحل كثير من المشكلات السهلة، أما المشكلات المعقدة فتحال إلى المحاكم.^٦

١ دائرة المعارف الشعب، ج ٢، ص ١٤

٢ صبح الأعشي، ج ٥ / ص ٢٢٦

٣ دائرة المعارف الشعب، ج ٢ / ص ١٤

٤ صفة جزيرة الاندلس، ص ١٥٧

٥ تاريخ التربية الإسلامية، ص ١٠٤

٦ مقال بمجلة العربي، د/حسين مؤنس، عدد، ٩

إذا أمعنا النظر في كتب التاريخ فوجدنا فيها أن المنصور قد ضرب بقسط وافر في تشجيع العمران، فوسع المسجد الجامع بقرطبة، هكذا أقام على نهر قرطبة قنطرة أخرى غير القديمة، وأقام أيضا قنطرة ثانية على نهر "إستجه" كذلك التفت حوله قلوب العامة والخاصة، وتعلق به الناس وأحبوه فكان كل منهم يتمنى دوام عهده واستدامة ملكه.

أما الحالة الأدبية إذا نظرنا إلى المجتمع الأندلسي من ناحية علمية وأدبية فله ميزات باهرة وصفات طيبة تميزه عن كثير من المجتمعات الإسلامية الأخرى من ناحية الديانة والثقافة وإجلال العلماء إلى غير ذلك من الصفات الحميدة التي جعلته من الشعوب المتقدمة والثقافة في مرتبة سامية ودفعت به إلى مدارج التقدم والإزدهار، لقد كان شعب الأندلس شعبا يقبل العلم للعلم ذاته، ومن ثم كان علماءهم متقنين لفنون علمهم لأنهم يسعون إليها مختارين غير مدفوعين بهدف غير التعلم، وكان عامة الرجل يجب أن ينفق كل ما عنده من مال للحصول على المهارة في أي قسم من العلوم والفنون، حتى يتعلم، ومتى عرف العالم بالعلم يتمتع بكل الإجلال والتكريم، ويشير الناس إليه بالبنان وينبّه قدره ويعلمو ذكره بين الخاصة والعامة، ومن الطريف أن العالم كان موضعاً للتكريم من جيرانه كما يراعي جانبه إذا ما أراد ابتياع سلعة أو شراء شيء من أغراض الحياة.

ومن المعلوم مما كان متوفراً لدى المجتمع الأندلسي في هذه الفترة، من العلم والأدب والثقافة يضاف إلى ذلك الشيء الذي قد كان خفياً في قلب المنصور هو حبه الأدب والثقافة وتذوقه لهما وممارسته لبعض أساليبهما أحياناً، كما بين صاحب دائرة المعارف: "ولم يكن ابن أبي عامر بطبيعته من التزاعين إلى الاستغراق في التفكير فقط، ولكنه رجلاً علمياً، واسع الفكر كثير المرونة، بعيداً عن التعصب"^١

والمطالعة كتب التاريخ أن عصر العامين مع فتنه الكثير كان عصرا علميا أيضا، كما ”كان له مجلس(أى للمنصور) في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيما بقرطبة“^١ وقال ابن الأثير لحمل المنصور بن أبي عامر ”كان أهله من الجزيرة الخضراء من بيت مشهور، وقدم قرطبة طالبا للعلم و كان عالما محبا للعلماء يكثر مجالسهم وينظرهم وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه و صنفوا له بتصانيف كثيرة“^٢ ويستمر صاحب المعجب في ذكر تفاصيل لقاء أبي العلاء بالمنصور وإكرام له وملازمته لمجالسه واستمرار صلته به حتى ألف أبو العلاء كتابا، سماه القصص على نحو كتاب النوادر لأبي على القالى^٣ ثم قد اضمحلت نشاطات العلم والأدب في الأدوار المضطربة، فقد توقف الإنتاج الأدبي، إذ ليس باستطاعة أى أديب أو عالم انتاج شئ في ظل تلك الأزمات والانقلابات إلا اليسير، خاصة في قرطبة لجميع ما وقع من أحداث وإلى ذلك يشير الدكتور هيكل:

”كان من نتائج أحداث فترة الفتنة أن تعطل النشاط الثقافى وخاصة في قرطبة مسرح المأساة فقد أغلقت المدارس وانفضت حلقات الدرس وقتل بعض العلماء وهاجر البعض إلى حيث يلتمس شيا من الأمن“^٤

على أن ذلك لم يخمّد أنفاس الثقافة الأندلسية في ذلك الحين فقد كانت هناك بقية من العلماء الأندلسيين الذين أدركوا الإزدهار في فترة الخلافة أو انتفعوا بقوة الدفع في فترة الحجابة، فحفظوا الأندلس كثيرا من علمها وتراثها رغم ما كان من فتنة كبيرة^٥ وكان التأثير شرا على بعض الأنواع الأدبية وخيرا على بعضها الآخر.

١ المعجب، ص ٣٨

٢ الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ١٧٦

٣ المعجب، ص ٣١، ٣٢

٤ الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ٣٤٩، ٣٥٠

٥ نفس المصدر، ص ٣٥٠

ومن مظاهر الشر: انتشار أدب التلهي، والتفاهة، وأدب الهروب بتعبير أشمل. ومن مظاهر الخير: ظهور أدب التأمل والتذكر والنقد، وأدب المراجعة بتعبير أعم، ومن هنا خطا النثر خطوات واسعة حتى سبق الشعر، إذ ظهرت أنواع جادة جديدة أتاح لها انطواء بعض الأدباء وعكوفهم جواً ملائماً فيه تأمل وفيه مراجعة، مما يساعد على التخيل والقص والتحليل والنقد، وهى السمات التى حفلت بهم أهم الأعمال النثرية فى تلك الفترة. كما شهدت قصور الأمويين والعامريين والطوائف ألواناً من المساجلات قامت بين الشعراء والأدباء كابن العريف وابن شهيد والزبيدي والقسطلى والطبى وأبي العلاء صاعد^١ وقد صارت قصصها ووقائعها مادة طيبة لحركة الفكر الأندلسى. وكانت هناك مساجلات أخرى هدفها الانتصار للرأى، ومقارعة الخصوم سواء من خارج الدين الإسلامى أو من داخله، من أصحاب المذاهب الفقهية والكلامية الأخرى، ومساجلات أبى محمد بن حزم وأبى الوليد الباجى من أشهر المساجلات التى تعكس هذا النوع من المبارزة الفكرية التى تعقد لها المجالس، ويحضرها المثقفون من مؤيدين ومعارضين.^٢

ولكن لم يكن مجال هذه المناظرات التنافس والكسب فقط، كما أنها لم تكن لمجرد التسلية، وإنما كانت أسلوباً من أساليب امتحان القدرة الفكرية والفنية، والطريف من هذه الامتحانات هى تلك التى يقوم بها العلماء بعضهم لبعض فى المجالس العلمية، ويترك الأمر لنتائج هذه الامتحانات لمنح الألقاب العلمية، وقد كان لبعض المناظرات أثر عظيم فى تقرير مصير العلماء.

وقال صاحب نفح الطيب حول هذه المناظرات الأدبية والمساجلات العلمية مما جعل الحركة الثقافية تبلغ ذروة مجدها حتى أنه "قيل عن قرطبة هى أكثر بلاد الأندلس

١ ابن حزم صورة أندلسية دأطه الحاجر، ص ٥٣

٢ مناظرات ابن حزم والباجى، ص ١٨، لعبد المجيد التركى

كتباء، وأشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة^١“

وقيل أيضا ”إذا مات عالمٌ باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية، قال: وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً“^٢ وهذه كلمة عن كل من نوعى الأدب فى فترة الفتنة.

١ نفح الطيب، ج ١، ص ١٥٥

٢ الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ٣٦٤

الباب الثانى

إبن شهيد الأندلسى حياته ونشأته وثقافته وآثاره الأدبية

- إسمه ونسبه
- حياته ونشأته
- ثقافته
- أخلاقه
- وآثاره الأدبية
- مكانة إبن شهيد بين أدباء القديم والجديد

إسمه ونسبه:

هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى شهيد^١ المعروف بأبي عامر أشجعي النسب^٢ الأندلسي القرطبي، من ولد الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحاك يوم المرج^٣، وهذه الوضاح هو جد بني وضاح من أهل مرسية وإليه ينتسبون فبنو الوضاح من أشجع، وأشجع من قيس عيلان بن مضر، كما نبّه الضبي^٤.

كان أبو عامر سليل أسرة عرفت بالرياسة، والوزارة منذ زمن بعيد في تاريخ الأندلس، يقول ابن البار^٥ "وشهيد بن عيسى هو الداخل إلى الأندلس في أيام عبدالرحمن بن معاوية، وتصرف بنوه للخلفاء في الخطط السنية من الإمارة والحجابه والوزارة والكتابة، على إنقراض الدولة الأموية بالأندلس" وكان جدّ أبي عامر "أحمد بن عبد الملك" من المقربين عند عبد الرحمن بن محمد الناصر، "فولّاها الكورقاد الصوائف"، "وغزا البشكنس" وتولى الوزارة هو أول من سمى بذي الوزارتين^٥.

حياته ونشأته:

ولد أبو عامر ابن شهيد في القسم الشرقي في حيّ "منية المغيرة" في الدار المعروفة بدار النعمان، سنة (٣٨٢هـ - ٩٩٢م) في مدينة قرطبة وهي آنذاك في أزهى عصورها التاريخية تعجّ بالعلم والعلماء ومجالس الأدب، عاش ابن شهيد في كنف النعيم الأميري،

١ شهيد: بضم الشين المثناة، وفتح الهاء، وسكون الياء المثنة من تحتها، وبعدها دال مهملة.

٢ الأشجعي: بفتح الهمزة وسكون الشين المثناة، وفتح الجيم، وبعدها عين مهملة، هذه النسبة إلى أشجع بن

ريث بن غطفان وهي قبيلة كبيرة. وفيات الأعيان، ج ١ ص ١٠٠

٣ يوم المرج: معركة حدثت بين الضحاك بن قيس الفهري الذي كان قائد الجيش عبدالله بن الزبير وبين مروان بن

الحكم وهي المعركة الحاسمة التي استعاد فيها بنو أمية ملكهم من جديد وهزم فيها الضحاك وجيء برأسه أمام

مروان بن الحكم فساه ذلك، تاريخ طبري، ج ٥ ص ٥٣٥ ٥٣٧

٤ بغية الملتبس، ص، ١٧٤ ١٧٧

٥ ابن شهيد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي، ص ١٧

وترعرع في ظل الجنان القرطبي، استشعر مظاهر السعادة في الرقي الأندلسي وتربى في قصور الإمارة فشبَّ على العزة والإباء، وأحس بالعظمة والكبرياء.

نشأ ابن شهيد الطفل الصغير فوضع حبَّ الترف والبذخ والتعلق بالمال وحرصه على إنفاقه، رضع كل ذلك مع رضع مامن اللبن فتربى كما يتربى أطفال الأمراء والوزراء، ففي هذا الوسط المترف قضى ابن شهيد طفولته الأولى وسنى حياته، وكان طفلاً شديد الحساسية، فانطبعت في ذاكرته منذ الصغر ذكريات لم تنطمس، نلمس فيها الثورة الخبيثة على أبيه والبشوف إلى الثراء وحب الظهور، واستشعار السيادة في ذلك الدور المبكر من حياته.^١

فقد ظل يذكر كيف دخل وهو في الخامسة من عمره على المنصور ابن أبي عامر، فرأى بين يديه تفاحة كبيرة، فأخذ يتأملها تأمل الشره، فأمره المنصور أن يأخذها ويأكلها، فلما اطبق على بعضها فمه لم يستطع أن يقطع منها شيئاً، بل إن يده ضاقت عنها، فتناولها المنصور منه، وأخذ يقطع له بفمه ويطعمه، وكأن هذا العطف كان يذكره بأنه حرم شيئاً كثيراً من عطف أبيه الذي كان مشغولاً بمجالسه وبأمور الدولة أكثر من النظر إلى أبنائه. ثم سلمه المنصور إلى من حملة إلى بيت المنصور، حيث السيدة زوجته، ولم ينس الطفل أحمد ما استقبل به من حفاوة من النساء، وكيف غمره بالهدايا، وقدمت له زوج لمنصور ألف دينار عن نفسها وثلاثة آلاف عن زوجها، وظن الطفل أنه حر التصرف فيما أهدي إليه لأنه يملكه، ولكنه ما كاد يعود إلى البيت حتى استولى أبوه على كل شيء، فوزع منه ما وزع، واستبقى منه ما شاء. وتلك حادثة أثرت في نفسية أحمد تأثيراً عميقاً يشبه الحقد، ذلك أنه كان يرجو أن يشبع رغبته من تلك الالوف، لا بشراء اللعب فحسب، ”والخيل إذ ذاك نخب من قصب، والدرق قشور من خشب“^٢ بل ليفرق ما يريد تفريقه من ذلك المال على الخدم والجواري وأطفال الحي. وقد نقل إلى

١ تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص، ٢٧٢، ٢٧٣

٢ الذخيرة ج ١، ص، ١٦٥

المنصور أن هذا الطفل غضب مما فعله أبوه، ولعله بكى لديه، فمنحه خمسمائة دينار واقسم على أن يبيح له التصرف التام بما، فبددها على لعبة كثيرا منها على لذاته. وحادثة ثانية كانت أعمق أثرا من الأولى، وهو يقول إنها كانت أفدح نازلة نزلت بصوته، ذلك أن أباه حين نسل، نسي حق الطفولة في اللهو، فطرح ذيل نسكه وتكشفه على أبنائه، وعمد إلى ابنه أحمد وكان يومئذ في الثامنة، فحلق لمتة، وانتزع ما عليه من ثياب الخز والوشي، وألبسه بدلا منها ثيابا بسيطة، فتلقى الطفل هذه بألم شديد، ومر به الوزير ابن مسلمة ذات مرة، فسأله عن حاله، فأجابه بالنشيج والعجيج، - مظهر من مظاهر الحساسية الشديدة والنشأة المدللة - فما كان من الوزير إلا أن حكى الأمر إلى المظفر ابن المنصور - وكان المنصور غائبا - فاستقدم الغلام إليه وألبسه ثياب الحرير، وحمله على فرس بسرجه ولجامه، وأعطاه الف دينار، وعقد له؟ عقدا صوريا - على الشرطة، فأرضى في نفسه الصغيرة تشوفها إلى المراكز العالية الكبيرة، وتطلعها إلى جديد من الثياب والوافر من الأموال.

من أجل ذلك نكبة قرطبة حادثا جللا بالنسبة له لأنها هوت بالمجد العامري، وقضت على الأيام السعيدة في ظل العامرين، وكانت نشأة أبي عامر لا تقويه على الكفاح والمغامرة من جديد، لنعمتها أولا، ولفرقه الشديد من تقلبات الأيام في المهاجرة، فبقي في قرطبة ينظر إلى معاهدها في أسي، ويكي قصورها ومنتزهاتها، ويعلل عجزه عن مفارقتها بحبه للوطن، بحبه لقرطبة وإن كانت عجوزا متغيرة الريح ساقطة الأسنان، زانية بالرجال "طاب له الموت على هواها"¹

كذلك كان ابن شهيد على ولاء للأموين ويسرع إلى الحكام يسترضيهم ويواكب كل عهد وقصر كي يبقى على لذته ولهوه، هكذا ظل ابن شهيد في قرارة نفسه حبا عميقا وصادقا وموالاة لا تتغير في الباطن تنتقل مدحه بين الممدوحين في الظاهر يخلص فيه لآل العامرين فقد كان وفيًا مع آل عامر ويذكرهم بالخير ويعترف لهم بالفضل

ولا يزال يحنّ إلى عطفهم، ويتطلع إلى شروق شمسهم التي حجبت بين غيوم الفتن والأحوال الجسام، لا عجب في ذلك وهو من تربّى في كنفهم ودرج في قصورهم وبين أبنائهم واستشعر فترة ملكهم حياة النعيم والرخاء وهو ما زال يذكرها طوال حياته.

شيوخه:

وإذا نظرنا إلى مصادر الرئيسية لم نعثر على أية إشارة تدل على أن له شيوخا معروفين تلقّى على أيديهم العلم والادب، وفيها يبدو أنه تلقّى أكثر علمه عن طريق الاستفادة من أبيه ومن الكتب التي كان يقرأها وارتياذه إلى تلك المجالس الأدبية التي تنعقد في قرطبة تعتبر بمثابة ندوات ومحاضرات عليه. وفي الواقع أن عدم معرفة شيوخ ابن شهيد ألصقت به عيبا، عند ناقديه في ذلك الوقت كما يقول في رسالة التوابع لسان ابن الإفليلي^١ أحد أعدائه^٢ "فتى لم أعرف على من قرئه مما يدل على أن هذا كان يضايقه جدا" لكن ابن شهيد أفاد كثيرا من صديقه وحميمه أبي محمد بن حزم الذي كان يتلقّى معه دائما للتباحث في المسائل العلمية، وكان كل منهما معجبا بما عند الآخر، فيتبادلان الزيارات الودّية كما يحكى لنا صاحب نفح الطيب:

"وحكى أن الحافظ أبا محمد ابن حزم قصد أبا عامر ابن شهيد في يوم غزير المطر والوحل شديد الريح، فلقيه أبو عامر وأعظم قصده على تلك الحال، وقال له، يا سيدى، مثلك يقصدني في مثل هذا اليوم! فأنشده أبو محمد ابن حزم بديهاً:

فلو كانت الدنيا دوينك لجة.... وفي الجوصعق دائم وحريق
لسهّل ودّي فيك نحوك مسلكا.... ولم يتعذّر لي إليك طريق"^٣

ثقافته:

نشأ أبو عامر نشأة لاهية، فقد قال في وصفه الحجازى على بن محمد (ت ٥٤٦هـ) "كان ألزم للكأس من الأطيّار بالأغصان، وأولع بها من خيال الواصل

١ الذخيرة ق ١ ج ١، ص، ٢٤٠

٢ نفس المصدر، ص ٢١١

٣ نفح الطيب ج ١، ص ٢٣٠

بالمهجران“^١ وقال فيه ابن حيان ”رجل غلبت عليه البطالة فلم يحفل في آثارها بضياح دين ولا مروءة، فحط في هواه شديداً حتى أسقط شرفه، ووهم نفسه راضيا في ذلك بما يلذه، فلم يقصر عن مصيبة، ولا ارتكاب قبيحه“^٢

وأول ما نستشفه من قول ابن حيان هو وصف الرجل باللهو والمجون، ويبدو أنها صفة غالبية عليه، ملازمة له، إذ لم يأبه معها بضياح دينه ومروءته وشرفه، فأطاع هوى نفسه في معاقرة الخمر، وارتكاب القبائح، وربما كان للعصر الذي نشأ فيه، والحياة المترفة التي عاشها دخل كبير في ذلك اللهو المجون والاستهتار بالقيم والمبادئ، كما كان ابن شهيد يجلس في ”حير الزجالي“^٣ خارج باب اليهود يكحل نظريه بجمال الطبيعة ويتناول أقذاح الخمر ويجاذب أصدقاءه أطراف الأحاديث و الأسمار الأدبية، وكانت لأبي عامر بن شهيد فرج وراحات، أطاه فيها الدهر ما شاء، ووالى عليه الصحو والانتشاء. يقول ابن شهيد:^٤

ولرب حان قد أدرت بديره	خمر الصبا مزجت بصفوخموره
في فتية جعلوا الزقاق تكاءهم	متصاغرين تخشعاً لكبيره
و القس ماشاء طول مقمنا	يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مصفر	كالخشف خفزه التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه شرهم	لسلافه و الأكل من ختريه

وكما ذكرنا سالفا قد ولد أبو عامر في قرطبة وترعرع فيها وأحبها حبا كبيرا، وقد كانت قرطبة آنذاك تعجّ بالعلم والعلماء، وكانت الحياة الثقافية فيها نشيطة جدا، بل إنها توقفت على مُدن الأندلس كلها، ثم مرت بتطورات سياسية كثيرة، وكان

١ المغرب لابن سعيد، ج ١، ص ٨٥

٢ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ١٩٣

٣ وهذا الخير من أبدع المواضع وأجملها وأتمها حسنا وأكملها، صحنه مرمر صافي البياض، يخترقه جدول كالحية النضاض به جابية، على كل لجة بها كابية، قد قربصت بالذهب واللزورد سماؤه، وتأزرت بها جوانبه وأرجاءه، والروض قد اعتدلت أسفاره، وابتسمت من كمامها أزهاره....نفع الطيب ج ١، ص ١٦١

٤ مطمح الأنفس، ص ١٩

لحياة ابن شهيد ارتباط وثيق بهذه التطورات التي مرت بها قرطبة إذ كان ابن شهيد مواليا للعامرين، وكما ينعم في خيراتهم، ويستظل بظلهم وكانت الحياة في سلم وأمان، إلى أن شبت نيران الفتنة عام ٣٩٩هـ على يد المهدي، وقد كان لهذه الفتنة التي ابتليت بها قرطبة أثر سيئ على العلم والعلماء، ومنهم ابن شهيد الذي يقول في شأنه:

”وإن الفتنة نسخ للأشياء، من العلوم والأهواء، ترى الفهم فيها باثر السلعة، خاسر الصفقة يلمح بأعين الشنآن، ويستثقل بكل مكان. وهذا رأينا، وحرينا“^١

إن ابن شهيد يقر بتأثير الحروب والفتنة على العلوم والعلماء، كان مجال الفهم والإبداع قد استغلق في هذه الفترة، ولكن مع ذلك قد اطلع ابن شهيد على علوم عصره ودرس بعض الكتب من الأدب والفقه والبلاغة وغيرها. كما بين المورخ الشهير فؤاد أفرام البستاني:

”فإنه وجد رغبته إلى الشعر في وراثته بحيث كان أبوه عبدالمملك شاعرا، وكذلك جدّه مروان وجدّ أبيه أحمد بن عبد الملك، ثم عمّه وأخوه كانوا من الشعراء البارزين، ولكن ابن شهيد أجودهم شاعرية وأخصبهم قريحة، وأعمقهم فكرا وأوسعهم تفنّنا وأكثرهم شهرة، وأجمعهم ثقافة“^٢

وإلى جانب آخر قد أحاط أبو عامر بعلوم أخرى، فقد أثنى عليه صاحب الجذوة في اختتام كلامه عليه قوله. ”وكان لا يليق شيئا ولا يأسى على فائت، عزيز النفس، مائلا إلى الهزل وكان له من علم الطب نصيب وافر“^٣ وبهذا يتبين أن أبا عامر كان يجمع إلى اختصاصه في الأدب شعرا ونثرا، والاطلاع على مختلف العلوم التي مكنته من أن يحتل مكانته بين معاصريه، ويملاقلوهم ويظفر بإعجابهم وتقديرهم.

أخلاقه:

١ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ١٧٩

٢ دائرة المعارف، ح ٣، ص ٢٧٢

٣ جذوة المقتبس، ص ١٢٦

أما اخلاق ابن شهيد فنستطيع أن يلخصها فيما يلي:

الكرم: كان ابن شهيد كريما يبذل العطاء للمستحقين ويساعد ذوي الحاجة، وهناك القصة التي تحكى كرمه وجوده من ذلك ماوراء ابن دحية^١ عن قصة الذي أتى من طليطلة هو وأبناءه يلتمسون المساعدة والعون من الكرماء، فأرشدته الناس إلى بيت أبي عامر ابن شهيد فأجزل له العطاء فمنحه أموالا وأعطاه دارا وملابس فاخرة إلى غير ذلك، وكل هذا يعطينا صورة صادقة عن كرم ابن شهيد الذي ملأ الآفاق واشتهر بين الناس، ولكن آفة الكرم الفقر كما يقال فقد شارف (يعنى واجه) ابن شهيد الإملاق^٢ (الفقر) لأن البطالة كانت غالبية عليه، ولكنه بقى على هذه الحال لا يليق شيئا ولا يأس على فائت، حتى مات رحمه الله، كما قال:

أنا البحر لا يستوهن الخطب طاقتي وتأبى الحان أن أطيع لقاءها

تيمم قصدى النائبات فردها فتي لم يشجع حين حان رياءها^٣

حصافة الرأي: كان ابن شهيد حصيف الراى صادق المشورة يقول عنه ابن حيان "كان من أصح الناس رأيا لمن استشاره، وأضلهم عنه في ذاته، وأشدهم جناية على حاله ونصابه"^٤ نستشف من هذا القول أن الرجل كان مرموقا، ذا مكانة وشأن كبير، إذ كان الناس يستشيرونه في أمورهم، وكان صادق المشورة، صحيح الرأي، إلا أنه لم ير ينفع نفسه بآراه السديدة، بل أضلها في معاقرة الخمر، والمجاهرة بالمنكر.

العزة والافتخار: كان ابن شهيد يعتز بنسبه في أكثر أحيان، ويفخر بأسرته و مجد أجداده يقول مخاطبا لنفسه! ثكلتك المكارم يا ابن الأكارم ألسنت من أشجع في العلا، ومن شهيد في الذرى^٥ ويقول مفتخرا:

١ المطرب، ص ١٥٨ ١٥٩

٢ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ١٦٢

٣ نفس المصدر

٤ نفس المصدر، ص ١٦٢

٥ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ١٩٠

والنفس نفس من شهيد سنخها سنخ غدت منه العلا بلبانها^١
ومن جيّد قوله في هذا الصدد:

إن الكريم إذا نابته مخمصة أبدى إلى الناس شبعاً وهو ظمآن
يحنى الضلوع على مثل اللظى حرقاً والوجه غمر بماء البشر ملآن^٢

علاقته بالحكام: أما علاقته بالحكام فإن المصادر الرئيسية المهمة لاتعطينا صورة واضحة عن حياته ونشأته وثقافته في هذه الفترة ولكن قد ذكر مختصراً ابن بسام في كتابه الذخيرة. فقد ذكر صاحب الذخيرة رسالة مطوّلة أرسلها ابن شهيد إلى المؤمن تطرق فيها إلى فضل بني عامر وصلتهم بأهله.

فصول من رقعة خاطب بها المؤمن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بي أبي عامر "لولا أن من العادة بين السادة والمسودين والمالكة والمتملكين تطارح الأدمة وتداوى لطائف الحرمة لأكبرته-أيده الله- عما أرغب ذكره وأكرمه عما أطلب نشره"^٣

وكذا أقوى علاقة وأبرزها في هذه الفترة مع سليمان المستعين (ت ٣٩٥هـ) فقد جاء على لسان أبي عامر قوله "أما أبو محمد فانتضى على لسانه عند المستعين ساعدته زراقة من الحاسدين وبلغني ذلك فأنشدته شعراً كما مدح المستعين بقصيدة منها قوله:

بكى أسفا للبين يوم التفرق وقد هون التوريع بعض الذي لقي^٤

أما صلة أبي عامر بالحمودين أثناء الفتنة، فإننا لا نجد فيما يتعلق بعلي بن حمود نصاً أو أثراً يدل على وجود صلة بين أبي عامر وبينه إلا إشارة واضحة ضعيفة في إحدى قصائده الهائية الواردة ضمن رسالة التوابع والزوابع وأوردها ابن بسام ومطلع القصيدة.

إني إمروء لعب الزمان بهمتي وسقيت من كأس الخطوب دهاقها

١ نفس المصدر ، ص ١٧٤

٢ مطمح الأنفس ، ص ١٧

٣ الذخيره ق ١ ج ١ ، ص ١٦٣

٤ نفس المصدر ، ص ٢٧٤

وكبوت طرفا في العلا فاستضحكت حمر الأنام فما تريم فهاها^١

ثم سجّنه المعتلى بسبب وشاية سعى به إليه، وصفها ابن خاقان في قوله:

”ودبت له أيام العلوين عقارت برئت بها من أباعد وأقارب، واجهه بها صرف قطوب، وانبرت إليها من خطوب، وبقي بها يارق ولا يهجع إلى أن عقلته الاعتقال حباله، وعقلته في عقل أذهب ماله، فأقام مرثنا ولقى وهنا“^٢ فكتب قصيدته الدالية يستعطفه بها ويعتذر إليها قائلا:

قريب بمحتل الهوان مجيد يجود ويشكو حزنه فيجيد

نعى صبره عند الإمام فيا له عدو لأبناء الكرام حسود

وما ضره إلا مزاح ورقة ثنته سفيه الذكر وهو رشيد^٣

وما لبث بعدها أن استقامت أحواله زمن المعتلى وتوطدت علاقته به بعد أن أطلق سراحه فمدحه بالعديد من القصائد، ولم يستمر الحال على ما هو عليه ولم يهنا ابن شهيد بتلك الصحبة، فخرج من قرطبة إلى مالقه بعد أن استولى عليها عمه القاسم ولم يغفل في تلك الآونة صلته بإبن شهيد ولم يتنكر لها، إذ عزم أبو عامر على الخروج معه، وهنا يقف إبن شهيد مرة أخرى مع حبه الخالص لقرطبة، والذي يذكر بسبب منه رغبة المعتلى في العودة إليها.

فبعد خلع القاسم من الحكم ومبايعة المستظهر عبدالرحمن بن هشام بن عبد الجبار والذي كان في زمن حكمه على ضيقت فترات المجد الشهيدى الخاص، فقد تولى إبن شهيد فيما يقارب سبعا وأربعين يوما الوزارة^٤ وهى الفترة ما بين تولى المستظهر للخلافة وقبله من قبل المستكفى وبعد أن عاد المعتلى لقرطبة وقتل المستكفى وبايع بالخلافة هشام المعتد، كان لإبن شهيد قصائد مدح متجدده وولاء متميز لمن أعلى

١ نفس المصدر ، ص ٢١٧

٢ مطمح الأنفس ، ص ١٩٨

٣ نفس المصدر ، ١٩٨

٤ نفح الطيب ، ج ١ ص ٤٨٨

شأنه وحقق رغبته الدائمة، فقد نال في زمن المعتد الوزارة، وشفى غليل الشاعر من الحساد والمبغضين، وفي ذلك نظم قصيدته التي يغرى فيها المعتد بالفقهاء، وهي قصيدته كما يقول عنها ابن حيان "ذميمة المعاني" استهدف بها إلى سفك دماء المسلمين وجسر هشاما على الفتك بالعاملين.

وقد وصف صاحب المغرب علاقة أبي عامر بالمعتد "بأن الأخير اتخذ أبا عامر جليسا، قيل لابن الحناط: كيف كان هشام المعتد،" فقال يكفى من الدلالة على اختياره أنه استكتبني واتخذ ابن شهيد جليسا"^١

ولعل آخر دلالة على صلة أبي عامر بالمعتد رثاء أبي عامر عند خلعه وهي إضافة لما تعطيه من دلالة العلاقة بينهما فهي توضح لنا الدرجة التي بلغها أبو عامر في عهد المعتد ومدى ارتياحه إليه، وكيف أنه شفى غليله من أعدائه بقوة المعتد الذي رفعه على حساده ومبغضيه وجعلهم جميعا دونه، فيقول:

أحللتني بمحلة الجوزاء	ورويت عندك من دم الأعداء
وطمعت لحم المارقين فاخصبت	حالي وبلغني الزمان شفائي
وحملتني كالصقر فوق معاشر	تحتي كأنهم بنات الماء ^٢

فبعد أن خلع هشام من السلطة وفقد معه العز الأموى ضاع كل عمل لابن شهيد في الوزارة، وقد بلغ من العمر آنذاك عتيا.^٣

فبين المدح والاعتذار والشكوى وعلى أنقاض تلك الفتنة وعلى أطلال النعيم الزائل، وقف ابن شهيد هناك يرثى قرطبة، ويبكى على مجد الوطن الضائع وجمال الطبيعة الخلابة، وقد كانت نكبة قرطبة بمثابة فاجعة كبرى حلت بأبي عامر بن شهيد لأنها هوت بالمجد العامري، وقضت على أيام السعد والبهجة، والرخاء في ظل العامرين، وكانت نشأته لاتقويه على الكفاح والمغامرة، ويبكى قصورها ومنتزهاتها

١ المغرب ج١، ص ١٢٣

٢ المغرب ج ١، ص ١٢٣

٣ المغرب في حلى العرب، ج٢، ص ٨٥

فكانت له في رثاء قرطبة قصائد مفعمة بالألم، والشعور باليأس والأسى البالغ وهى أقوى قصائده التى نظمها في الرثاء.

ومن بين تضاعيف تلك الحياة المتذبذبة بين نعيم الاستقرار وشقا الحروب، والمدح الصادق والتصنع والشعور الثائر والنفس الساكنة، كان لابن شهيد أصدقاء مخلصون، وأخلائه من أبناء عصره ويشكو إليهم ويراسلهم ويرثيهم ويتذكرهم في أقصى حالات الدهول خاصة عند الإحساس بالموت، والمرض ومنهم اللماي والوزير الجزيرى.

أخيرا: إذا تدبرنا هذه الصلوات التى كانت لأبي عامر مع الحكام والأمراء تبين لنا منها، أن ابن شهيد لم ينعزل عن المجتمع أثناء الفتنة ولم يتوقف عن نتاجه الأدبي شعرا أو نثرا وإنما ظل وثيق الصلة بالناس مشاركا في أحوال المجتمع كما أن صلته بالحكام، كانت صلة التأييد والموافقة في غالب الأحيان.

مرضه ووفاته:

واستمر أبو عامر ينظم الشعر ويكتب الرسائل في شتى الفنون والأغراض والمختلف المناسبات حتى عرض له مرض قبل سنين من وفاته لا نعلم تماما متى بدأت هذه العلة غير أن من المؤكد أنها دامت سنين فقد ذكر الفتح بن خاقان عند كلامه عليه أنه "لزمت علة دامت به سنين ولم تفارقه"^١

أما ابن بسام يقول ولما طال بأبي عامر ألمه وتزايد سقمه وغلب عله الفالج الذى عرض له فى ذى القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة، لم يعدمه حركة ولا تقلبا، وكان يمشى إلى حاجته على عصا مرة واعتمادا على إنسان مرة إلى قبل وفاته بعشرين يوما فإنه صار حجرا لا يبرح ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع مع شدة ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى همّ بقتل نفسه^٢ وفى ذلك يقول:

١ مطمح الأنفس، ص ٢٤

٢ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ١٨١، ١٨٢

أنوح على نفسي وأندب نبلها إذا أنا في الضراء أزمعت قتلها
 رضيت قضاء الله في كل حالة عبي وأحكاماً تيقنت عدلها
 عليكم سلام من فتى عضه الردى ولم ينس عينا أثبتت فيه نبلها
 يبين و كف الموت تخلع نفسه وداخلها حب يهون ثكلها^١
 وضاق ابن شهيد بالحياة ذرعاً فبدأ يخفف عن نفسه بمراسلة أصدقائه وشكوى الحال
 إليهم يقول الحميدى^٢ ”أخبرني أبو محمد علي بن أحمد^٣ قال كتب إلى أبو عامر بن
 شهيد في علته بهذه الأبيات:

و لما رأيت العيش ولى برأسه وأيقنت أن الموت لا شك لاحقني
 تمنيت أني ساكن في غيابة بأعلى مهب الريح في رأس شاهق
 أذرسقيط الحب في فضل عيشة وحيداً واحسي الماء ثني المفالق
 خليلي من ذاق المنية مرة فقد ذقتها خمسين قولة صادق
 كأني وقد حان ارتحالي لم أفرز قديماً من الدنيا بلمحة بارق
 فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي يداً في ملماقي و عند مضايقي
 عليك سلام الله إني مفارق وحسبك زاداً من حبيب مفارق^٤
 فإن أبا عامر يؤبن نفسه ويدون تاريخ وفاته بعد أن يوصى بدفنه جنب صديقه أبي
 الوليد الزجالي ويطلب أن يكتب على قبره في لوح رخام هذا النثر والنظم.
 بسم الله الرحمن الرحيم (قل هو نبي أعظم أتم عنه معرضون، (ص ٦٧ ٦٨) هذا قبر
 أحمد بن عبد الملك ابن شهيد المذنب مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
 شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله وأن الله يبعث من في القبور، ثم يكتب تحت النثر
 هذا النظم.

١ نفس المصدر ق ١ ج ١، ص ٢٨١

٢ جذوة المقتبس، ص ١٣٣

٣ هو أبو محمد ابن حزم

٤ نفس المصدر ق ١ ج ١، ص ٢٨١

يا صاحبي قم فقد أطلنا	أنعن طول المدى هجود
فقال لي: لن نقوم منها	ما دام من فوقنا الصعيد
تذكر كم ليلة لمونا	في ظلها والزمان عيد
وكم سرور همى علينا	سحابة ثرة تجود
كل كأن لم يكن تقضى	وشؤمه حاضر عتيد
حصله كاتب حفيظ	وضمه صادق شهيد
يا ويلنا إن تنكبتنا	رحمة من بطشه شديد
يا رب عفواً فأنت مولى	قصر في أمرك العبيد ^١

وقيل:

كان أبو عامر كثيراً ما كان يخشى صعوبة الموت، وشدة السوق، فيسر الله عليه، وما زال يتكلم ويرغب إلى الله أن يرفق به، ويكثر من ذكره، وقد أيقن بفراق الدنيا، إلى أن ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة (٤٢٦هـ). لم يشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والعويل، وصلى على ابن شهيد، رئيس قرطبة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور الكلبى، ودفن يوم السبت ثانى يوم وفاته فى مقبرة أم سلمة^٢ وأنشد على قبره من المراثي جملة موفورة لطوائف كثيرة، منها قول أبي الأصبغ القرشي من قصيدة طويلة يقول فيها:

شهدنا غريات المكارم و العلا	تبكي على قبر الشهيدي أحدا
وما زال أهل الدين والفضل والتقى	عكوفاً به حتى حسبناه مسجدا
أريد بسقيا الغيث إحياء حفرة	كدرنا بها نجم العلا المتوقدا
ولم أر مثلي بات مستسقي الحيا	لماء حياء كان يشفي من الصدى

١ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢٨٢

٢ وفيات الأعيان، ص ٦٦

فأي جمال صار في قبضة الثرى وأي بهاء قد طوته يد الردى
 وأي قناة في طلى الأرض غيبت وأي حسام في حشا القبر أغمدا
 بنفسي الذي أودى وأنشأ للندى حماماً على دوح العلاء مغردا
 أبا عامر، بعداً لسهم مصيبة رماك به ريب المنون فأقصدا
 لقد فت في نشر الفضائل يافعاً وبرزت في جمع المكارم أمردا
 لشقت عليك المكرمات جيوبها وأظهر فيك المجد خدّاً مخدداً

وآثاره الأدبية

ومن المعروف لدينا أن ابن شهيد أصحاب الملكات المزدوجة، فهو شاعر وكاتب معا ولذلك لا بدّ للباحث أن يتناول هذين النوعين من آثاره، وهذا ما سنحاول العمل على دراسته في ضوء ما لدينا من النوعين مجموعا أو مفردا مطبوعا أو مخطوطا.

النثر: لقد استطاع ابن شهيد الاندلسي أن يسجّل لنفسه حضورا متميزا في صفوف رواد النثر الفني في الأدب العربي، فرسائله التي حوتها دفتي "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام تشير إلى ما تمتع به شخصية هذا الرجل من أهمية أدبية وفنية تعبيرية، وما لها من قدرة إبداعية ثرية.

رسائل نثرية لأبي عامر:

الأول: فهي رسالة التوابع والزوابع هي رسالة نثرية كتبها أبو عامر مصورا رحلة خيالة في عالم الجن يلتقي فيها بتوابع الشعراء، وقد أورد فصولا منها ابن بسام تحت عنوان

فصول من رسالة التوابع والزوابع، هذه الرسالة لم تصل إلينا كاملة ولا مستقلة عن آثار أبي عامر الأخرى وإنما وردت في الذخيرة على النحو الذي ذكرناه، وبقيت هكذا حتى قام الأستاذ بطرس البستاني بطبع كتاب، سمّاه رسالة التوابع والزوابع سنة

١٩٥١م وهو أول محاولة تتم بخصوص آثار أبي عامر لهذا ما كان من الضروري ذكر أهم الملاحظات التي نراها فيها.

شكل الكتاب: طبع الكتاب في بيروت مطبعة المنهل سنة ١٩٥١م ويقطع في مائتين وخمس عشرة صفحة من القطع الصغير.

عنوان الكتاب: رسالة التوابع والزوابع، "صححها وحقق ما فيها وشرحها وّبّوها وصدرها بدراسة تاريخية أدبية بطرس البستاني" ثم تأتي بعد ذلك أقسام الكتاب، ويليهما الفهرست ثم المراجع وقد ذيل المراجع العربية بأربع كتب أجنبية. ولما كان الكتاب مقسما إلى قسمين رئيسين أوكتابين كما اصططح الأستاذ البستاني نفسه عليه، كان لابدّ من إلقاء نظرة على كل كتاب منهما. ففي الصفحة الخامسة نجد: الكتاب الأول وعنوانه، ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه رسالة التوابع والزوابع وهذا الكتاب كما هو ملاحظ مخصص للكلام عن ابن شهيد ونسبه ونشأته وحياته وملامح أدبه وميزات شعره ونثره، كل ذلك بإيجاز مع ذكر بعض الأمثلة الضرورية من الشعر والنثر بما يناسب المقام، وهذا هو القسم الأول من الكتاب الأول^١

أما القسم الثاني: من الكتاب الأول فقد أفرده للتعريف برسالة التوابع والزوابع من حيث،

(أ) نسختها

(ب) تاريخها والآراء التي وردت فيه ومناقشتها وتنفيذ الحجج التي أوردها بعض النقاد والكتاب المحدثون.

(ج) هدفها

(د) أقسامها

(هـ) علاقتها برسالة الغفران

رسائل أخرى لأبي عامر:

ولأبي عامر آثار نثرية أخرى كما أن له آثاراً شعرية، ولعل آثاره النثرية أغرز مادة من آثاره الشعرية، إذ أن ما دوّن من آثاره الشعرية ووصل إلينا كثير،

(١) رسالة أبي عامر المطولة إلى المؤمن عبد العزيز والتي بلغت العديد من صفحات الذخيرة أوردتها ابن بسام تحت عنوان ”فصول من رقعة خاطب بها المؤمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر“

(٢) رسالة في وصف البرد والنار والخطب^١ قال فيها ”أطال الله بقاء مولاى الذى اهتدى بمصباحه، وأعشوا إلى حزره وأوضحاه“

(٣) رسالة في وصف البرد والحمام^٢ وقال ”لما تلقى اليوم البرد شاكر ك نوع، ومشى إليه بروع، وكان بالأمس بدا أضحف“.

(٤) رسالة في وصف البعوضة^٣ ”قال فيها“ مالكة لا حس لها سواها، تحقرها عين من رآها، تمشى إلى الملك بندها“.

(٥) رسالة في وصف ماء^٤ ”كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر ليّاح، له من إنائه، انصباب الكوكب الذى من سمائه“.

(٦) رسالة في وصف جارية قال فيها: ”أخت نعمة، ورببة نعمة كان شعرها على غرقها الغراء“^٥

(٧) رسالة أخرى في الذخيرة تحت عنوان ”وله من جواب على خطاب“^٦ وإن لم يكن واضحاً من المخاطب بها ولعله المؤمن نفسه.

(٨) رسالة خاطب بها المؤلف محذراً إياه ابن الفرضى عدوّه وما كان منه أيام المستعين والمستظهر وكيف وشى به إليهما.

١ يتممة الدهر، ج ٢، ص ٦٦

٢ نفس المصدر، ص ٤٥

٣ نفس المصدر، ص ٤٦

٤ نفس المصدر، ص ٤٧

٥ نفس المصدر، ص ٤٩

٦ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ١٧١

(٩) رسالة أخرى موجهة إلى مجاهد أمير دانية يستعطفه ويذكره بها بينهما من سابق الودّ والمحبة ويطلب منه عدم نسيانه وقد وضعها ابن بسام تحت عنوان "وله من رقعة خاطب بها مجاهدا أمير دانية وقته" وهذه الرسائل المتنوعة في موضوعاتها والتي طرق فيها ابن شهيد ماعنّ له حسب الظروف والحاجات.

الشعر:

تجلى شخصية ابن شهيد الأندلسي في مجمل معانيه الشعرية والتي ترجع في مدلولاتها الحسية والعقلية إلى عدة مصادر، أساسية ركيزة ثابتة الأثر في تشكيل نتاجه الأدبي والشعري منه خاصة إذا امتزجت بفكره ووجدانه وطبعت تصوراتها وموافقة تجاه محيطه، وأسهمت في تحريك شعوره تجاه ما يدور من حوله وفن ما تميله تلك الموافق الانطباعية والتأثيرية التي تكونت في بواطنه النفسية والفكرية. ولكن لم يرد في أي مصدر من المصادر لديوان يجمع شعر أبي عامر وأغلب الظن أنه لم يجمع في زمانه في الأقل، وإلا فلا بد أن يكون إشارة إليه في مصدر واحد. أما بعد موته فلا توجد كذلك إشارة لوجوده، وكذا بقيت أشعار أبي عامر موزعة في المصادر تبدأ من الذخيرة التي تحوى أكثر القصائد والأشعار تنتهى في المطمح، واليتيمة، والجذوة وغيرها، حتى قام الأستاذ شارل بيلات بجمع كل ما ورد لأبي عامر أشعار في كتاب سماه "ديوان ابن شهيد الأندلسي" وبذلك كان جهده هذا، أول محاولة جدية إيجابية لإلقاء الضوء على شخصية ابن شهيد الأدبية والثقافية والمساعدة على دراسة مفصلة.

طبعة الديوان:

طبع الديوان في دارالمكشوف في بيروت في كانون الأول ١٩٦٣ء بطبع أنيق وخط واضح مع قلة أخطاء، ويقع في مائة واثنين وتسعين صفحة من الحجم المتوسط.

(١) الكتاب مصدر بمقدمة بعنوان ابن شهيد الشاعر للأستاذ بطرس البستاني.

(٢) ثم يتعرض لحياة ابن شهيد وبعض ملامح شعره المنبثق عن حياته ونشأته ونظمه للشعر وهو صغير السن.

(٣) رتب الأستاذ شارل الأشعار حسب قوافيها بترتيب الحروف الهجائية.

(٤) وقع تحت كل قصيدة أو مجموعة أبيات المصادر التي أخذها عنها مع ذكر الاختلاف في روايات بعض الكلمات إن وجد.

(٥) شرح بعض الكلمات الصعبة.

(٦) التحقيق في الأسماء

(٧) الخاتمة

ومن آثاره الأدبية الأخرى، وهو أنه قد جمع الأستاذ الأدب الأندلسي في جامعة اللبنانية، جمع كل ما ورد لأبي عامر أشعار في كتاب سَمَاهُ "ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله".

طبعة الديوان: طبع هذا الديوان من المكتبة العصرية للطباعة والنشر صيدا بيروت في سنة ١٤٢٢هـ الموافق ٢٠٠٢م بطبع أنيق وخط واضح بغير أخطاء، ويقع في مائتين وخمسة وخمسين صفحة من الحجم المتوسط وقد قسم الديوان إلى قسمين:

أولاً: قد زين الأستاذ هذا الديوان بالإهداء، الإهداء إلى فلذات كبدي سونيا فادي، وماريا، وأضاف فيه يعني في صفحة ثلث وعشرين قد خرط خريطة جميلة لأسرة ابن شهيد الأندلسي ثم صدر الشاعر هذا الديوان بدارسة مفصلة عن أسرة ابن شهيد المناصب الحساسة التي شغلها أفرادها في ظل الدولة الأموية بالأندلس، منذالفتح حتى عصر الشاعر كما تحدث عن مولد الشاعر ونشأته وصلته بحكام عصره وعن مكانته الأدبية والعوامل المؤثرة في أدبه، ثم طرق المؤلف خصائصه الفنية لشعره ونثره، وضمن حواشي الكتاب شرحاً وافياً لكل ما غمض فيه، وترجم لشخصيات الأدبية والسياسية والدينية التي اتصل بها ابن شهيد أو تطرق لها في شعره.

وفي القسم الثاني: شعره: رتب الأستاذ الدكتور محي الدين ديب الأشعار بحسب قوافيها بترتيب الحروف الهجائية، وقد وضع تحت كل قصيدة أو مجموعة أبيات المصادر التي أخذها مع ذكر الاختلاف في بعض روايات المختلفة، وقد زين الديوان بتخريج الأبيات وبتشريح الكلمات الصعبة التي وجدت فيها.

وبعد ذلك: قد جمع الأستاذ الرسائل لابن شهيد التي منتشرة في مصادر الأندلس، وشرح أيضا فيها الكلمات الصعبة شرحا وافيا، وأخيرا قد ذكر فيه الفهارس العامة،

أولا: فهرس الآيات القرآنية

ثانيا: فهرس الأقوال والأمثال

ثالثا: فهرس قصائد ومقطوعات الديوان

رابعا: فهرس قوافي الأبيات الواردة في مقدمة الناشر ورسائل ابن شهيد.

خامسا: فهرس الأعلام

سادسا: فهرس الأهم والقبائل والجماعات والطوائف والفرق.

سابعا: فهرس الأمكنة والبلدان والبقاع

ثامنا: ثبت بأسماء المصادر والمراجع

هذا التفصيل الموجز لآثار أبي عامر ولكن يبدو هناك آثارا أخرى لأبي عامر غير ما ذكرنا ولكنها لم تقع بأيدينا وإنما ضاعت ومنها "كشف الدك وإيضاح الشك، وكتاب حانوت عطار، ولاندرى هل رآها بعض الذين ذكروها أم أنهم سمعوا بها فقط، غير أنه من المعلوم حتى الآن عدم وجود أحدهم مخطوطا أو مطبوعا وهي تدلّ على كل حال وتدلّ على كثرة آثار أبي عامر وعليه الواسع في فني المنظوم والمنثور، وقد أشار إلى شيء من ذلك صاحب معجم الأدباء ووفيات الأعيان بقولهما "وله التصانيف الغريبة البديعة. منها كشف الدك وإيضاح الشك ومنها التوابع والزوابع ومنها حانوت عطار"

مكانة ابن شهيد الأدبية بين أدباء القديم والجديد

رغم حياة ابن شهيد اللاهية، التي غلبت عليها البطالة والفراغ، إلا أنه شهد له بالنباهة والحصافة والمقدرة الأدبية، غير واحد من الأدباء والنقاد ومنهم القدماء والمحدثين، وسوف نعرض لبعض الأقوال التي قيلت في هذا الأديب الفقيـد.

يقول عنه ابن حيان: "كان أبو عامر يبلغ المعنى، ولا يطيل سفر الكلام، وإذا تأملته ولسنّه، وكيف يجرّ في البلاغة رسنه، قلت عبد الحميد في أوانه، والجاحظ في زمانه، و العجب منه أنه كان يدعوا قريحته إلى ماشاء من نثره ونظمه في بديهته ورويّته، وكان في تنميق الهزل والنادرة الحارّة أقدر منه على سائر ذلك، وشعره حسن عند أهل النقد، تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصّر عن غايتهم"^١.

نلاحظ أن النقاد يصرونّ على مقارنة ابن شهيد بمشاهير الكتاب في المشرق العربي فبعد أن قرنه ابن حيان بالجاحظ وسهل بن هارون نجد ابن حيان يشبّهه بعدد الحميد الكاتب والجاحظ أيضا، وليس ذلك إلا دليلا واضحا على مكانة الرجل الأدبية البارزة في عصره، وعلى علوّ شأنه في البلاغة، إذ بفضل بلاغته كان يصل إلى المعنى المراد والغرض المقصود من الكلام دون إطالة أو إطناب.

ولا يزال ابن حيان يشيد بأبي عامر وبلاغته إذ كان يدعوا قريحته إلى ما يشاء نثرا ونظما دون عناء، فقد كانت المعاني تنثال عليه، والألفاظ المناسبة تأتيه، سواء على البديهة أو في الرويّة التي تحتاج منه إلى أعمال للفكر، وكان في تنميق الهزل والنوادر أبرز وأقدر، وأما في شعره فإنه يُعدّ من شعراء الطبع وشعره مستحسن عند النقاد.

^١ الذخيرة ج ١ ص ١٦٢

وقال عنه ابن دحية: "وأبو عامر هذا أرسخ أهل الأندلس قاطبة بالأدب ينسل إليه من كل حدب، ولم ير لنفسه في البلاغة أحد يُجاره، ويُساجله في جميع العلوم ويُباريه".^١

ويقول الفتح بن خاقان: "عالم بأقسام البلاغة ومعانيها، حائز قصب السبق فيها، لا يشبهه أحد من أهل زمانه، ولا ينسق ما نسق من درّالبيان وجمانه، توغل في شعاب البلاغة وطرقها، وأخذ على متعاطيها ما بين مغربها ومشرقها، لا يقاومه عمر بن بحر، ولا تراه يغرف إلا من بحر، مع انطباع مشى في طريقه بأمد باع".^٢

وقال أبو محمد بن حزم الأندلسي:

"ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا، وهو حيّ لم يبلغ سنّ الاكتهال وله من التصرّف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لِسَانِي عمرو وسهل".^٣

وقال عنه ابن بسام: "نادرة الفلك الدوّار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جدّ فزئير الأسد الضرغام، نظم كما اتسق الدّر على النحور، ونثر كما خلط المسك بالكافور".^٤

قد أجمع على هؤلاء الأدباء جميعاً أن ابن شهيد كان أدبياً بليغاً بين قطبي الأدب الشعر والنثر.

أما النقاد المحدثون :-

فنستقصر على ذكر آراء بعضهم فهم لم يجهلوا عن تلك المكانة التي يستحقها فقد أشادوا بأدبه ونقده.

^١ المطرب من أشعار العرب، ص، ١٥٨

^٢ مطمح الأنفس ومسرح التأنس، ص، ١٨٩

^٣ عمرو وسهل: يقصد الجاحظ عمرو بن بحر، والكاتب سهل بن هارون، الذخيرة ج ١ ص ١٦١

^٤ نفس المصدر، ص، ١٦١

يقول عنه زكي مبارك : ”لاحظنا أن رسائله في صناعة النقد والبيان تدل على أنه كان من أصفى الناس ديباجة، وأسدهم رؤية، وأصدقهم فراسة، إذا مضى يشرح مزلق الأفكار“^١.

فزكى مبارك يلاحظ أن رسائله الأدبية كساها بأصفى الناس خلعة وتدييح وصفاء الصنعة والديباجة هذا، قد يعنى عدم الإفراط فيها وعدم التفريط، بالاضافة إلى إشاداته بصنيعة فن مجال النقد وفقد كانت له آراء نقدية بارزة.

أما الدكتور هيكمل قال عنه : ”أعظم من أنبت الأندلس من شعراء ذلك الوقت“^٢.

وقال الدكتور شوقي ضيف: ”ومهما يكن فقد كان ابن شهيد أكبر أديب في عصره“^٣.

وقال عنه الأستاذ احمد ضيف: ”كان أبوعامر من أعلم الناس متفتنا في علوم الأدب، بارعا في صناعة النظم والنثر، فكانت له منزلة رفيعة وابتكارات بديعة وأساليب راقية في فني المنظوم والمنثور“^٤
وقاله أيضا:

”إن ابن شهيد من أفذاذ الأدباء المفكرين الذين أنجبتهم حركة العقول والإدراك في الاندلس“.

هكذا يقول إحسان عباس عنه: ”ليس في الاندلسيين الذي درسنا شعرهم حتى عصر ابن شهيد من كان أكثر منه توقدا في القريحة، وأنفذ بصرا في نقد الشعر“^٥.

^١ النثر الفني في القرن الرابع، ص، ٣٨٢ ٣٨٧

^٢ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص، ٣٩٤

^٣ الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص، ٣٢٤

^٤ بلاغة العرب في الاندلس، ص، ٤٣، ٤٥

^٥ تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص، ٢٩٣

فنلاحظ أن احسان عباس يجعله على رأس شعراء الأندلس إجادة، على الأقل حتى عصر ابن شهيد لأن أكثرهم توقدوا في القريحة الشعرية ، كما أنه تميّز على بقية نقاد الأندلس بلمحاته النقدية النافذة في نقد الشعر،
 أخيرا :

نستطيع القول أن ابن شهيد أديب مقتدر، وحيز مكانة هامة بين الكتاب والأدباء العرب القدماء، واستطاع أدبه أن يسدّ فراغا في أدبنا العربي، لذلك استحق كل هذا لثناء والتبجيل من الأدباء والنقاد القدماء منهم والمحدثين فهو كما وصفه الناقد الشهير الدكتور محمد رضوان الداية.

”أديب، كاتب، شاعر، ناقد، متعدد المواهب، على اعتبار آثاره الأدبية الباقية وإذا كان أدب هذا الرجل كثير متنوع بين شعرونثر، فيماذا تميّز نثره على وجه الخصوص“^١.

^١ تاريخ النقد الأدبي، ص، ٢٩٣، د\الداية

الباب الثالث

إبن شهيد شاعراً

- تطور الشعر العربي في الاندلس
- مفردات الشعر الأندلسي
- أغراض الشعر الأندلسي التي مارس فيها إبن شهيد
- شعر أبي عامر بين التقليد والتجديد
- مميزات شعره الفنية
- انعكاسات الصنائع اللفظية والمعنوية

تطور الشعر العربي في الأندلس

ومن المعلوم قد انتشر الإسلام بسرعة فائقة في الأندلس، هكذا انتشرت اللغة العربية على نطاق أوسع بين سكان هذه البلاد، وقد كان العرب الوافدين على الأندلس في شكل موجات كبيرة، وكان أكثر هؤلاء الوافدين إلى الأندلس من أهل الجرب والحكم مثل طارق بن زياد وموسى بن نصير وغير ذلك، وكان هذا لقاءهم الأولى بسكان هذه البلاد، وبالرغم من أن هؤلاء السكان الأصليين كانوا يُقبلون على الإسلام ويحاولون تعلّم العربية، وأن الوافدين كانوا يتزوجون منهم ويعيشون في البلاد معهم، فإذا أضفنا إلى ذلك ما تعكسه المنازعات والحروب التي كانت أهم سمات السياسية في هذه الفترة الولاة تصورنا المجتمع في تلك السنوات من تاريخ الأندلس مجتمعاً مقسماً مفككاً، فيه عرب وفيه وبربر وفيه إسبان مسلمون وغير مسلمين فصار هذا المجتمع، مجتمعاً لا استقرار فيه ولا هدوء.

ومع ذلك عرفت الأندلس في هذه الفترة نوعاً من الثقافة كان بمثابة خيوط الفجر الأولى التي تؤذن بصبح مشرق، وفي هذه الأثناء قد دخل الأندلس نفر من الصحابة والتابعين^١ الذين كانوا على حظ من المعرفة الدينية، وكانوا يصحبون الجند أو يفدون بعد الفتح، للإفتاء فيما يعنّ للمسلمين من أمور الدين، كتقسيم المغام وتحديد الضرائب وتخطيط المساجد وتفقيه الناس^٢ وأغلب الظن أن هؤلاء قد أسسوا أوئل المدارس الأندلسية، حيث أنشئت أوائل المساجد في إشبيلية وقرطبة وغيرهما من

١ من الصحابة المنبذ ومن التابعين : موسى بن نصير ، وعلي بن رباح ، وابن يزيد المعافري ، وعياض بن عقبه

الفهري ، وعبد الجبار بن أبي سلمة ، وغيرهم : أنظر ، المراكشي : المعجب : ص ١٤-١٥

٢ رياض النفوس لأبي بكر المالكي ، ج ١ ص ٦٤

البلاذ، وأن عنايتهم كانت قبل كل شئ بتدريس كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وبلغة القرآن والحديث.^١

وليس من الشك أن في الحياة الثقافية والأدبية متواضعة أشد التواضع، وأنها لم تكن تتجاوز حلقات في بعض المساجد التي كانت قليلة حينذاك، كما كان الأساتذة قليلين أيضاً بطبيعة الحال، وهذا البذور الأولى للأدب العربي عرفت تلك الفترة كذلك ضئيلاً من الأدب، وكما وفدت الثقافة المتواضعة مع نفر من العلماء، كانوا من خدموا الولاية الإسلامية حينذاك، وفداً الأدب في تلك السنين، وكما كان هذا القدر المتواضع من الثقافة بمثابة الخيوط الأولى لفجر الثقافة الأندلسية، كان هذا الحظ الضئيل من الأدب بمثابة بذور الأدب الأندلسي الذي سيزدهر بعد حين، وفيما يلي كلمة أولاً عن الشعر.

إن الشعر العربي في الأندلس يعتبر امتداداً للشعر العربي في المشرق بألوانه وأشكاله وأغراضه، وإن الأندلسيين طيلة حكمهم واستقرارهم في هذا القطر العربي كانوا على اتصال دائم مع المشرق العربي بواسطة العلماء والحجاج والرحالين والعمال، وكانت أعمال المشاركة الأدبية والفكرية تصل إليهم بالاستمرار، يقول مصطفى صادق الرافعي .

”وكانت أمّهات كتب الأدب الأندلسي تؤلف بالعراق تروي في الأندلس بالسند إلى مؤلفيها على تفاوت بين الأسانيد قوة وضعفاً “ومن ذلك قول الحكم المستنصر: لم يصح كتاب الكامل عندنا من رواية إلا من أبي قلاعة“^٢

وإن شعراء الأندلس كانوا مُعجبين بالمشرق وأهله إلى درجة جعلتهم يقلّدون ويُنسجون على منوالهم للدرجة أنهم أطلقوا على بعض مُدّهم أسماء مُدن كانوا

١ تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطيه، ص ٤٠-٤١

٢ تاريخ الادب العربي، ص ٢٥٥ ج ٣ لمصطفى صادق* هو محمد بن أبي قلاعة سمع من أبي الحسن على بن

سليمان الأخفش عن المبرد كتابه الكامل المشهور

يسكنونها في الشام، فسمّوا غرناطة دمشق، وإشبيلية حمص، وشريش فلسطين، وجيان قنّسرين، هكذا أن الأندلسيين أنفسهم كانوا يلقّبون نابغيهم بأسماء المشارقة، فيقولون في الرصافي: إنه ابن رومي الأندلس، ومروان بن عبدالرحمن ابن المعتز الأندلس، وابن خفاجه صنوبري الأندلس، وابن زيدون بحتري الأندلس.^١

ويقول بطرس البستاني معلّلاً هذه الظاهرة وهو أنه:

”لم يترك أهل الأندلس باباً من أبواب الشعر المعروفه إلا قرعوه ونوّعوا أغراضه وفنونه، فمنه ما ترسموه به أهل المشرق، فواطأوهم في معانيهم، وشاركوهم في أساليبهم، وعارضوهم في مشهورات قصائدهم، ولكنهم لم يبلغوا شأوهم ولا شقوا غبارهم، ومنه ما طبعوه بطابعهم الخاص، وبذوّا به المشارقة، كوصف الطبيعة وال عمران، ورثاء الممالك البائدة“^٢

فالأدب الأندلسي يُشبه تماماً الأدب المشرقي، إلا أن الأدب المشرقي يتميز بمثانة اللغة وقوتها، وذلك لقربه من البادية وبعده عن نسيان كلام القدماء، لتمكّن غزيرة التقليد في نفوسهم، ثم لما يتعلق بهذا القديم من و شائع دينيّة وقومية، فقد كان الشعر الجاهلي والإسلامي ديوان المفاخر القبليّة، والحجة التي لا تقرر في تفسير معاني القرآن ومعارفه الغريبة.

ولكن للأندلسيين هناك من الابتكار والإبداع في مجالات شتى فقد سبقوا غيرهم إلى أشكال شعرية جديدة مثل الموشحات والأزجال، وجعلوا يصطنعون الجديد في الغزل والمجون والخمر، وغير ذلك مما لا يتناول الملوك والأمراء بمدح أو رثاء، بل ربما تركوا القديم في مدائحهم ومراثيهم، فلم يحفلوا بأساليب الأعراب ومعانيهم وأوصافهم، لتبسّطهم في الحضارة، وبعده ما بينهم وبين البادية، كما قال البستاني:

١ نفس المصدر، ج ٣ ص ٢٥٤

٢ أدباء العرب ص ٤٠

”وأبدلوا من الأسلوب البدوي أسلوباً حضرياً صرفاً، ونفروا من الألفاظ الغريبة الوحشية إلى الألفاظ المأنوسة الرقيقة، ولولا الدين واللغة وبقية من دم العرب في عروقهم لأنكروا قديمهم أيما إنكار“^١

فإذاً يمكننا أن نقسم الأدب الأندلسي إلى عدة عصور أدبية تساعد في إعطاء رؤية عن حال الأدب في كل مرحلة تاريخية مرت بها الأندلس .

المرحلة الأولى :

مرحلة عصر الولاة

وتبدأ بالفتح ودخول الإسلام لهذه البلاد وبعد تعيين أول والي عليها من قبل بني أمية في المشرق، وبطبيعة الحال كان أدباء تلك الفترة من الوافدين من المشاركة، لذلك اتسم شعر تلك الفترة بأنه مشرقى حالص. بمعنى أن خصائصه هي خصائص الشعر المشرقي من حيث الموضوعات والأسلوب، فالموضوعات كانت تقليدية، من مديح ورثاء، وهجاء وحماسة، وفخر.

و الأسلوب كذلك يسير على الاتجاه المشرقي من لغة وصور وبناء القصيدة، وكان أبرز شعراء تلك الفترة الأولى.

أبو الأجر جعونة بن الصمة* : وهو من العرب الطائرين على الأندلس، وقد اشتهر بهجاء الصمّيل بن حاتم رئيس القيسية هناك، و اشتهر أيضاً بمدح الصمّيل بعد أن تمكّن منه فعفا عنه. ومع كل ذلك ليس بين أيدي الباحثين اليوم إلا قليلاً جداً من شعر هذا الشاعر، الذي اهتم به أبو نواس، ومن هذا القليل الذي حفظ من شعر جعونة قوله:

ولقد أراي من هواي بمزل عال ورأسي ذو غدائر أفرع
و العيش أغيد ساقط أفنانه والماء أطيبه لنا والمراتع^١

* لم أعر على تاريخ ولادته ووفاته إلا أن صاحب الجذوة ذكر أنه معاصراً لجرير والفرزدق ص ١٨٩

ومن شعراء تلك الفترة كذلك:

أبو الخطار حسام بن ضرار (ت ٧٤٨م) وقد كان من أشرف القحطانيين في الأندلس، وقد وفد على الأندلس والياً سنة ٧٤٢م أيام هشام بن الملك، وكان شاعراً فارساً، ولذا لقّب بعنّرة الأندلس^٢ وهو كسابقه، لم يعثر إلى اليوم إلا على قليل من شعره. فمن ذلك قوله في ثار أخذه لعزير من قومه:

فليت ابن جواس يجبر أنسي سعت به سعى امرئ غير عاقل
قتلت به تسعين تحسب أنهم جذوع تخيل صرّعت في المسابل
ولو كانت الموتى تباع اشتريته بكفى وما استثنيت منها أنامل^٣
ومن شعره أيضاً قوله في معاتبة للحكام المروانيين على نصرتهم للقيسين على اليمنيين:

أفأتم بنى مروان قيساً دماءنا وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهلو "مرج راهط"^٤ ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكم حرا الوغى بصدورنا وليست لكم خيل تُعدّ ولا رجل
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا بلاء وأنتم ما علمت لها فعل
فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة وزلت على المرقاة بالقدم النعل^٥

^١ المغرب في حلى الغرب، ج ١ ص ١٣٢

^٢ جذوة المقتبس، ص ٢٠٠ - ٢٠١

^٣ نفس المصدر، ٢٠٠

^٤ معركة دارت بالشام سنة ٦٥هـ في عهد مروان بن الحكم ومعه اليمنيون بقيادة حسان بن مالك الكلبي ضد

القيسين المشايخين لابن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس الفهري، وانتهت بهزيمة الضحاك وانتصار اليمنيين،

وكانت معركة حاسمة دعمت قيام الدولة المروانية في المشرق

^٥ جذوة المقتبس ص ٢٠٠

هذان شاعران تردّد شعرهما في الأندلس خلال فترة الولاة، وإنما كان هناك آخرون ولكن ضاعت أشعارهم، مع الكثير من تراث الأندلس، و خاصة في هذه الحقبة المتقدمة المضطربة من تاريخها.

وإذا جاز لنا أن نتصوّر خصائص الشعر في هذه الفترة، فنحن ملزمون بالحدّ الشديد لقلة ما بين أيدينا من نصوص، ونحن مضطرون إلى الاسترشاد بما لدينا من أخبار بعض الشعراء الذين عاشوا في تلك الفترة، لنعوض بتلك الأخبار قلة الشعر، ثم نحن مضطرون آخر الأمر إلى الاعتراف بأن هذا التصوير تقريبي ظني لا حقيقي قطعي وعلى هذا الأساس يمكن أن يقال: إن شعر هذه الفترة ليس له من الأندلسية إلا أن قيل في الأندلس، فقائلوه في الحقيقة مشاركةً وفدوا على الأندلس فيمن وفد مع الفتح و بعده، ثم هو بعد ذلك شعر مماثل لذلك الشعر المحافظ الذي كان شائعاً في المشرق في ذلك الحين، والذي كان من أعلامه جرير والفرزدق، فهو شعر يتناول في موضوعاته المدح والهجاء والفخر والحماة، كما رأينا في بعض النماذج القليلة التي حفظت لنا، وكما تدلّ أخبار في شعر حسام بن ضرار حينما قال مفتخراً:

فليت ابن جواس يجبرّاني سعت به سعى امرئ غير عاقل

قتلت به تسعين تحسب أنهم جذوع تخيل صرعت في المسابل

ولو كانت الموتى تباع اشتريته بكفى وما استثنيت منها أ نامل

فهذه الأبيات تميل إلى الطابع الشرقي كما نجد هذا الصنف يعني الفخر، في شعر شاعر المشرق وهو عنتره كما قال :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتدامرون كررت غير مذمّم

يدعون عنتره والرماح كأنها أشطان بئري لبان الأدهم

مازلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم

ثم هو شعر يجري على تقاليد المدرسة المحافظة ولا ينعكس عليه من الأندلس أي أثر، فهو يُعنى بجزالة اللفظ وفخامة العبارة، ولا يُرى معانيه كثير من تعمق الفكر، ولا

يلمح في صوره نصيب من تخليق الأخيلة، وإنما هو أميل إلى البداوة وأقرب إلى الخشونة.

المرحلة الثانية:

عصر بني أمية، وتأسس هذه الدولة عبدالرحمن الداخل (ت ٧٥٥هـ) حين أنه هرب من الشام عندما انتشرت دولة بني العباس، فلم يزل مستخفياً يتنقل في بلاد المغرب حتى دخل الأندلس، ودخل حين دخلها طريداً ووحيداً لا أهل له ولا مال، فلم يزل يصرف حيله ويسموهيمته، والقدر مع ذلك يوافقه، إلى أن احتوى ملكها وملك بعض بلاد العدو، وفي هذه الحقبة ظهر لنا أول جيل من الأندلسيين، العرب، وإذا ألقينا النظر إلى حالته الأدبية لوجدنا أنه كان متّصفاً بالطابع المشرقي لأن أسلوب شعراء تلك الحقبة كانت على تقاليد المشاركة، غير أن هناك ثلاثة سمات التي تميز ملامح الشعراء الأندلسي وتجعله ذا شخصية مستقلة، بحيث لانعدّ الأندلسيين مقلّدين للمشاركة تقليداً تخفي وراءه شخصيتهم، ولا تبدوا معه خصائص مميزة لشعرهم، فقد ظهر بعضها منذ فترة تأسيس الإمارة، وسيظهر البعض الآخر في فترات أخرى، والذي يعيننا الآن هو تلك السمات الأولى التي ظهرت في الفترة التي نسوق عنها الحديث.

وتلك السمات هي:

التجديد الموضوعي:

وبالإضافة الأصناف التقليدية من المدح والثناء طرق ههنا بعض الموضوعات الجديدة وتناول بعض التجارب التي لم تناول من قبل، وأوضح مثل على هذه الخاصة، تلك القطعة الشعرية التي عالج الشاعر أبو المخشّي* فيها تجربة فقدان البصر، وفيها يقول:

* المغرب، ج ٢، ص ١٢٣ اسمه عاصم بن زيد يعود أصله إلى نصارى الحيرة، وكان هجاء متردداً على

الأمرء، ولم أعر على تاريخه الميلاد والوفاة والمرجح أنه توفي في أخريات القرن الثاني الهجري.

خضعت أمّ بناي للعدا إد قضى الله بأمر فمضى
ورأت أعمى ضريراً إنما مشيه في الأرض لمس بالعصا
فبكت وجداً وقالت قوله وهي حرّى بلغت منى المدى
ففؤادى قرّح من قولها ما من الأدواء داء كا لعمى
وإذا نال العمى ذا بصر كان حياً مثل ميّت قد ثوى
وكان الناعم المسرور لم مسروراً إذا لاقى الردى
أبصرت مستبدلاً من طرفه قائداً يسعى به حيث سعى
بالعصا إن لم يقده قائد وسؤال الناس يمشى إن مشى
وإذا ركب دنوا كان لهم هوجلاً في المهمة الخرق الصوى^١
لم يزل في كل مخشى السرى يصطلى الحرب ويجتاب الدجى^٢
فهذا الموضوع جديد، لم يطرقه شاعر قبل أبي المخشي فيما نعلم^٣

فإذا تأملنا أبيات أبي المخشي، وجدنا يستعمل التعبير الموحى بطريقة فنية، فهو يتحدث عن محنته حين فقد بصره، ولكنه لا يعبر عن ذلك تعبيراً مباشراً أو مبالغاً، وإنما يعبر تعبيراً إيحائياً بسيطاً مؤثراً غاية التأثير، وذلك حيث ذكر زوجته وخضوعها للأعداء بسبب فقدان عائلها لنور عينيه، ولم يكتف الشاعر بذكر الزوجة، ولم يذكر اسمها كما يفعل الشعراء التقليديون غالباً، وإنما ذكر أنها أمّ بناته، وذلك ليشير إلى أنه

١ الهوجل: البطى الثقيل . والمهمة: المفازة. والخرق: القفر. والصوي: جمع صوة وهي ما غلظ وارتفع عن الأرض.

٢ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ٨٦، ٨٧

٣ ذكر بعض الشعراء المشاركة الأقدمين عما هم، ولكن ذلك لا يعتبر تناولاً للتجربة ولا طرقاً للموضوع قبل أبي المخشي، لأن ذكر العمى على نحو ما جاء عندهم، إنما هو ذكر أخباري عرضي مقتضب، لا شئ فيه من تصوير لمحنة أو وصف لممتحن، ومن هذا قول الشاعر الجاهلي، الأسود بن يعفر النهشلي في قصيدته الدالية:

ومن الحوادث لأباً لك أني ضربت على الأرض بالأسداد
لا أهدى فيها لموقع تلة بين العراق وبين أرض مراد

ذو بنات، وأن الزوجة والبنات جميعا قد خصعن للعدا وأصبحن في حال من الذل تستدر الدمع، ثم ذكر في آخر البيت أن ذلك كان منذ قضى الله بأمر فمضى هذا الأمر.

ثم راح الشاعر بعد ذلك يذكر ما كان لزوجته من بكاء ووجد، وما كان من قول أطلقته وهي حرة فبلغ الشاعر المدى، حتى قرح فؤاده، وذلك حين قالت "ما من الأدواء داء كالعمى".

وأخيرا يختم الشاعر وصف حال الضرير بتصوير عالمه النفسى المليء بالمخاوف، المتكاثف بالظلمات، فيجمع بذلك التصوير النفسى إلى التصوير الحسى، حيث يقول:

لم يزل في كل مخشى السرى يصطلى الحرب ويجتاب الدجى
وهذه الطريقة التي عالج بها أبو المخشي هذه التجربة، يعطينا السمة الثانية من سمات الشعر الأندلسي، وهي:

التجويد الفني:

والمراد بهذا، محاولة الأداء بطريقة أجود مما ألف السابقون، و للأندلسيين وسائل مختلفة إلى هذا التجويد. بعضها يتعلق بجالب المعنى و الصور، وبعضها يتصل باللفظ، وهذه السمة الفنية التي بدت في شعرهم منذ نشأته، وإن أخذت مظاهر مختلفة من عصر إلى عصر، ومن شاعر إلى آخر.

فمن النماذج المتصلة بجانب المعاني والصور، قول ابن عبد ربه الأديب الأندلسي في القلم:

بكفه ساحر البيان إذا	أداره في صحيفة سحرا
ينطق في عجمة بلفظته	فصم عنها ونسمع البصرا
نوادير يقرع القلوب بها	إن تستبناها وجدتما صورا
نظام درّ الكلام ضمّنه	سلكا لخط الكتاب مستطرا
إذا امتطى الخنصرين أذكر من	سحبان فيما أطال واختصرا

يخاطب الغائب البعيد بما يخاطب الشاهد الذي حضرا
تري المقادير تستدف^١ له وتنفذ الحادثات ما أمرا
شخت^٢ أضئيل لفعله خطر أعظم به في ملمة خطرا
يمجّ فكاه ريقة صغرت وخطبها في القلوب قد كبرا^٣

فإبن عبد ربه يعالج نفس الموضوع الذي عاجله أبو تمام حين قال في القلم:

لك القلم الأعلى الذي بشباته يصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعبه وأري الجني اشتارته أيد عواسل
له ريقة طلل ولكن وقعها بآثاره في الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف القنا و تقوّضت لنجواه تقويض الخيام الجحافل
إذا استغزر الذهن الجليّ وأقبلت أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدته الخنصران وسدّدت ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف ضنى، و سميّا خطبه وهو ناحل^٤

وليس يخفى سير الشاعر الأندلسي في نفس الاتجاه الذي سار به أبو تمام، من حيث الغوص علي المعنى الغريب، والجهد في تأليف الصور الطريفة، بل ليس يخفى تناول الشاعر الأندلسي لبعض معاني أبي تمام وصوره، ومحاولة تجويدها بالإضافة والتعديلات، مما وفق فيه حيناً وأخفق حيناً آخر.

فالقلم عند أبي تمام:

فصيح إذا استنطقته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجل

١ تسدف :تسهل وتستقيم

٢ شخت :دقيق ضامر من غير هزال

٣ العقد الفريد، ج ٢ ص ١٧٣، ١٧٤

٤ العقد الفريد، ج ٢ ص، ١٧٤

فهو ناطق في فصاحة إذا ركب أصابع الكاتب وبدأ يخط، وهو أخرس أعجم إن كان راجلا غير ممتط لأصابع الكاتب، أما القم عند ابن عبد ربه، فإنه :

ينطق في عجمة بلفظته فصم عنها ونسمع البصرا

أى أنه ناطق في عجمته لأناطق إذا ركب وأعجم إذا لم يركب كقلم أبي تمام ، ثم هو بعد ذلك ناطق عجيب ومتحدث من نوع غريب، لأنه يسمع بالبصر لا بالسمع . والقلم عند أبي تمام، يمتطى الأصابع الخمس، أما عند ابن عبد ربه، فيمتطى الخنصرين فقط. وهذا أقرب إلى الدقة، ثم هو عند ابن عبد ربه:

إذا امتطى الخنصرين أذكر من سحبان فيما أطال واختصرا

فهو فارس في ميدان البلاغة، حيث يذكر بفارس بلاغي هو سحبان. أما القلم عند أبي تمام:

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعاب الفكر وهي حوافل

أطاعته أطراف القنا وتقوّضت لنجواه تقويض الخيام الجحافل

فهو ليس فارسا في ميدان البلاغة، وإنما هو فارس في ميدان الطعن والضرب، فأطراف القنا تطيعه، والجيش تتهوى أمامه كما تتهوى الخيام أمام العاصفة. وإذا تأملنا هذا النص نفسه من جهة ما يثيره فينا أو ينقله إلينا، أدركنا السمة

الثالثة من سمات الشعر الأندلسي الخاصة وهي:

التركيز العاطفي:

ونعني بذلك أن العاطفة تتضح في العمل الشعري. حتى لتوشك أن تكون أبرز عناصره، ولنترك النص السابق برغم وضوح تلك السمة فيه، ولنأخذ لذلك مثلا،

أبيات عبدالرحمن الداخل في الحديث عن نخلة رآها بالرصافة، وفيها يقول:

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل

فقلت شبيهي في التغريب والنوي وطول التناي عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك في الأقصاء والمنتأى مثلى

سقتك غواذي المزن في المنتأى الذي يسح ويستمرى السماكين^١

فعبدا الرحمن في هذه الأبيات يتناول موضوعا تقليدا، وهو الوصف. ولكنه يلج على الجانب العاطفي فيبرزه بحيث يكاد يخفى كل ما سواه من جانب، فهو لم يصف النخلة في طولها ولا في لونها ولا ثمرها، ولم يتخيلها مardaً ذا شعر طويل، ولا شيخا ذا قوام هزيل، وإنما ترك ذلك كله ليصف النخلة بأوصاف عاطفة ويصورها بصورة نفسية. فيرسمها وقد "تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل" ويعقد بينها وبينه شبها في التغريب و التوى وطول التناى عن البنين والأهل، ويصفها بغربة المنشأ ومشاهدة الشاعر في المنأى البعيد والمهجر القصي، وأخيرا يدعو لها بالسقيا، فيطلب أن تجودها غواذي المزن "في المنتأى الذي يسح ويستمرى السماكين بالوبل".

وهكذا جعل من النخلة إنسانا حيا، يغترب وينأى عن الوطن ويبعد عن الأهل، وأوجد بينه وبينها مشاركة وجدانية وعلاقة نفسية جعلته يخاطبها في حنو ويناجيها في عطف وكل ذلك يجعل العنصر العاطفي أبرز عناصر المضمون الشعري لهذه الأبيات.

وهكذا لا يفوتني أن أذكروهم قد أحدث المسلمون فنا جديداً وهو

الموشحات:

حدّ الموشح: الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص، وهو يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات، ويقال له: التام، وفي الأقل من خمسة أقفال، وخمسة أبيات، ويقال له: الأقرع. فالتام ما ابتدئ فيه بالأقفال، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات.^٢

هكذا قال القاضي السعيد ابن سناء الملك رحمه الله تعالى:

"وهو ما يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له التام، وفي

الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع".^١

١ البيان المغرب، ج ٢، ص، ٦٠

٢ توشيح التوشيح، ص ١

فمثال التام موشح الأعمى، وهو "الذي سارت به الركبان".

ضاحك عن جمان سافر عن بدر

ضاق عنه الزمان وحواه صدري

فهذا الموشح ابتدئ بقفله.

ومثال الأقرع:

سطوة الحبيب أحلى من جنى النحل

وعلى الكتيب أن يخضع للذل

أنا في حروب مع الحدق النجل

ليس لي بأحور فتان

من رأى جفونه قد أفسدت دينه

مخترع الموشحات:

وقد كان مخترع الموشحات في الأندلس شاعرا من شعراء فترة الأمير عبد الله،
إسمه مقدّم بن معافى القبرى، ومحمد بن حمود الضرير، والمرجح أن مخترع هذا النوع
الشعرى هو مقدم بن معافى، وعلى ذلك أكثر الباحثين.^٢ على أن ابن بسام لم يجزم
حين ذكر هذا الأخير، وإنما قال :

"وأول من صنع هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريققتها فيما بلغنى محمد بن
محمود القبرى الضرير".

ولعل كون الشاعرين من قبره،^٣ جعل ابن بسام يضع إسمًا محل إسم، فكأنه
قد بلغه أن الشاعر القبرى فلانا قد اخترع الموشحات، فذكر إسم محمد بن محمود
ونسى إسم مقدّم.

١ نفس المصدر ، ص ٤

٢ المقتبس لابن حيان، ص ٤٦

٣ قبره: بلدة قرب قرطبة وكان منها مقدم بن معافى، ومحمد بن حمود، جذوة المقتبس ص ٣٥٥

تطور المؤشحات: وقد كانت فترة نشأة المؤشحات، كفترة نشأة أى فن، من حيث مشاهدتها لأول المحاولات التى يعفى عليها الزمن غالباً، ومن هنا، ولبعد الزمن بتلك الفترة، لم تبق لنا من هذه المؤشحات الأولى التى نظمها مقدم بن المعافري وأمثاله أية نماذج، ولكننا نستطيع أن نتصورها مؤشحات بسيطة التركيب قليلة التعقيد، تتخذ مجالها من الموضوعات الغنائية كالخمر والطبيعة والغزل. وتكتب كلها باللغة العربية. فيما سوى الخرجة، التى تكتب باللغة الأندلسية الشعبية. كما كانت ترضى بقلبها ولغتها و أغراضها حاجة الأندلسيين حينئذ.

وقد تطورت المؤشحات بعد فترة نشأتها تطورات عديدة. وكان من أهمها تطورات أصابها فى أيام ملوك الطوائف. ثم تطور آخر بعد ذلك بقليل فزرع عنها ما يسمّى بالزجل، حتى أصبح هذا الاتجاه الشعبى ممثلاً فى لونين:

لون المؤشحات. وقد صارت تكتب جميعاً باللغة الفصحى. ولون الأزجال، وقد صارت تكتب جميعاً باللغة العامية. قبل أن نختتم حديث المؤشحات ينبغى لنا أن نعرض النموذج.

فمن النماذج من اشتمال الخرجات كثيراً على ألفاظ من عامية الأندلس التى تمتاز فيها العربية "بالرومانشية" يقول ابوبكر بن بقى (ت ٥٤٥)

لحظات بابليّه	متعت قلبى عشقا
ولمى ثغر مفلّج	لائمى منه موقى
بابى لو رق قلبه	ساكن مشواه قلبى
قلما يأمن سربه	أو يرى روعة سربى

ثم يمضى الشاعر فى ذكر أغصان موشحة وأقفاها، حتى يختتمها بهذه الأَشطر:

ألبُ ديه إشت ديه	دىّ ذا العنصر حقا
بشترى مو المدّيج	ونشق الرمح شقا

فهذا الختام الذي ختمت به الموشحة مزيج من ألفاظ عربية وأخرى "رومانية" والفقرة الأولى معناها : "هذا اليوم يوم فجرى" أى مشرق. فالكلمة الأولى منها وهى كلمة "ألب" من الكلمة الإسبانية بمعنى فجر. والكلمة الثانية وهى "ديه" معناها: يوم. وهى فى الإسبانية والكلمة الثالثة وهى "إشت" معناها: هذا، وهى أيضا فى الإسبانية.

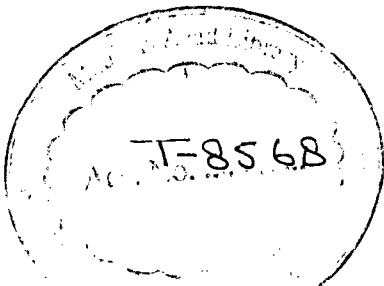
وقد عرفت الأندلس فى تلك الفترة عددا وفيرا ممن يقولون الشعر، وقد كان من هؤلاء عباس بن ناصح، وابن شمر، ابن قرمان، وحسانه التميمية، وابن عبد ربه، والعتى، وأبوبكر، وغير ذلك.^١

الزجل:

إن الحديث عن الزجل فى أثر الحديث عن التوشيح يبدو أمرا منطقيا وطبعيا، ذلك أن الموشحات حين احتضنت بعض العبارات العامة أو العجمية فى خرجتها وأحيانا فى كيانها ونباتها، وإنما تشكّل الحلقة الوسطى بين شعر الفصحى والشعر العامى الذى اصطلح على تسمية بالزجل، وإذا كانت هناك وجهات نظر تميل إلى الزجل والموشح قد ظهرا فى وقت واحد،^٢ فإن منطق الأمور قد لا يؤيد هذه الفكرة، خاصة، وأن النصوص الرجلية التى وصلت إلينا قد كتبت بعد أن كانت الموشحات قد احتلت مكانتها العتيقة وثبتت أقدامها ورسخت أركانها فى المجتمع الأدب الأندلسى. وإننا فى ترجيحنا لظهور الزجل متأخرا عن الموشحات منطلقا منها نتفق مع

رأى العالم الكبير عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) الذى يقول^٣

"ولما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وتصريح أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله



١ الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ١٥٢

٢ الزجل فى الأندلس، ص ٢

٣ مقدمه ابن خلدون، ج ٣، ص ٤٠٤

ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعرابا واستحدثوا فناً سموه بالزجل^١.

ولقد ظهر في الأندلس زجالون كثيرون، وإن لم يصل عددهم إلى نصف عدد الوشاحين، وكان على رأسهم ابوبكر محمد بن عيسى ابن عبد الملك بن قزمان الأصغر الذي بدأ شاعراً، فلما أحس أنه لن يصل إلى مرتبة كبار الشعراء وأنس في نفسه القدرة على الإبداع في الشعر العامي، اتجه إلى الزجل فأجاد فيه وأصبح يحتل في ميدانه مقاما شامخا لمقام المتنبي في ميدان الشعر، ومن الزجالين الكبار أيضاً أحمد بن الحاج المشهور، ويعتبره الأندلسيون خليفة لابن قزمان، وهكذا الزجالون الآخرون كثيرون لعل أشهرهم ابن عزله، وابن جحدر الإشبيلي، وأبو علي وغيرهم، نموذج من الزجل:^٢

كما قال ابن قزمان، في كبش العيد مما يصلح لأن يردّد في كل زمان، وفيه يقول:

حببي كبش العيد أنا حريفك أي معاملك
لس تصطحي تنفري؟ إرحم ضعيفك
إش حال جبينك إش حال صديقك
إش حال شواياتك إش حال قدي

من يراني ثالث العيد وأنا نقطع ونشوى
وترى كبش معلق والقطيّطس تحت يعوى
وأنا عربان في الروال أو غي منديل خبز ملوى
وأنا نصهل أن عرس ما عي أو عقيقه^٢

١ الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه لمصطفى شكعة، ص ٤٤٧، ٤٥١

٢ الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه لمصطفى شكعة، ص ٥٢

هكذا كان الزجل في أول نشأته مقصوراً على القول في الغزل وخلع العذراء واللهو والمجون، ثم أصبحت قصائده إن صح أن نسميها قصائد _تعالج الوصف والخمر والزهد والرتاء والهجاء وغير ذلك.

المرحلة الثالثة:

عصر ملوك الطوائف ومن المعلوم قد استمرت الخلافة الأموية في الأندلس تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية، إلى جاء الحاجب المنصور بن عامر وأبناءه من بعده، فانزعجوا منها السلطة الزمنية على عهد الخليفة هشام المؤيد، واستبدوا بالأمر على الخليفة الشرعي، فكان مثلهم في ذلك مثل البويهيين والسلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية في بغداد .

ولاشك أن هذا الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية ، كان مقدمة لنهاية الخلافة الأموية بالأندلس، لاسيما بعد أن طمع عبد الرحمن بن المنصور(ت ٣٩٢هـ) في الخلافة نفسها، وهو أمر خطير لم يطمع فيه أبوه المنصور ولا أخوه عبد الملك المظفر(ت ٤٦٠ هـ) من قبل.

ولقد هزّ هذا الحادث الدولة الأموية هزاً عنيفاً، وعز على المضرين أن ينتقل العرش إلى اليمنين^١ وأن تبتعد الخلافة عن قریش، فانبعثت العصبية العربية القديمة، وانتهز الأمويون والمضريون فرصة غياب عبد الرحمن العامري في الشمال وقاموا بحركة قوية، فخلعوا هشام عن العرش، وولعوا رجلاً من أحفاد الناصر وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه المهدي بالله.

ولما بلغت الأخبار عبد الرحمن بن المنصور، رجع من غزوة له في الشمال، وكان كلما اقترب من قرطبة انقص عنه جماعة من جيشه حتى صار في قلة من أصحابه، فاعترضه من خصومه معترض فقبض عليه وحز رأسه وحمله للمهدي وجماعته، وبموته

١ هي الإشارة إلى أن العامرين كانوا من أسرة عربية تنتهي إلى قبيلة معافر اليمنية ، وأنهم كانوا من أوائل الذين

دخلوا الأندلس صحبة طارق بن زياد.

تنتهى دولة بنى عامر سنة ٣٩٩ هـ ويلاحظ أن نهاية هذه الدولة يدل على تعلّق الناس بالخلافة وحرصهم على أن تكون من قریش.^١

والفترة الباقية من العصر الأموى بالأندلس ملئية بالفتن و الاضطرابات تصارعت فيها العناصر المختلفة فى الدولة كالبربر والصقالبة وأهل قرطبة، وخربت فيها مُدن عمرة كالزهراء والزاهرة، ويكفى للدالة على مدى انقسام الدولة واضطرابها، فى هذه الفترة الأخيرة أن عدد الخلفاء الأمويين الذين حكموا فيها كان يزيد على عدد الخلفاء الذين حكموا قبلهم منذ بداية الدولة الأموية فى الأندلس.

وفى سنة ٤٢٢ هـ سقطت الدولة الأموية بعد عزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتد بالله وإجلاء من تبقى من مروانية عن قرطبة، وفى ذلك يقول ابن الخطيب:

”ومشي البريد فى الأسواق والأباض بأن لا يبقى أحد بقرطبة من بنى أمية، ولا يكتفهم أحد“^٢

ثم أعلن الوزير أبو الحزم بن جمهور انتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها، وصيرورة الأمر شورى بأيدي الوزراء و صفوة الزعماء أو ما أسماه بالجماعة.

هكذا تحول الحكم فى قرطبة إلى نظام شبيه بالحكم الجمهورى عرف فى كتب التاريخ بحكم الجماعة^٣ ولقد نتج عن سقوط الدولة الأموية، إلى أن انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة متنازعة، وانتقل كل أمير بناحيته، وأعلن نفسه ملكا عليها فدخلت البلاد بذلك فى عصر جديد هو عصر ملوك الطوائف^٤

١ المجلد فى تاريخ الأندلس ، ص ١٥٤

٢ اعمال الإعلام لابن الخطيب ، ص ١٣٩ ، وما بعدها

٣ نفس المصدر، ص ١٣٩ ، ١٤٠

٤ نفح الطيب ، ج ١ ص ١٩٨

ثم تأثر الأدب بأحداث الفتنة تأثراً واضحاً، وكان التأثير شراً على بعض الأنواع الأدبية وخيراً على بعضها الآخر، ومن مظاهر الشر انتشار أدب التلهي والنفاق والتفاهة، وأدب الهروب بتعبير أشمل، ومن مظاهر الخير ظهور أدب التأمل والتذكر والنقد، وأدب المراجعة بتعبير أعم، كما قال الأديب أحمد هيكل:

”لم يقف الشعر الأندلسي عند النقطة التي وصل إليها من قبل فحسب، بل تخلف بعض التخلف، فقل نتاجه، وضاعت أغراضه، واختلطت اتجاهاته، ولولا قلة من الشعراء الموهوبين الذين تغلبت طبيعتهم الفنية على ظروف الفتنة القاسية، لما وجدنا لهذه الفترة شعراً ذا قيمة كبيرة، لأن أحداث الفتنة حصرت الشعر في دائرة ضيقة، وصرفت الشعراء عن الفن الجاد، فهو حيناً حديث عن اللهو والشراب يدفع إليه الهروب وإغراق الهم،“ كقول عبادة بن ماء السماء

فهل ترى أحسن من أكؤس	يقبل الثغر عليها اليد
يقول للساقى: أغثني بها	وخذ لجيناً وأعد عسجدا
أغرق فيها الهم لكن طفا	حباها من فوقها مزبدا
كأنما شبيها شارب	أمسكها في كفه سرمدا ^١

وهكذا قد كان شعراء تلك الفترة أقل بطبيعة الحال من شعراء الفترات السابقة، وألح شعراء تلك الفتنة هم: أبو عامر بن شهيد، وأبو حزم، و أبو مروان الطنبلي، وسأركز هنا على إبراز مساهمة ابن شهيد في تطوير الشعر الأندلسي، قبل أن نخوض في هذا البحث يناسب لي أن ألقى الضوء الضئيل على مفردات الشعر الأندلسي، لكي تظهر شخصية (شاعرنا ابن شهيد) شخصية بارزة وممتازة، بين المعاصرين.

مفردات الشعر الأندلسي

كما نعلم قد وهب الله الأندلس طبعاً ساحراً ووفراً جمالاً، جبالها الخضراء ورياضها الجميلة وتغريد طيورها علي أغصان أشجارها، كل ذلك أثره في جمال

الأندلس التي شغفت بها القلوب وهامت بها النفوس، ثم أخذ الشعراء والكتاب ينظمون الطبيعة بجدائقها وقصورها وأبنيتها وحيوانها و شجرها حتى وصل بهم إلى وصف مجلس الشراب والغناء والرقص والآلات الطرف، حتى تركوا تراثاً كبيراً وغنياً للأجيال القادمة على وجه الخصوص.

ثم إن هذا التراث وهذه الثروة الجميلة كانت قد تأثره كثيرا بالمفردات الشرقية وغيرها من المفردات الأخرى، فنجدهم أحيانا يستخدمون مفردات عربية وشرقية وأحيانا غربية وأحيانا يخلطون بينهما جميعا، وهكذا كذلك الأشعار والشواهد الجميلة التي كان شعراء الأندلس يفتنون بها بمفردات غيره، ولذا ينبغي لنا أن أبحث أولا عن أشعار الطبيعة.

كان دوافع كثيرة في إقبال ابن خفاجة على وصف الطبيعة كما قد صوّر لنا ابن سعيد في "المغرب" هذه الجزيرة التي عاش فيها ابن خفاجة بقوله.

"عروس الأندلس المقلدة من نهرها سلك الملتفعة من جناها بسندس، روض بسام، ونهر كالحسام، وبلبل وحمّام ومنظر على حسو المدام".^١

إن طبيعة هذا شأنها سحرت ابن خفاجة واستولت على لبه وعقله حين تجلّت له في أبهى حلّلها، فصلّته بالطبيعة صلة الصديق بال صديق بل الحبيب بالحبيب يحبها كما يحب الإنسان بل إن هذه الصلة قد جعلت ابن خفاجة يري الأندلس أنها جنة الخلد فنراه يقول:

يا أهل أندلس لله دركم	ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم	وهذه كنت لو خيرت أختار
لا تثقوبعتها أن تدخلوا شغرا	فليس تدخل بعد الجنة النار ^٢

^١ المغرب في حلى المغرب، ج ٢ ص ٣٦٣

^٢ ديوان ابن خفاجة ص ١٣٣

استخدم الشاعر في شعره من وصف زهرة، ونعت شجرة، وجرية ماء، ورنه طائر ما هو إلا كان جانحا إلى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها وجبله، لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره.

وكما قد وصف ابن خفاجة مظاهر الطبيعة، من نهر جار، في أبيات تقطر سلاسة وتزخر بالتشبيهات الجميلة فقال:

لله نهر سال في بطح	أشهر ورودا من لمى حسناء
متعطف مثل السوار كأنه	والزهري كنفه بحر سماء
قدرق حتى ظن قوسا مفرغا	من فضة في بردة خصراء
وغدت تحفّ بها الغصون كأنها	هدب تحف بمقلة زرقاء ^١

وقد صور الشاعر كصور الانعكاسات حيث صور لنا الشاعر هذا النهر وهو يسير في باحات واسعة فتشتهي الورود إليه أكثر مما تشتهي الورود إلى لمى الحسناء وقد بين الشاعر فيها الألفاظ الحسنة التي هي ابتكار لأشعار الطبيعة لشعراء الأندلس وهي بحر السماء، بمقلة زرقاء، بردة خصراء، وقوساء مفرغا، والإبداع في هذه القصيدة لهذا الشاعر وهو يشبه النهر في زرقته وما يحيط به من الأغصان بالعين يحيط بها الهدب من كل صوب.

وقد لاحظته دارسى الأدب الأندلسي في الأشعار الطبيعية خاصة وهي نقل الإحساس بوسائل الفنية الجديدة كقول عبد الرحمن الداخل في وصف النخلة التي قال فيها "نشأت بأرض أنت فيها قرينه" حيث صور النخلة ككائن حي ذي صفات نفسية وعاطفية، تشاركه فيما يكابد من آلام الغربة والبعد المؤلم، عن الأهل والأحباب.

ومن مفرداته الأندلسية وهو عند الشعراء الأندلسيين أن جاءوا بأشعار الطبيعة "المقطعات القصيرة" التي نظموها في وصف صنوف الأزهار فبعضها يمثل

”بطائق“ المهداة بين الأصدقاء، وليس لديهم من غاية فيها سوى طلب ”الصورة“
المبتكرة وأكثر صورهم تاخ مآخذ الجمود كقول القاضي ابن عباد في وصف
الياسمين: فقله

وياسمين حسن المنظر يفوق في المرئ وفي المخير
كأنه من فوق أغصانه دراهم في مطرف أخضر^١

وكذلك من مفرداتهم وهي مزج الطبيعية بفنون شعر المختلفة ، كما مزج شعراء
الأندلس وصف الطبيعي بشرب الخمر ومجالس اللهو والترب و الغزل كما شرب
المعتمد بن عباد الخمر ليلا في جوّ من النشوة والطرب و الطبيعية الخلابة ، كقوله:

وقد شربت الراح يسطع نورها والليل قد مد الظلام راء
حتى تبدى البدر في جوزاءه ملكاتنا هي بمجة وبهاء

وكذلك مزج الغزل بالطبيعة وهي أمر مألوف وخير من فعل ذلك من
الشعراء ابن زيدون وعبر عن مشاعرو لآدة بقافية بعثها إليها وهو محتبى في
الزهراء. فقله:

إني ذكرت في الزهراء مشتاقا والأفق طلق ومرأى الأرض قدراقا
وللنسيم اعتلال في أصائله كأنه رق لي فاعتل اتفاقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت بتنا لها حين نام الدهر سراقا
وهكذا في الأزجال والموشحات:

ظل الشعر العربي في المشرق والمغرب علي القافية الرتبية حتي عصر الخلافة في
الأندلس في القرن التاسع اليلادي، حيث ظهر شعراء مجددون عملوا علي تطوير
التجاه الشعبي بحيث ظهرت بعض الألفاظ العامية مؤظفة شعريا في هذاالعصر، وكما
بعد انتشار الغنائ الذي تطور بشكل كبير بعد الاختراعات الموسيقية التي ظهرت
على يد زرياب وكان من الطبيعي أن يتطور معه الشعر نتج عن ذلك لون جديد

يدعى فن التوشيح ويبنى الموشح علي المقطوعات الشعرية التي تنظم بصورة محكمة وقد ظهر في الشعر العربي لأول مرة في الأندلس، تبدأ الوشحة بالمطلع وتختتم بالخرجة وهي القفل الأخير التي لا يلزم قواعد اللغة العربية، ومن خلال الخرجة التي كانت تنظم بالأعجمية أحيانا، وكذلك نجد في الخرجة التي يخرج بها الوشاحين الفصيح إلى العامي تارة، وتارة أخرى إلى العجمي، كما يختلف عنها أيضا في تسمية أجزائه كما جاء في الذخيرة أن الوشاحين كانوا يأخذون اللفظ العامي والعجمي.^١

ومن الخرجات التي نظمها الوشاحون الأندلسيون باللغة العجمية قول يحيى السرقسطي الجزار في خاتمة موشحة له.

تبين مادام الرقيب زشحة له كما يبدوا الحبيب بدامع
قلما أشد ونجيب من ودع كذا أمي فلموني البين إب
كذل ميت طارى سرالرقيب^٢

في هذه الموشحة لفظ ”كذل“ و ”إب“ هذان لفظان أعجميان اللذان استعمال صاحب الوشحة في خرجته.

وكذلك أكثرالخرجات التي ابتعدت عن الفصحى فقد نظمها أصحابها بالعامية وكما نجد هذه الأمثلة العامية في الخرجة في قول أبي القاسم المنشي رغم خوف الرقيب:فقوله .

حزت يا أبي حسن حسن لم تكن لتحجبه عن
ولكذلك يشودك من غني

الحبيب حجب عني الدار ونريد نساعنو جر
ونخاف رقيب الحب واش نحمل يارب

فاللفظ واش هو لفظ عامي استعمل أبو القاسم في الخرجة.

١ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٤٦٩

٢ جيش التوشيح لسان الدين الخطيب، ص ١٥٥

وهكذا في الأزجال الأندلسية، إذا ألقينا النظر فيها فنجد قد استعمل الرجالون اللغة العامية ضدّ لغة الفصحى، واللغة العجمية ضدّ العربية. اخترع الأندلسيون فنا آخر يجعّى الزجل بلغة مجردة من الإعراب و مزدحمة بالكلمات التي هي من أصل محلي، كل ذلك ظهر بسبب تعدد الثقافي الذي عرفته الأندلس.

وقد استخدم الإمام أبوبكر بن قزمان في أزجله بعض المقطوعات بالعجمية، ومن المؤكد أنه ورث هذه الطريقة عن الوشاحين الذين كانوا يستعملون العجمية في خرجات مؤشحاتهم فمن ذلك يقوم:

نمضى إن شاء الله من سرور لسرور
والسعاد بشاشة إذ مطور
وعدوك يذاق عشوال طلور
لعن الله من يقول نعم

لقد استخدم أبوبكر قزمان في هذه المقطوعة لفظة إذماطور وهي عجمية بمعنى للعاشق كما استخدم أيضا وهو يتوعد الفقيه بعد شهر رمضان ولفظة طلور وهي عجمية بمعنى الألم. هذا التفصيل الموجز لمفردات الشعر الأندلسي

شعر أبي عامر والأغراض التي طرقها

عاش أبو عامر أربعة وأربعين عاماً ٣٨٢-٤٢٦ هـ، وهذه الفترة قصيرة، ومع قصر أبي عامر- كان ما تركه من الشعر ثروة أدبية لا يُستهان بها، وفي الصفحات التالية نحاول أن نلقى الضوء على أهم جوانب هذه الثروة الأدبية مستعينين بما تركه أبو عامر من الشعر، ومن استعراض شعر أبي عامر هذا يتبين لنا أنه طرق كثيراً من أغراض الشعر المعروفة الكثيرة، ففي الوقت الذي نجد أبا عامر قد مارس شعر المديح بكثرة وعلى نطاق واسع، لا نجد أنه قد مارس الحكمة والعتاب والهجاء إلا قليلاً، وهذا ما يدفعنا إلى تناول الأغراض حسب أهميتها والمكان الذي تحتله من شعره، وعلى ذلك فأول ما نبدأ به من شعره :

المديح:

والمعروف بأن المدح من أقدم الأغراض الشعرية مارس الشعراء في كل عصر من الجاهلي، فمضوعه فيها فضائل الجاهلية ومفاخرها، ثم نشأ بعيداً عن التكسب والتزلف يرمي إلى إظهار الحب والشكر، وأما في فجر الإسلام فقد صار في خدمة الدعوة الدينية ووسيلة لتأييد الدين ودعوة محمد نبينا صلى الله عليه وسلم، ثم صار في العهد الأموي وسيلة لإذاعة الحماد والمآثر و تأييد الأحزاب السياسية، ثم رحل هذا الصنف إلى العصر العباسي فقد أصبح الشاعر في هذا العهد بوقاً للعظماء يعلى شأنهم ويذيع أخبارهم الحقيقة والمختلفة، وقد زاد الإقبال على المدح لأنه سبيل الرزق، ولأن العظماء في حاجة إليه بسبب مقام بينهم من تنافس، وقد بلغ فيه الغلو حدّاً مقيتاً، ثم دخل هذا الصنف إلى العهد العباسي الغرب وهي الاندلس، استخدم كثير من الشعراء، فيها فضائل الأندلس وأهلها والحكام وغير ذلك، منهم شاعرنا ابن شهيد أنه أيضاً قد استخدم هذا الصنف، ومن قصائده المدح كثير كمدح لبني عامر، وبني حمود، وهشام المعتد، وسليمان المستعين، وغير ذلك.

فالأول مدحه للأمرء والحكام وهؤلاء منهم أمرء بنى عامر الذين أغرقوه وأهله بعطايهم، فهو لا يذكرهم في كل مناسبة تسنح له، ومن هؤلاء الممدوحين: المؤمن عبد العزيز العامري^١ حيث مدحه في ثانيا رسالته المطولة إليه، وكان من جملة مدحه له ضمن قصيدته الرائية ومطلعها:

سقياً لطيب زماننا وسروره وغرير عيش مسعف بغيره^٢
حتى يأتي إلى مدحه فيقول فيه:

وتكفري برداء وصل مقرطق	كتبوا بنقس المسك في كافوره ^٣
متلفع ^٤ بحريره متضمخ	بعبيره مترنج بفتوره
وسنان ^٥ ناولني مدامة طرفه	فشربتها وسمعت من طنوره
يدعو بلكنة ^٦ بربري لم يزل	يستف بالصحراء حب بريره
متقدم بمضائه متلفع	بردائه متكلم في عيوره
مستفتح لبيانه بينانه	يهدي السلام إلى رجال عشيره
متنصب كالغصن إلا أنه	يهتز من أعجازه وصدوره
طارحته كلما وكنت زعيمه	غرداً أحرك منكبي لزميره
فمشى إليّ فثرت غير معفر	كالليث مطرداً إلى يعفوره ^١

١ هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر. فقد اختاره الموالى العامريون وقلدوه رياستهم بعد رحيل مجاهد العامري عنهم، فخاطب لأول حينه خليفة قرطبة القاسم الحمودي مع هدية حسنة، واشتمل على خدمته أربعة من الكتاب حتى سماهم الناس الطبائع الأربع، وهم: ابن طالوت وابن عباس وابن عبد العزيز، وابن التاكري، كاتب رسائله، وقد ظل وأبنا على بلنيسه حتى سنة ٤٥٢ هـ. البيان المغرب ج ٣

ص ١٦٤ ١٦٥

٢ عيش غرير: العيش الناعم، أما (غرير) الثانية فتعني: الشاب لا تجربة له

٣ مقرطق: لابس القرطق، وهو قباء ذو طاق واحد. النقس: المداد

٤ تلفح: تغطى،

٥ الوسنان: البرير: أول ما يظهر من ثمر الأراك

٦ لكنة: لكن الرجل. عي وثقل لسانه

وملكته بالكف ملكة قادر
فأصاع مؤتمر لحكم أميره
فقضيت ما لم أقض فيه برية
يأبى العفاف وعصمتي بحضوره
زمن قضى ثم انقضى فكأنه
حلم قرأت الموت في تفسيره ومنها
ولرب ليل للهموم تهدلت
أستاره فمحا الصوى^١ بستوره
وبراحتي من فكري ذو ذكره
عهدت تذاكري بطبع ذكيره^٢
ثم قال في آخر هذه القصيدة

حتى بدا عبد العزيز لناظري
ألمي، فمزقت الدجى عن نوره
ملك تبقى المجد ناصر له
وتقيل العلياء عن منصوره
ورأى الزمان يحيد عن تأميره
فسقى سهام المجد من تاموره

فأبو عامر يُشبه جميل ممدوحه ظهور عبد العزيز بأنه إيدان بزوال الظلام، ذلك أن هذا الأمير قد ورث المجد عن أبيه وجده وحافظ عليه بكرم خلقه وعظيم سجايه، لا يُعيقه عائق عن طلب العلى بل يمضي قدما غير وجل ولا هيب رغم كل العقبات، على أن هذه الأبيات قد جاءت ضمن قصيدة مبدوءة بحنين إلى أيام الماضي وسروره، والتغزل بالحبيب ووصف ليلة من الليالي السارة التي كان يقضيها في مظاهر الأنس والفرح.

وفي نفس هذه المعاني وعلى نفس الأسلوب، مدح عبدالعزیز في قصيدته الميمية المطولة، ومن خلالها نرى صورة حية صادقة لما يكنه ابو عامر لآل عامر في أعماق قلبه، وما نشأ عليه منذ صغره فهو يراهم أشرف الناس وأعظم الناس لا يقف مدحه لهم عند هذا الحد، بل يجرّه ذلك إلى تذكّر ونكبة الزمان لهم وهم أهل المجد والقوة

^١ اليعفور: ولد البقرة الوحشية

^٢ الصوى: جمع الصوة، وهي حجارة تكون علامة في الطريق يهتدى بها

^٣ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٨٣، ٨٤

فيستنهض عبدالعزيز لإعادة الأجداد لنفسه وآله ممن ظلموهم فترة من الزمن، فيمهد لذلك بثناء عبدالعزيز ومدحه ثم يدعوهم إلى القيام بالمهمة التي لا يقوم لها غيره فيرمي الخطوب بمثلها ويعيد ذلك النفوذ الذي قام على العدل برجال أفذاذ..

إيه هيا عبد العزيز	وأنت رجام المرجم
قمر تضيء له الخطوب	على دآديها الفواحم
تسري الرياح بمجده	فنسيمها بالغور فاغم
لم يرو من ماء الشباب	وكل أشيب عنه خائم
رعياً لمؤتمنٍ رعى	فينا الحدايث والقدايم
بدأت أوائله وعاء	د لكشف غاشية الغياهم
لا تتركن صرم الزما	ن على ظبا تلك الصوارم
وارم الخطوب بمثلها	عزماً فأنت لها مساهم
إليكها من ناطق	يدعوك إذ صمت البهائم ^١

والقصيدة لا تختلف عن سابقتها من حيث التعرض للمديح بعد نسيب وغزل ومجون لإباطولها، ولعل أهم ما يلفت النظر في هذه القصيدة ويميزها عن سابقتها تعرض أبي عامر للفتنة وما تضمنته من المآسي وأدت إليه من الآثار على المجتمع، أما موضوعات القصيدة فعادية ومتداولة مع خفة الوزن ووضوح الأسلوب.

وغير هذه القصائد، مدح أبو عامر المؤتمن في قصائد أخرى، منها القصيدة البائية التي يبدأها بذكر الخمر على طريقة أبي نواس:

أذن الديك فثب أو ثوب	وانضح القلب بماء العنب ^٢
وتأمل آيةً معجزةً	ما قرأنا مثلها في الكتب

١ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ١٧١، أيضاً ديوان ابن شهيد الأندلسي، ١٢٧

٢ فثب: فانتبه وارجع إلى ما كنت عليه. ثوب: أقم الصلاة، انضح: اغسل مطهراً

ركع الإبريق من طاعته
وكنى فابتل ثوب الأكو^١
ذكر أبو عامر في هذه الأبيات أن المؤتمن هو يتحلّى بنبل أصله وكرم أجداده
وعلوّ أسرته في الفضائل والأخلاق الحميدة.

ومدح أبوعامر للأمرء العامرين اعتماداً على حسن سلوكهم وعطاياهم، ومن
هؤلاء الأمرء البارزين سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين، (ت ٤٠٣هـ) مدح لهذا
الشخص في تلك القصيدة التي مشهورة بالقصيدة القافية.

بكى اسفاً للبين يوم التفرق	وقد هون التوديع بعض الذي لقي
وما للذي ولى به البين حسرة	بكيت، ولكن حسرةً للذي بقي
وقد شاقني الورق السواجع بالضحي	ومن يستمع داعي الصباية يشفق
على فنن من أيكّة قد تعلقت	بجبل النوى من قلبي المتعلق
فصدقتها في البين من غير عبرة	وكم من كثير الدمع غير مصدق
لعل نسيم الريح تأتي به الصبا	بنشر الخزامى والكباء المعبق
كأن عليها نفحةً عبشميةً	أتت من جناب المستعين الموفق

ولا نجد هذا المديح ينطوي على شيء من الإبداع والابتكار، وندرة المعاني سوى
أن الممدوح قد نال ما نال بجدارته، سوى هذين البيتين قد وردا بعد نسيب قصير،
عبر فيه أبوعامر عن شوقه وما يعانيه من ألم الفراق، ولا ذكر للمستعين فيه سوى
البيتين السابقين على الرغم من أن ابن بسام اعتبر القصيدة في المستعين.

ثم مدح أبو عامر الأمير هشام المعتد^١ الذي كان على صلة مستمرة ووثيقة به،
حتى انتخبه وزيراً وقربه إليه، وبالع أبو عامر في تصوير مكاسبه في كنف هشام حين
يقول:

أحللتني بمحلة الجوزاء ورويت عنك من دم الأعداء
 وطعمت لحم المارقين فأخصبت حالي وبلغني الزمان شفاء
 ورأيتني كالصقر فوق معاشر تحتي كأنهم بنات الماء
 ولحت إخواني لديك كأنهم مما رفعتهم نجوم سماء
 لا يرحم الرحمن مصرع مارق عبث بطاعته يد الأهواء
 ألحق به إخوانه فحياتهم نكد وقد أودى أخو السفهاء
 ساعد بذاك ودع مقال معاشر بخلوا فنالوا خطة البخلاء
 من لم يفدك سوى الرماح فخله للشمس يرقبها مع الحرباء
 ودع القلانس في السح يشقها ومفاخر الآباء للأبناء
 إن الرجال إذا تأخر نفعهم في كل معنى شبهوا بنساء
 أنا صلّهم عند الخصام فخلهم للسان هذي الحية الرقشاء^٢

وتظهر من هذه الأبيات العلاقة القوية بين أبي عامر والمعتد ومدى ما وصلت إليه من الإخلاص والمحبة والسعادة ليس لأبي عامر فحسب وإنما لأخوانه وأقرانه فقد سعدوا في ظل المعتد وارتفع شأنهم حتى غدوا كأنهم نجوم تتألق.

وكذلك مدح ابن شهيد أبو عامر بن المظفر^١ الذي بقى في قرطبة رغم التقلبات السياسية، ولم يفرّ منها حتى عهد هشام المعتد كما قال أبو عامر وابن حيان.

١ هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، بويغ بالخلافة سنة ٤١٨ هـ ، بعد خلع المعتلي بن حمود من قبل أهل قرطبة ، وكان بائعاً في حصن البنت عند عبدالله بن قاسم الفهري ، وتلقب المعتد بالله ، وأقام متردداً فالنغر سنتين وسبعة أشهر ، وهو يخطب له بقرطبة ثم أتى إليها بعد أن اشتدت الجند يوم الثلاثاء الثاني عشر لذي الحجة في سنة اثنتين وعشرين ، وفر إلى لاردة فهلك بها سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ، أنظر البيان

المغرب ج ٣ ص ١٤٥

٢ ديوان ابن شهيد الاندلسي ، ص ٤٥ ، ٤٦

”واستوحش أبو عامر ابن المظفر هذا من هشام المعتد ووزيره حكم بن سعيد القزاز، وكانوا قد رموه بذنب سليمان بن هشام الناصري، فخاف بهم فضاقت به الأرض يومئذ، فألقى نفسه على أبي حماسة حرزة الیصدراني، فأجاره وبوأه منزلاً في حصنه على نهر قرطبة، أقام به في كمد وغصّة، والحمام يغارله إلى أن مات عنده“.^٢

شكرت للدهر حسن ماصنعا	طائر مجد يجني وقعا
نفرت لما أيقنت جيئته	وطارت النفس عندها قطعاً
يا حسن حمامنا وقد غربت	شمس الضحى فيه بعد ما متعا
أيقن أن الهلال زاكنه	فضاء للحاضرين واتسعا
فانعم أبا عامر بنعمته	واعجب لأمرين فيه قد جمعا
نيرانه من زنادكم قدحت	وماؤه من بنانكم نبعا ^٣

وإذا ألقينا النظر في هذه القصيدة الصغيرة نجد فيها أن أبا عامر قد استخدم فيها استعارة بليغة، وهي جعل الماء ينبع من بنانه وناره تقدح من زناده مستعيناً بأوجه التشبيه والاستعارة، وكذلك ذكر فيها التكلف والغربة كما في قوله ”أيقن أن الهلال راكبة“ فهذه الصورة أيضاً أنها غريبة متكلفّة من حيث أن النسبة بعيدة بين الركوب والهلال من جهة وبين الحمام من جهة أخرى.

١ هو أبو عامر بن المظفر بن المنصور بن أبي عامر، كان يعيش بقرطبة عيشة راضية إلى أن استوحش من هشام المعتد ووزيره، وذهب مع فريقاً من أصدقائه وأعوانه وحمل معه أثمن ما يملك من متاع، وأجل من في حريمه من نساء، وذهب بكل ذلك إلى شاطبة ولكن الأض ضاقت به، ولجأ على حمى أبي حماسة حرزة الیصدراني في قصره الحصين على ضفة الوادي الكبير، حيث ظل يذوي وذوي من الكمد والغصة حتة مات. انظر الذخيرة

٢ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٣٠٤

٣ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٩٢

وبهذا الإيجاز نصل إلى نهاية شعر أبي عامر في المديح، بل في التكبُّب والتقرب من الأمراء وذوي السلطان على اختلافهم في العلم والجاه والسلطان وتغير الحوادث والأزمان.

الثناء:

عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلي فقد رثى فيها أبطال قبيلته المقتولين، إذ كان النساء والرجال جميعا كانوا يقفون على قبورهم مؤننين ومُثنين على خصائلهم، وكانت مادة الرثاء كمادة المدح مؤلفة من الخصال المحبوبة، والفعال المجيدة، وجميع المثل التي يجعلها الجاهلون، ومن أشهر الأصحاب الرثاء المهلهل والخنساء، ثم استخدم هذا الصنف شعراء العصر الراشدي والأموي، ولكن لم يغيّر هذا الصنف تغييرا جوهريا، فقد ظل هذا الصنف في مجمله قائما على الوقائع والأيام، والأنساب، وغير ذلك، وهكذا هذا القسم توجد في الأندلس في رثاء الممالك البائدة فهو نتيجة الانقلابات السياسية، وتطويع الدهر بالدول، فوقف الشعراء على أطلالها يندبون عزها الحائل ومجدها الزائل، وتعتبر فيها قصيدة ابن شهيد في رثاء قرطبة فاتحة لهذا النوع من الرثاء في الأندلس، وأما في رثاء الفردي فقد رثى ابن شهيد بعض الأصدقاء من بينهم: القاضي ابن ذكوان والوزير حسان بن مالك، وابن اللماي، كما رثى نفسه بقصيدتين.

وإذا ندرس الأبيات الرثاء لأبي عامر فنجد شعرا وافرا غنيا، فقد رثى أبو عامر كثيرا من معارفه، منهم الوزراء المعروفون في زمانه، ومنهم أصدقاءه، من كان قريبا منه ليسوا أمراء ولا وزراء.

فقد رثى أبو عامر القاضي ابن ذكوان^١ (٤١٣ ت) بقصيدة منها:

ظننا الذي نادى محقا بموته لعظم الذي انجى من الرزء كاذبا

١ ابن ذكوان هو: أبو عباس أحمد بن عبد الله بن هرثة بن ذكوان بن عبد الله بن عبدوس بن ذكوان

الأموي، قاضي الجماعة بقرطبة، ولد سنة ٣٤٢ وتوفي سنة ٤١٣ هـ. أعمال الإعلام ص ٤٩

خلنا الصَّباحَ الطَّلُقَ لَيْلًا وَإِنَّمْ هبْطًا خداريا من الحزن كاربا
 ثكلنا الدجى لما اسْتَقْلَ وإنا فُقدناكَ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ ناعبًا
 وَمَا ذَهَبَتْ إِنْ حَصَلَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ ولكنما الْإِسْلَامَ أدبرَ ذَاهِبًا
 وَلَمَّا ابَى إِلَّا التَّحْمُلَ رَائِحًا منحناه أَعْنَاقَ الْكِرَامِ رَكائبًا
 يسير بِهِ النعشَ الْأَعَزَّ وَحَوْلَهُ أباعد راحو للمصاب اقاربًا
 عَلَيْهِ حَفِيفٌ لِلْمَلَائِكِ أَقْبَلَتْ تصافح شَيْخًا ذَاكَرَ اللَّهِ تَائِبًا
 تَخَالَ لَفِيفُ النَّاسِ حَوْلَ ضَرِيحِهِ خَلِيطُ قَطَا وَافِي الشَّرِيعَةِ هَارِبًا
 إِذَا مَا امْتَرَوْا سَحَبَ الدُّمُوعِ تَفَرَعَتْ فروع البكا عَن بَارِقِ الْحَزْنَا
 لَاهِبًا فَمَنْ ذَا لِفَصْلِ الْقَوْلِ يَسْطَعُ نَوْرَهُ إِذَا نَحْنُ نَاوِينَا الْإِلَادَ الْمُنَاوِبَا
 وَمَنْ ذَا رِيْعِ الْمُسْلِمِينَ يَقْوَاهُمْ إِذَا النَّاسُ شَامَوْهَا بِرُوقَا كَوَاذِبَا
 فَيَا لَهْفَ قَلْبِي آهَ ذَابَتْ حَشَاشَتِي مَضَى شَيْخَنَا الدِّفَاعَ عَنَّا النُّوَابِ
 وَمَاتَ الَّذِي غَابَ السَّرُورَ لِمَوْتِهِ فَلَيْسَ وَإِنْ طَالَ السَّرَى مِنْهُ آيَا
 وَكَانَ عَظِيمًا يَطْرُقُ الْجَمْعَ عِنْدَهُ وَيَعْنُو لَهُ رَبُّ الْكِتَابَةِ هَائِبَا
 وَذَا مَقُولِ عَضْبِ الْغَرَارِينَ صَارِمِ يروح بِهِ عَن حُومَةِ الدِّينِ ضَارِبًا
 أبا حَاتِمَ صَبْرِ الْأَدِيبِ فَإِنِّي رَأَيْتُ جَمِيلَ الصَّبْرِ أَحْلَى عَوَاقِبَا
 وَمَا زَلَّتْ قَدَمَاتُ رَهْبِ الدَّهْرِ سَطْوَةً وَصَعْبًا بِهِ يَعْيِي الْخُطُوبُ الْمَصَاعِبَا
 سَأَسْتَعْتَبُ الْإَيَّامَ فِيكَ لَعَلَّهَا لَصِحَّةَ ذَاكَ الْجِسْمِ تَطْلُبُ طَالِبَا
 لَئِنْ أَفْلَتَ شَمْسُ الْمَكَارِمِ عَنْكُمْ لَقَدْ أَسَارَتْ بَذْرًا لَهَا وَكَوْكَبَا

وإن في هذه الأبيات نجد لقد ذهبت الفضائل بذهابه، لا بل ذهب الإسلام
 وأدبر، وإن أبا عامر مع ذلك لم يغفل نفسه ووقع المصاب عليه فندب حظه وبكى
 على مجده الضائع .

وهذه الأبيات احتوت على المعاني المعروفة و المتداولة، نجد فيها الأفكار البسيطة العادية، تفتقد الحزن الشديد والتأثر العميق، ولا نرى فيها من الصور التي تدل على المصيبة العظيمة.

وقد رثى أبو عامر وكان عليلاً الوزير أبا جعفر اللّماء^١ عند ما سمع نبأ نعيه ومنه قوله:

أمن جناهم النفع الجنوبي	أسري فصاك به في الغور غاري ^٢
أهدي إليّ ظلاماً ردع نافجة	أدماء ^٣ أشق بها الدأماء هنديّ
والليل قد قام في أثواب نادية	كأنه فوق ظهر الأرض نوبيّ ^٤
والنجم تحسبه قدام تابعه	حمامة رامها في الجو بازيّ
وجداول الأفق يجري في منافسه	ماء سقى زهرة الخضراء فضيّ
فقلت والسقم منشور على جسدي	يحدو الردى ورداء العيش مطويّ
أهدى اللّمائي من أزهار فكرته	نشراً فقال الدجى: مر اللّمائي
فقليل مات فقال الليل قارب ذا	فاهل من مقلتي نوء سماكي ^٥
وبت فرداً أناجي مقلتي شغفاً	كأنني في نقوب الدار جني ^٦

١ أبو جعفر: وهو الوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن أيوب اللّمائي، عمل كاتباً لدي الناصر لدين الله على بن حمود، وتولى تدبير ملكه، وأحرز لذلك صيتاً شهيراً وجلالة عظيمة، وكانت ترتبطه بإبن شهيد صداقة حميمة،

٢ غاري: من الغار وهو شجر معروف

٣ الدأماء: البحر

٤ نوبيّ: جمع النوب، وهو جبل في السودان،

٥ سماكي: نسبة إلى السماك الأعزل هو من منازل القمر، وهو نوء غزير مذكور. وعبارة نوء سماكي، كناية عن غزارة الدموع.

٦ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ١٤٥ أيضاً الذخيرة ج ١، ص ٢٨٣

ونرى أن أبا عامر في هذه القصيدة يسترسل في ذكر ألم بأبي جعفر فيبدء بهذه البداية بالغريب من الألفاظ، التي يبدو التكلّف وأثر الصنعة واضحة فيها، غير أنه لا يلبث حتى يفصح أكثر ويوضّح فيتذكر صورة الليل وقد شقّ ثيابه حزناً عليّ الفقيّد والنّجم ينطلق كأنه حمامة رامها بازيّ في الجوّ، وهكذا فيها أن عاطفة الحزن أقوى وأشدّ، وإن أبا عامر فيها تأثّر أثراً عميقاً، وظهرت في هذه القصيدة قدضاعت تلك العاطفة في خضم من الألفاظ الغريبة، والقافية الثقيلة المكوّنة من الياء المشدّدة المضمومة، وفي هذه القصيدة أننا لا نجد المعنى متسلسلاً، فقلوه "وجدول الأفق" لا يتناسب ومقام الحزن والألم الذي أراد تصويره فما هي الصلة بين جريان الماء الفضّيّ في الجدول وبين مصيبة عظمي هي الموت، حلّت بعظيم.

ومن الوزراء الذين رثى أبو عامر هو الوزير المشهور أبو عبده حسان بن مالك (ت ٤١٦هـ) ^١، وقد صوّر في الأبيات التالية المشكلة الكبرى والمصيبة العظمى وغير ذلك. فقلوه:

أصاب المنايا حادثي وقديم	أفي كل عام مصرع لعظيم
وأوحش من كلب مكان زعيم	هوى قمرا قيس بن عيلان ^٢ آنفاً
وقد فل سيفي منهم وعزيم	فكيف لقائي الحادثات إذا سطت
وقد فقدت عيناى ضوء نجوم	وكيف اهتدائي في الخطوب إذا دجت
كغرة ^٣ مسود القميص بهيم	مضى السلف الوضاح إلا بقية
فقبلي ما كان اهتضام تميم	فإن ركبت مني الليلي هزيمة
رجعنا وغادرناك غير ذميم	أبا عبدة إننا غدرناك عندما

١ هو حسان بن مالك بن أبي عبدة. كان من جلة الأدباء وعلمائهم، من بيت جلاله ووزارة، روى عن أبي

بكر الوبيجي، أنه قد كتب كتاباً سماه "ربعة وعقيل" أنظر مطمح الأنفس ص ٢١١

٢ قيس بن عيلان: صوابه قيس عيلان، وهو أبو قبيلة مضرية مشهورة، وعيلان إسم فرسه، مضاف إليه، وأخوه إلياس. المعرّف بإسم خندف بالكسرو والمراد بالقمرين قيس وخندف.

٣ الغرة: ليلة استهلال القمر من الهلال طلعت، مسود القميص: أي الليل البهيم: الأسود

أُخْذِلْ مِنْ كُنَّا نُرُودُ بِأَرْضِهِ وَنُكْرِعُ مِنْهُ فِي إِنْاءِ عُلُومِ

وَيَجْلُو الْعَمَى عَنَّا بِأَنْوَارِ رَأْيِهِ إِذَا أَظْلَمْتَ ظُلُمَاءَ ذَاتِ غُمُومِ

كَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَحْ بَرِيحَ مِنَ الْحَجَى عَقَائِمُ أَفْكَارٍ بَغَيْرِ عَقِيمِ

وَلَمْ نَعْتَمِدْ مَغْنَاكَ غَدَاوًا وَلَمْ نَزِرْ رَوَاحًا لِفَصْلِ الْحُكْمِ دَارَ حَكِيمٍ^١

نجد في هذه الأبيات استهلها بالرثاء واختتم بها بالأسف والحزن على ضياع الآمال، وتبدّتها و اشتداد الظلمات من حوله... حتى يخيل للقارئ أن أبا عبدة كان له فحسب دون غيره.

هذا فضلا عن أن الصور الواردة فيها صور مالوفة لا نكاد نجد فيها جديدا يذكر، فتجدّد مصارع العظماء وسقوطهم نحوماً ينتشر بزوالها الظلام وزوال المآثر والمحامد واختفاؤها، كل ذلك من الصور المعروفة التي تتكرر لدى الشعراء دائماً في الرثاء.

وكذلك رثاءه لبنية صغيرة^٢ وتعزيتة لشخص آخر بفقدتها كما نفهم من الأبيات.

أيها المعتد في أهل النهى لا تذب إثر فقيد ولها

وإذا الأسد حمت أغياها لم يضر الخيس^٣ صرعات المها

وغريب يا ابن أقمار العلا أن يراع البدر من فقد السها^٤

ورثي أبو عامر قرطبة في قصيدة طويلة مؤثرة مطلعها:

مافي الطلول من الأحبة مخبر فمن الذي عن حلها نستخبر

لاتسألن سوى الفراق فإنه ينبئك عنهم انجدوا أم أغوروا

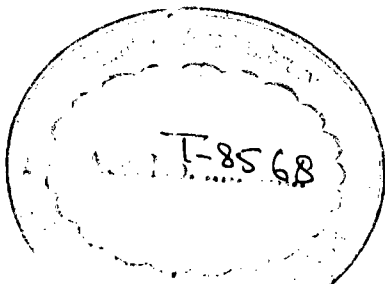
^١ المعنى: المنزل

^٢ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ١١٩، ١٢٠ أيضاً الدخيرة ق ١ ج ١، ص ٢٨٤

^٣ لم تبه أي مؤرخ وأديب من هي بنية صغيرة

^٤ الخيس: غابة الأسد، كالغيل.

^٥ ديوان ابن شهيد الاندلسي ص ١٤٢



جارا الزمان عليهم فتفرقوا في كل ناحية وباد الأكثر
 جرت الخطوب على محل ديارهم وعليهم فتغيرت وتغيروا
 فدع الزمان يصوغ في عرصاتهم نورا تكاد له القلوب تنور
 فلمثل قرطبة يقل بكاء من يبكي بعين دمعها متفجر
 دار، أقل الله عشرة أهلها يبكي بعين دمعها متفجر
 في كل ناحية فرق منهم متفطر لفراقها متحير
 عهدي بها والشمل فيها جامع من أهلها والعيش فيها أخضر
 ورياح زهرتها تلوح عليهم بروائح يفتر منها العنبر
 والدار قد ضرب الكمال رواقه فيها وباع النقص فيها يقصر
 والقوم قد أمنوا تغير حسنهم فتعمّموا بجمالها وتأزروا^١

وتتجلى من هذه القصيدة أن أبا عامر كان من نعيم ورغد ورفاه في القصور
 والزهاء والزاهرة والمدن وغيرها، وأفواج العلماء والأدباء تنهل من مناهلها العذبة
 وتغرف من بحور علومها الذين لا يأتي الزمان مثل هؤلاء الرجال النبلاء، وقد حزن
 حزناً شديداً بفراق هذه النعمة الرائعة والشائقة، ثم يأسف أشد الأسف على
 الأموال الطائلة والقصور الشائخة، حتى لتكاد كبده تنفطر.

شعر المرض:

رثاء أبو عامر لنفسه.

ولما طال بأبي عامر ألمه، وتزايد سقمه، وغلب عليه الفالج الذي عرض له في
 مستهل ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة، لم يمهله حركة ولا تقلبا،
 وكان يمشى إلى حاجته على عصا مرة، واعتماداً على إنسان مرة، فإنه قد صار حجراً
 لا يبرح ولا يتقلب. هذه الفترة بما فيها من تلك اللآم أو ما أحدثته من الصدمات

النفسية، أثرت في أبي عامر كثيراً وجعلته يتفجع على نفسه مصوراً هذا التفجع بصورة شتى ومعان مختلفة حسب حالته النفسية، وسكون الألم عنه أو شدته وحدته عليه. فهو يتذكر ما قضى من أيام في اللهو والملاذ فلا يجده شيئاً وإذا به قد ذهب إلى غير رجعة ولم يبق منه سوى ما تركه من شعور بالخسران وضياح العمر. وقال:

تأملت ما أفنيت من طول مدتي	فلم أره إلا كلمحة ناظر
وحصلت ما أدركت من طول لذتي	فلم ألقه إلا كصفقة خاسر
وما أنا إلا رهن ما قدمت يدي	إذا غادروني بين أهل المقابر
سقى الله فتياناً كأن وجوههم	وجوه مصاييح النجوم الزواهر
إذا ذكروني والثرى فوق أعظمي	بكوا بعيون كالسحاب الماطر
يقولون: قد أودى أبو عامر العلا	أقلوا فقداً مات آباء عامر
هو الموت لم يصرف يجراس خاطب	بليغ ولم يعطف بأنفاس شاعر
ولم يجتنب للبطش مهجة قادر	قوي ولا للضعف مهجة صافر
يحل عرى الجبار في دار ملكه	ويهفو بنفس الشارب المتساكر
وليس عجباً أن تدانت منيتي	يصدق فيها أولى أمر آخري
وليس عجباً أن بين جوانحي	هوى كشرار الجمرة المتطاير
يحركني والموت يحفز مهجتي	ويحتاجني والنفس عند حناجري ^١

وتبدوا في هذه الأبيات أن الشاعر لا يستطيع الآن القيام إلى حاجته إلا بشقّ النفس والجهد الشديد ومعونة الأهل والأصحاب، وأن عيشه قد ولى، والموت عنده مفتوحة العين كل يوم يُرسل إليه بنذير فلا يسعه إلا أن يتمنى لو يستطيع سكن أعلى مكان من جبال عال، ولكن هيهات.

وإذا ضاقت نفسه وتواردت عليه حواطر الموت، يذكر أصحابه وآيامه المنصرمه معهم، وما ينطوون عليه من حبٍّ ومودّة وإخلاص. فيبعث إليهم بتحيّاته من أعماق قلبه.

ثم قال هذه الأبيات:

إقر السلام على الأصحاب أجمعهم	وخص عمر أبازكى نور تسليم
وقل له: يا أعز الناس كلهم	شخصاً علي وأولاهم بتكريم
الله جارك من ذي منعة ظفرت	منه الليالي بعلق غير مذموم
ما كان حبك إلا صوب غادية	طيباً وحاشا لحبي فيك من لوم
إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا	فقد رضيت حماك الله تقديمي
وإن أحب الثرى جسماً ليأكله	أسمح بجسمي له يفديك تعظيمي
عشنا أليفين في بر الهوى زمناً	حتى زقا بنوانا طائر الشئوم
فشتت نوب الأيام ألفتنا	قسراً ولم يغنها ظني وتنجيمي ^١

ولا يكتفى أبو عامر بأن يسلم على أصحابه ومودّته، بل إنه يودّعهم كذلك شأن

المسافر الذي لن يعود ويمدحهم ويثنى على سجايهم العالية. فقلوله:

أستودع الله إخواني وعشرتهم	وكل خرق إلى العلياء سباق
وفتية كنجوم القذف نيرهم	يهدي، وصائبهم يودي بإحراق
وكوكباً لي منهم كان مغربه قلبي،	ومشرقه ما بين أطواقــــي
الله يعلم أني ما أفارقه	إلا وفي الصدر مني حر مشتاق
كنا أليفين خان الدهر ألفتنا	وأي حر على صرف الردى باقي
فإن أعش فلعل الدهر يجمعنا	وإن أمت فسيسقيه كذا الساقى
لا ضيع الله إلا من يضيعه	ومن تخلق فيه غير أخلاقي
قد كان بردي إذا ما مسني كلف	لا يثلم الحب آدابي وأعراقي

حتى رمتنا صروف الدهر عن كذب ففرقتنا، وهل من صرفه واقبي
 إني لأرمقه والموت يضغطني فأقتضي فرجةً مرتد أرماقبي^١
 وأضاف قائلاً . حتى ناح أبو عامر على نفسه بشعر مؤثر أشبه بالبكاء والعويل بعد
 أن همّ بقتل نفسه من شدة الألم. فقال :

أنوح على نفسي وأندب نبلها إذا أنا في الضراء أزمعت قتلها
 رضيت ظل قعيد الدار تجنبي العصا على ضعف ساق أو هن السقم رجلها
 وأنعى خسيسات ابن آدم عاملاً براحة طفل أحكم الضر نصلها
 ألا رب خصمٍ قد كفيت، وكربة كشفت، ودار كنت في الحبل وبلها
 ورب قريض كالجريض بعثته إلى خطبة لا ينكر الجمع فصلها
 فمن مبلغ الفتیان أن أخاهم أخو فتكة شنعاء ما كان شكلها
 عليكم سلام من فتي عضه الردى ولم ينس عيناً أثبتت فيه نبلها
 يبين وكف الموت تخلع نفسه وداخلها حب يهون ثكلها^٢
 وإذا نلقى نظراً عميقاً في أشعاره من الرثاء تطلعنا على كثير من المعاني المعروفة
 وخاصة رثاء الآخرين ، يلوح حتى رثاءه لنفسه فإن المعنى العام له ، والقائم على
 الأسف على ما فات فهو معنى معروف ويكاد يكون عاماً ورئيساً لدى جميع
 الشعراء، إذ لم نقل الناس جميعاً ، إذ كثيراً ما يلجأ الشاعر خاصة عند دنو أجله إلى
 إظهار التوبة والندم على فات من حياته.

ونجد إلى هذا بساطة المعاني في شعر أبي عامر هذا وضعف صلته بالرثاء فهو
 كثيراً ما يبدأ بالرثاء وينتهي بذكر لمآثره والتغني بأخلاقه وشمائله مما يجعل المرثي

١ ديوان ابن شهيد الاندلسي ، ص ١٠٤ ، أيضاً الذخيرة ج ١ ص ٢٨٦

٢ ديوان ابن شهيد الاندلسي ، ص ١١٠ ، أيضاً الذخيرة ج ١ ص ٢٨٢

٥ الجريض الرقيق الذي يُغصّ به وربما كني به عن الغم والغصص ومنه المثل القائل: "الجريض دون القريض"

مقصور النفع عليه دون الآخرين. كما لاحظنا في رثاء لأبي جعفر اللمائي والقاضي ابن ذكوان وغير ذلك.

الهجاء :

الهجاء صنف قديم في الشعر العربي ، وأنه كان في الأصل لعنات يصبها الأفراد على أعدائهم وأعداء قبائلهم آملين أن تترلها بهم المقادير، وأخذ يتحول من لعنات خالصة إلى سباب وتهوين للمهجوّين على ألسنة شعراء الجاهلية، ومضوا يتقاذونه ويسلّونه كما يسلّون سيوفهم في حروبهم ، وبقيت منه بقايا غير قليلة في الإسلام بين شعراء المدينة ومكة لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم ظل التهاجي مضطرباً بين الشعراء في العصر العباسي، وسقطت منه شغل كثيرة إلى الأقاليم المختلفة ، وبمجرد أن نشط الشعر في الأندلس لعهد عبدالرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ) نشط الهجاء، وأخذ شعراء يتكاثرون، حتى إستخدم ابن شهيد الأندلسي.

أما في باب الهجاء، فقد نظم العديد من القصائد في هذا الفن، بعضها اقتصر على الهجاء فقط والبعض الآخر كان ضمن قصائده المدحية.

وإذا ندرس أبيات أبي عامر كلّها ، فلا نجد إلا بضع أبيات من هذا النوع التي طرق أبو عامر لغرض ثانوي ، وهو فقط لإسكات الأعداء، والرد على الخصوم والمعرضين الذين لا يزالون يثيرون عليه الحفاظ ويوغرون الصدور .

ومن هجا أبو عامر هجاء مُقدعاً كاتب من الكتّاب المعاصرين دون أن يذكر

إسمه: فقلوه

ويح الكتابة من شيخ هبنقة^١ يلقي العيون برأس مخه رار^٢
ومنتن الرياح إن ناحيته أبداً كأنما مات في خيشومه فار^٣

^١ هبنقه: لقب "يزيد بن ثروان" المضروب به الميل في الحمق، أجراء مجرى الصفة،

^٢ الرار: الذئب من المخ

^٣ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٧٥ أيضاً الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢٥٢

وهجا أبو عامر مرة أخرى لما سأله أبو جعفر أحمد بن عباس أن ينفرد بأكبر وزيرين ثم
أعرض عنهما عند حضورهما ، فخاطبه أبو عامر بقوله:

هلا سترت الشين بالزين	من قبل إحضار الوزيرين
قد علما أنهما أحضرا	لخلوة أثقل من دين
لما تدانت قاب قوسين	أصابها الحاسد بالعين
فانصرفا مثل انصراف الفتى	أسلم إلهاً ليد البين
صدهما من قردك المصطفى	نطحة نطاح بروقين
وما رأى الناس على ما مضى	من قبله قرداً بقرنين
أربعة في مجلس جمعو	فطار هذان بهذين
قد لزمنا جنبيك لم يبرحا	لهفي على ضيعة جنبين
فأنت ما بينهما جالـس	جلوس أبر بين خصبين ^١

أما في معاني الهجاء فليس فيها جديد فهي أفكار معروفة ومشهورة ، ولكن
في هذا الهجاء أقذع أبو عامر حتى بلغ الفحش والمنكر.

الفخر:

كما عرفنا سابقاً أن أبا عامر ذات أثر بالغ، فقد أحس منذ صغره بأنه رجل
الطموح، وذوي النفوذ، والجاه . وطالب للأجداد والمعالى، لهذا كان يفخر في شعره
وفي قصائده المتعددة، يضمن المديح والغزل والوصف فخراً بنفسه وكرمه وحسن
سجايه.

فهو تارة يرى نفسه بجرأ زاحراً لا تؤثر فيه الخطوب ولا توهن من عزمه
الأحداث الجسام، كما يقول:

أنا البحر لا يستوهن الخطب طاقتي	وتأبى الحسان أن أطيق لقاءها
عجبت لنفسي كيف ملكها الهوى	وكيف استفز الغانيات إباءها

ولو أنني أنحت علي أكارم ترضيت بالعرض الكريم جزاءها
ولكن جردان الثغور رميني فأكرمت نفسي أن تريق دماءها^١
وهذا من الفخر المضمن في الغزل، فكان أبو عامر ما تغزل إلا ليفخر ويشني على
همته وتارة أخرى بنجده لا يرى لنفسه مثيلاً في معاصريه في قوة الشكيمة ومضاء العزيمة
لا يعوقه شيء ولا يؤخره، ولو كان له مكان في أعلي الجو لركب إليه الكواسر حتى
يصله. كقوله،

ولم أر مثلي ما له من معاصر ولا كمضائي ما له من مضافر
ولو كان لي في الجو كسر أؤمه ركبت إليه ظهر فتحاء^٢ كاسر
وهمت بإجهاش علي وقد رأت مصابي في آثار إحدى الكبائر
فقلت لها: إن تجزعي من مخاطر فإنك لن تحظي بغير المخاطر
له في بياض اليوم يقظة فاجر وتحت سواد الليل هجعة كافر
رويدك حتى تنظري عم تنجلي غيابة هذا العارض المتناثر
ودون اعتزامي هضبة كسروية من الحزم سلمانية^٣ في المكاسر^٤
إذا نحن أسندنا إليها تبلجت مواردنا عن نيرات المصادر^٥
ومن ذلك أيضاً إعجابه بنفسه وشدة صبره ، وثباته على الرغم من كثرة ما
يلاقى من النكبات والكوارث.

وما ألان قناتي غمز^٦ حادثة ولا استخف بحلمي قط إنسان
أمضى على الهول قدماً لا ينهنهني وأثنى لسفيهي وهو حردان^١

١ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٤٨، أيضاً الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢١٦

٢ الفتحاء: العقاب اللينة الجناح.

٣ سلمانية: نسبة ألى ملمان الفارسي السحاي ، فريد بالهضبة الكسروية السلمانية

٤ الكسر: جنب البيت،

٥ ديوان ابن شهيد الاندلسي ص ٧٩ أيضاً الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٤٩

٦ ماألان قناتي غمز حادثة: أي ما نالت مني حوادث الدهر.

ولا أقارض^٢ جهالا بجهلهم والأمر أمرى والأيام أعوان^٣
 أهيب بالصبر والشحناء^٤ ثائرة وأكظم الغيظ والأحقاد نيران
 إن الفتوة فاعلم حد مطلبها عرض نقى ونطق فيه تبيان
 بالعلم يفخر يوم الحفل حامله وبالعفاف غداة الجمع يزدان
 وما لسانی عند القوم ذو ملق ولا مقالي إذ ما قلت إدهان^٥
 ولا أفوه بغير الحق خوف أخي وإن تأخر عني وهو غضبان^٦

الغزل والمجون:

وهذا الشئ أظهر من الشمس ان أبا عامر قد نشأ نشأة ترف وهو ومجون مع
 وفرة الأموال والجاه كما لاحظنا، غير أن غزله بالقياس إلى المديح أو الوصف يبدو
 قليلا، ولكن عند ما نطالع أشعاره عنده قسمان ، للغزل.
 الأول: الغزل المبدوء ببكاء الأطلال على طريقة القدماء من الشعراء الجاهلين
 والإسلاميين من ذلك نحو قوله.

مَنَّا زِلَهُمْ تَبْكِي إِلَيْكَ عَفَاءَهَا سَقَتْهَا الثريا بالعري نَحَاءَهَا^٧
 أَلْتِ عَلَيَّهَا الْمَعْصِرَاتُ^٨ بِقَطْرَهَا وَجَرَتْ بِهَا هَوَجَ الرِّيحِ مَلَاءَهَا
 حَبَسَتْ بِهَا عَدُوًّا زِمَامَ مَطِيئِي فَحَلَّتْ بِهَا عَيْنِي عَلَى وَكَاءَهَا
 رَأَتْ شَدْنَ الْآرَامِ فِي زَمَنِ الْهَوَى وَلَمْ تَرَ لَيْلِي فَهِيَ تَسْفَحُ مَاءَهَا^٩

^١ ينهنهني: يكفني ويصدني. الحردان: الغضبان.

^٢ أقرض: أجزى

^٣ البغية: والأعوان أعواني.

^٤ الشحناء: البغضاء، أهيب بالصبر: أدعوه.

^٥ داهنه: غشه وصانعه وأظهر له خلاف ما يضر.

^٦ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ١٣٢

^٧ العفاء: الدروس والهلاك، العري: الريح الباردة، النحاء: ج النحي وهو الزق أو ما كان للسمن خاصة
 وجرة فخار يجعل فيها لبن يمحض

^٨ لث المطر: دام أياما. المعصرات: السحائب تعتمر بالمطر.

ثم يعجب بنفسه كيف امتلكها الهوى بهذه الصورة حتى نسي كل شيء في تذكر
الأحباب وما يهيج الشوق من الحمائم النائحة التي أبكته عند يسمع بكاءها ثم هام في
حبّه . كقوله:

خليلي عوجا بَارِك الله فيكما بدارتها الأولى نحي فـاءها
وَلَمْ أَر أسرابا كأسرابها الدمى وَلَا ذِئْبٌ مثلي قد رعى ثم شاءها
وَلَا كضلال كَانَ اهْدَى لصبوتي لِيَالِي يهديني الغرام خباءها
وما هاج هَذَا الشوق إِلَّا حمائم بَكَيْتَ لَهَا لما سَمِعْتَ بكاءها
تغن فَلَا يبعد بِذِي الأيك عاشق بَكَى بَيْن ليلى فاستحث بكاءها^٢
والثاني:

الغزل المباشر، وهو الذي يمارسه أبو عامر مباشرة ، المجرّدة عن البكاء على
الأطلال أو التمهيد بأيّ شكل من الأشكال، ويكون ذلك حيناً بالكتابة إلى المحبوب
وبنّه حبّه الدفين كما في قوله من رسالة شعرية رقيقة، كقوله:

كُتِبَ لها أَنِي عاشق على مهرق الكتم بالناظر
فردت على جواب الهوى بأحور في مائة حائر
منعمة نطقت بالجفون فدلّت على دقة الخاكر
كَأَن فؤادي إذا أعرضت تعلّق في مخلي طائر^٣
ففي هذه القصيدتان أولاً، ”فالحمائم التي تميج الشوق“ شوق القاشقين
فتبكيهم كما في القصيدة الأولى، وتعلّق الفؤاد ”بمخلي الطائر“ عند مرور الحبيبة

١ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٤٦

٢ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٤٧

٣ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٨٢

كما في القصيدة الثانية ، كل ذلك أمور شائعة في أشعار الشعراء السابقين والمعاصرين لأبي عامر. لا يكاد يخلو منها غزل متغزل أوبكاء عاشق منهم.

أما مجون أبي عامر فأننا نجده جزءاً من حياته وصدى لنشأته الأولى بين النعيم والمال والترف فهو فيه صريح لا يقف عند حد التنويه بما يكون في لقاء بين حبيبين وإنما يتطرق إلى شيء من التفصيل... فقد يذكر ليلة وما يكون فيها من خمر ومجون في حان أودير من الأديرة، كما يقول:

ولرب حان قد أدت بديره	خمر الصبا مزجت بصفو خموره
في فتية جعلوا الزقاق تكاءهم	متصاغرين تحشعاً لكبيره
وإلى علي بطرفه وبكفه فأمال	من رأسي لعب كبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم	ففتحت من عيني لرجع هديره
يهدي إلينا الراح كل معصف	كالخشف خفره التماح خفيره ^١

وواضح من هذه الأبيات أن أبا عامر ينسج على منوال أبي نواس في أشعاره الخمرية والمجونية ، خاصة ، إن أبا عامر قد أوردتها لإيقاظ أبي نواس من سكره عند زيارته له في أحد الأديرة في رسالة التوابع بصحبة زهير.

ولا يقف عند هذا الحد من المجون بل أنه يظن أصرح من ذلك حين يذكر تفاصيل ليلة التقى فيها بحبيب وما كان بينهما من حوار ومخاطبة..

والقصيدة أيضاً نسج على منوال أبي نواس وتقليد لأسلوبه في المجون.

أصفيح شيم أم برق بدا	أم سنا المحبوب أوري أزنذا
هب من مرقده منكسرا	مسبلا للكم مرخ للردا ^٢

ويعضي أبو عامر في سرد ما يكون بينه وبين الحبيب من حوار في أسلوب غزلي مجوني لا يختلف عن أسلوب أبي نواس في معانيه وأفكاره.. إلا من حيث تكراره للمعني

١ ديوان ابن شهيد الاندلسي ، ص ٨٥ ، أيضاً الذخيرة ق ١ ج ١ ، ص ٢٢٢

٢ الذخيرة ق ١ ج ١ ، ص ٢٢٣

وتعدد الصور وكثرة انتقاله بينها .. مما جعل القصيدة قاصرة عن الوصول إلى درجة أبي نواس في هذا الفن .

وهكذا نجد أبا عامر مقلدا لأبي نواس في المجون من حيث أسلوبه ومعانيه وصراحته فيه حتى لا نكاد نفرق أحيانا بين أبي عامر و أبي نواس .. ولكننا مع ذلك نجده قاصرا عن مجون أبي نواس من الناحية الفنية.

فهو مختلط بغيره من الأغراض غير متميز مستقل .. لم يسم فيه أبو عامر واحدة ممن أحب أو تغزل على الرغم من ذكر الحبيب بضمير المذكر والمؤنث تقليدا لأبي نواس ، وأخيرا فإن قلة هذا المجون لا تتناسب والحياة اللاهية المترفة التي عاشها أبو عامر في ظل المال والجاه والنفوذ .

الوصف:

وصف أبو عامر كثيرا مما وقع تحت سمعه وبصره ، وما أحاط به من مظاهر الطبيعة و المخلوقات وغير ذلك التي يعيش فيها .
ومما وصفه أبو عامر من مظاهر الطبيعة: ”الغيث“ حيث قال فيه:

ومرتجز ألقى بذى الأثل كلكلاً	وحط بجرعاء الأبارق ما حطاً
سعى في قيادالرياح يسمح للصبأ	فألقت على غير التلاع به مرطاً
وما زال يروي التراب حتى كسا الربى	درانك، والغيطان من نسجه بسطاً
وعنت له ريح تساقط قطره	كما نثرت حسناء من جيدها سمطاً
ولم أر درأً بددته يد الصب	سواه، فبات النور يلقطه لقطاً
وبتنا نراعي الليل لن نطو برده	ولم يجر شيب الصبح في عرفه وخطاً
تراه كملك الزنج في فرط كبره	إذا رام مشياً في تبختره أبطاً
مطلاً على الآفاق والبدر تاجه	وقد علق الجوزاء من أذنه قرطاً ^١

وفي هذا الوصف يحاول أبو عامر تتبع المطر وهو غيوم تسعى في قيادة الريح حتى تكون قطرات تنثرها الرياح كما تنثر الحسناء الجواهر من سمطها.

ويستعين أبو عامر في إخراج هذه الصورة بصور البيان من استعارة وتشبيه وغيره. ولكنه لم يزل عاديا معروفا في معانيه وأكثر صوره مع ثقل قافية الطاء، هذا فضلا عن الاضطراب الملاحظ في المعنى وعدم الترتيب فإنه حين يصف سعى الغيوم أمام الريح ونزولها حتى سقت الربى فكانت مكسوة منها ببساط منسوج يعود بعد ذلك إلى عبث الريح بالغيوم والماء ونثرها لها حتى تتساقط كالدرر المنثور ويبدوالنا أن البيت الرابع كان يجب أن يتقدم على البيتين اللذين سبقاه ليستقيم المعنى ويكون مسلسلاً منسجماً.

ونجد لأبي عامر وصفا لبعض الحيوانات كالبرغوث والنحلة وللذئب وغير ذلك، وصف أبي عامر للذئب فقد أبرز أبو عامر — إلى حد كبير أوصاف جسم الذئب وحركته ولون جلده، وألحظه المخيفة الخادعة. تقبس النار من ماء عينيه،

إذا اجتاز علويّ الرياح بأفقه أجدّ لعرفان الصبا يتنفّس^١
تذكر روضاً ذا شوي وباقر^٢ تولته أحراس من الذعر تُحرس
إذا انتابها من أذؤب القفر طارق حثيث إذا ما استشعر اللحظ يهمس^٣
أزل كسا جثمانه متستراً طيالس سوداً للدجى وهو أطلّس^٤
فدل عليه لحظ خب^٥ مخادع ترى ناره من ماء عينيه تُقبس^٦

^١ علويّ نسبة إلى العالية ، أي البالد المرتفعة، أجد: أسرع

^٢ باقر: إسم جمع للبقر.

^٣ استشعر: حافويهمس: يسير بالليل.

^٤ الأزل: القليل اللحم ، والسريع ، الأطلّس: الذئب الأمعط في لونه عيرة للسواد

^٥ الحب: المخادع الحيث.

^٦ ديوان ابن شهيد الاندلسي ص ٨٧ أيضاً الذخيرة ق ١ ح ١ ٢٣٧

الحكمة:

طرق أبو عامر الحكمة بصورة مباشرة ، إذ أننا لا نجده يفرد لها في شعره مكاناً متميّزاً ، يتطرق إلى الحكمة بعد الفخر في قصيدته النونية، مطلع قصيدته النونية التي يفخر فيها بنفسه.

وما ألان قناتي غمز حادثة ولا استخف بحلمي قط إنسان
وقال قادمًا مفتخرًا:

أمضى على الهول قدماً لا ينهني واثني لسفيهي وهو حردانُ
ولا أقارض جهالاً بجهلهم والأمر أمري والأعوان أعوانُ
أهيب بالصبر والشحناء ثارة وأكظم الغيظ والأحقاد نيرانُ
وما لساني عند القوم ذو ملق ولا مقالي إذا ما قلت أدهانُ
ولا أفوه بغير الحق خوف أخي وإن تأخر عني وهو غضبانُ
ولا أميل على خلي فأكله إذا غرثت بوعض الناس ذؤبانُ
إن الفتوة فاعلم حداً مطلبها عرض نقي ونط فيه تبيانُ
بالعلم يفخر يوم الحفل حامله وبالعفاف غداة الجمع يزدانُ
ود الفتى مهم لو مت من يده وأنه منك ضخم الجوف ملآن^١
وهذه المعاني التي كثرت ترديدها على ألسنة الشعراء بأساليب مختلفة .

وقال مرة أخرى :

أقل كل قليل جد ذي أدب بين الورى وأقل الناس إخوان
وما وجدت أخا في الدهر يذكرني إذا سما وعلا يوماً به الشأن
إن الكريم إذا نالته مخمصة أبدى إلى الناس شبعاً وهو طيان
يحني الضلوع على مثل اللظى حرقاً والوجه غمر بماء البشر ملآن^٢

١ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ١٣٢

٢ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ١٣١ ، وأيضاً بغية الملتبس ١٨٠

هذا في مقاييس المجتمع وما يؤخر الإنسان وما يقدمه في حياته من خلق فاضل وعلم نافع غزير.

وهناك معان أخرى تشتملها حكم أبي عامر وهي عجز الإنسان أمام المقادير فهو في يدها كالريشة في مهب الريح.

ألا إنها الأيام تلعب بالفتى نحوس قهادي تارة وسعود
وما كنت ذا أيد فأذعن ذاقوي من الدهر مُبد صرفهُ ومعيد^١
فلا يحق للإنسان أن يتأسف على شئ حرمة إياه إذ لا يفيد تأسفه شيئاً. وذلك خلق
الليالي وطبعها:

لا تبكين من الليالي أنها حرمتك نغبة^٢ أشارب من مشرب
فأقل ما لك عندها سيف الردى يستل من شعر القذال^٣ الأشيب
ورحيل عيشك كل رحلة ساعة وفناء طيبك في الزمان الأطيب
فإذا بكيت فبك عمرك، إنه زجل الجناح^٤ يمر مر الكوكب^٥
وهذه الحكم مألوفة في معانيها تفتقر إلى العمق وكثرة التحارب من ناحية
المعاني. وتبدو عليها الصنعة اللفظية والتزويق بالتشبيه والجناس مع عرض صور جميلة
أحياناً كتشبيه العمر بالكوكب ومروره بسرعة وغير ذلك.

المراجعات والعتاب:

-
- ١ ديوان ابن شهيد الاندلسي ص ٦٤
 - ٢ النغبة: الجرعة
 - ٣ القذال: مؤخرة الأس.
 - ٤ زجل الجناح: أي سريعه وله صوت وجلبة،
 - ٥ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٥٣ أيضاً الذخيرة ق ١ ج ١ ٢٤٨

ويبقى لدينا أغراض جاءت في أبيات قليلة متفرقة، أو مجموعات صغيرة ، منها ما ساقه أبو عامر مساق المخاطبات والمراجعات مع أصحابه وخاصة صديقه الوزير أبي مروان الجزيري (ت ٣٩٨ هـ) فقد سأله هذا سؤالاً في الشعر.

أواخر الورد أذ تجنيه ملتقطاً أزكى وأعطر نشرأ أم أوائله

فأجابه أبو عامر برسالة شعرية كذلك منها قوله:

يا سيداً أرجت طيباً شمائله وشاكت شعره حسناً رسائله

وسائلاً لي عما ليس يجله ولا الذي كلف التفضيل جاهله

الورد عهداً ونشراً صنو عهدك لا تنسي أواخره طيباً أوائله^١

وكذلك مع صديقه الحميم أبي محمد بن حزم الفقيه الشاعر المعروف، فقد أرسل أبو عامر إليه رسالة شعرية مؤثرة وهو في علته بأبيات طويلة منها:

فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي يداً في ملماقي وعند مضايقي

عليك سلام الله إني مفارق وحسبك زاداً من حبيب مفارق

فلا تنس تأبيني إذا ما فقدتني وتذكر أيامي وفضل خلائقي^٢

وفي جواب ابن حزم له:

أبا عامر ناديت خلاً مصافياً يفديك من دهم الخطوب الطوارق

وألفيت قلباً مخلصاً لك ممحضا بودك موصول العرى والعلائق

شدائد يجلوها الإله بلطفه فلا تأس إن الدهر جم المضايق^٣

وهذه الأبيات بين أبي عامر وأبي محمد بن حزم لا نجد لها من الميزة إلا إبرازها للصلة القوية بين الاثنين ووشائج الأخوة والمحبة التي تربطهما حتي ليفدي كل منهما سيصحه بنفسه لو أمكنه ذلك وهذا المعنى معروف بين الشعراء.

١ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ١٠٨ ، أيضاً الذخيرة ق ١ ج ١، ص ١٨٤

٢ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ١٠٢

٣ الذخيرة ق ١ ج ١ ، ص ٢٨٣

أما قيمة الأبيات من الناحية الفنية قال نرى لها قيمة تذكر وخاصة أبيات أبي عامر فهي تؤكد على الإعجاب بالنفس والفخر بها بأسلوب يعتمد على الصناعة اللفظية.. في حين أن أبيات أبي محمد بن حزم بنفس القافية تؤكد على الإخلاص والمحبة الصادقة وتخلو من الحرص الشديد على الصناعة اللفظية .
 اما اشعار العتاب .

فالعتاب أجراه أبو عامر عن نفسه حين انكرت عليه طول صبره على الضراء دون ان يرحل فيتخلص مما هو فيه من فراق الأحبة .. ثم لا يلبث أن يتبع هذا العتاب بالمديح:

وقالت النفس لما أن خلوت بها أشكو إليها الهوى خلواً من النعم
 حتام أنت على الضراء مضطجع معرس في ديار الظلم والظلم
 وفي السرى لك، لو أزمعت مرتحلاً براء من الشوق أو براء من العدم^١
 والأبيات لا تخلو كذلك من الصنعة اللفظية فضلاً عن التنقل فيها بين أغراض متعددة.

شعر أبي عامر بين التقليد والتجديد:

إن الدارس لشعر أبي عامر يحسّ بوضوح بأنه كان يحتذي علي منوال شعراء المشرق ويقتدي على آثارهم إلى حدّ ما، ففي قصائده العديدة نراه يحذو حذو شعراء مشرقين ويعترف بذلك أن الشعراء للقرنين الثالث والرابع كانوا في جملتهم مقلدين لأهل المشرق يعدون ذلك ضرورة لازمة وسببا للفخر والاعزاز، وهذا ما لاحظته كثير من دارسي الأدب الأندلسي، وشعره بصورة خاصة حتى قرّر جودت الركابي في كتابه "في الأدب الأندلسي" "إن الشعر منذ بدء عصر الأمويين حتى أوائل القرن الخامس الهجري في الأندلس شعر التقليد لأدب المشرق، كما نرى في شعراين عبد ربه، وابن هاني، وابن شهيد الأندلسي، وابن دراج القسطلبي، وغيرهم من شعراء الطور الأول"^١.

وفي رسالة التوابع والزوابع يشير أبو عامر أنه كان اتصل بتوابع الشعراء الفحول المعروفين في الجاهلية والإسلام، وكان ممن اتصل بهم إمرو القيس وطرفة وقيس بن الحطيم من الجاهليين وأبو تمام والبحثري وأبونواس والمتنبي من الإسلاميين وفي العصر العباسي بالذات. ثم بعد ذلك تبين لنا من عند ما نقرأ غالبية القصائد التي أوردها في التوابع خلال حوار مع الشعراء أنه نسج علي منوالهم، وقلّدهم علي طريقهم. فأمّا أنه قد عارض القصيدة ونسج علي منوالها لفظا ومعنى، أي جعلها مساوية بمبناها، حتى في الوزن والقافية، حينما أبو عامر التقى بصاحبه زهير بن نمير وقال له "حللت أرض الجن أبا عامر فبمن تريد أن نبدأ؟ قلت الخطباء أولى بالتقديم، لكنني إلي الشعراء أشوق قال فمن تريد منهم قلت: صاحب إمرو القيس"^٢ ثم استقبل بالصعدة هازاً لها ثم ركزها وجعل ينشد، وسمع منه قصيدته المشهورة

سما بك شوق بعد ما كان أقصرا وحلت سليمي بطن ظبي فعرعرا^٢

^١ في الأدب الأندلسي، ص ٢١

^٢ شرح ديوان إمرو القيس، ص ٩١

حتى أكملها ثم قال أبو عامر أنشد فهممت بالحبيصة ثم اشتدت قوى نفسه
وأنشد قصيدته الرائية كذلك ومطلعها.

شجته مغان من سليمى وأدور ، منها

ومن قبة لا يدرك الطرف رأسها تزل بها ريح الصبا فتحدر

تكلفتها والليل قد جاش بحره وقد جعلت أمواجه تتكسر

ومن تحت حضبي أبيض ذو سفاسق وفي الكف من عسالة الخط أسمر

هما صاحباي من لدن كنت يافعا مقيلان من جد الفتى حين يعثر

وإن في هذه الأبيات كلها قد ذكر أبو عامر الفخر بنفسه وشجاعته ومكارمه
وعلو مكانه ورباطة جاشه، ولكن قصيدة إمري القيس قد تبدء بمقدمة طويلة بيبكاء
الأطلال والتغزل بالحبيبة ثم افتخر علي نفسه وشجاعته وتعزية لنفسه وطلب الصبر
والسلوان، وتستغرق هذه المعاني كلها .

وإذا ألقينا النظر فهذه القصيدة السابقة، فنجد هذه القصيدة تشابه في الوزن

والقافية، بقصيدته الرائية ، لعمر بن أبي ربيعة. منها:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أوم رائح فمهمجر

بحاجة نفس لم تقل في جوابها فتبلغ عذرا والمقالة تعذر

تقيم إلي نعم فلا الشمل جامع ولا الحبل موضوع ولا القلب مقصر

ولا قرب نعم إن دنت لك نافع ولانأياها يسلي ولا أنت تصير

وهذه قصيدة غزلية طويلة عرض فيها عمر صورا شتى من أشجانه وأشواقه

وساعاته الحلوة والحرجة مع الحبيبة، واشتراك الوزن والقافية.

كما قال البستاني في كلامه ”فمنهم من كان يحن إلي الأسلوب البدوي ، فيذكر
أماكن العرب في البادية، وعرائس الشعر عندهم أويحذو حذو إمري القيس وابن أبي

ربيعة في القصص الغرامى واجتياز الأهوال إلى من يحبّ كما قال أبو عامر بن شهيد
معارضاً رائيه عمر“

واخرى اعتقلنا دونها ودونها قصور وحجاب ووال ومعشر
يزينها ماء النعيم وحفها من العي فينان الأراكة أخضر
إذا رامها ذو حاجة صد وجهه ظبي البائرات والوشيج المكسر^١
فوجد في هاتان القصيدتان اتفاقاً في الوزن والقافية.

وهكذا قد عارض ونسج قصيدته على منوال طرفة لفظاً ومعناً، أي جعلها
مساوية بمبناها ووزنها وقافيتها، كما أخرج ابن بسام على لسان أبي عامر في التوابع
والزوابع حيث قال:

فقال لي زهير: من تريد بعد؟ قلت: صاحب طرفة. فجزعنا وادي عتيبة،
وركضنا حتى انتهينا إلى غيضة شجرها شجران، فقال: مرحباً بكما! واستنشدني
فقلت: الزعيم أولى بالإنشاد؛ فأنشد:
لسعدى بجزان الشريف طلول
حتى أكملها، فأنشدته من قصيدة:
أمن رسم دار بالعقيق مُحيل
حتى انتهيتُ إلى قولي:

ولما هبطنا الغيث تذر وحشهُ على كل خوار العنان أسيل
وثارت بنات الأعوجيات بالضحى أبابيل، من أعطاف غير وبيل
مُسومة نعتدّها من خيارها، لطرّد قنيص، أو لطرّد رعيّل
إذا ما تغنّى الصّحبُ فوق متونها ضحينا، أجابت تحتهم بصهيل
تدوسُ بها أبكار نور كآئه رداء عروسٍ أودنتُ بحليل
رَمينا بها غرض الصّوار فأقعصت أغنّ قتلناه بغير قتيّل

وبادَرَ أصحابي التُّزولَ، فأقبلت كراديسُ من غُضِّ الشَّوَاءِ نشيل
نُمسَحُ بالحوذانِ مِنْهُ إذا ما اقتنصنا منه غيرَ قَلِيلٍ^١
ثم نظمها على غرار قصيدة طرفة اللامية وبنفس القافية والوزن ، ومطلعها:
لهندٍ، بِحِزَانِ الشَّرِيفِ، طُلُولُ تَلُوْحُ، وأدنى عهدِهِنَّ مُحِيلُ
حتى قال:

وبالسَّفْحِ آياتٌ، كأنَّ رُسومَهَا يَمَان، وَشَتَّه رَيْدَةً وَسَحُولُ
أَرَبْتُ بِهَا نَاجَةً تَزْدَهِي الحَصَى وَأَسَحَمُ وَكَافُ العَشَى هَطُولُ
فَغَيَّرُنَّ آياتِ الدِّيَارِ، مع البلى وَلَيْسَ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ كَفِيلُ
بِمَا قَدْ أَرَى الحَيَّ الجَمِيعَ بَغِيطَةً إِذَا الحَيَّحِيَّ، والحُلُولُ حُلُولُ
ألا أبلغا عبدَ الضَّلَالِ رسالة وَقَدْ يُبَلِّغُ الأَنْبَاءَ عَنْكَ رَسُولُ^٢

وإذا أردنا نقارن بين القصيدتين نجد اتفاقاً حتى في الوزن والقافية. ومباراة بين الإثنين، واختلافاً في المعنى، فبينما نجد طرفة يطيل في بكاء الأطلال، ولكن نجد أبا عامر يغفل ذكر الأبيات في بكاء الأطلال مع أن المطلع يدل عليها، ثم يأتي إلي وصف الخيل والشجاعة والأقدام في الحرب ثم شرب الخمرة بعد الانتصار هذا فضلاً عن صعوبة الأسلوب الذي امتازت به قصيدة طرفة على عكس قصيدة أبي عامر، وذلك طبعي للفرق بين الشاعرين من جملة وجوه معروفة واضحة.

وبعد ذلك بإمعان النظر في قصائد أبي عامر، نجد أبا عامر قد عارض نفسه علي الأسلوب قصيدة قيس بن الخطيم الهائيه ومطلعها،

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضاءها^٣

١ ديوان ابن شهيد الاندلسي ، ص ١١٤ أيضاً الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢١٤

٢ ديوان طرفة بن العبد، ص ٧٩، ٨٠،

٣ ديوان قيس بن الخطيم، ص ٢١٥

فقال لي زهير: إلى من تُتوقُ نفسك بعد من الجاهليين؟ قلت: كفاني من رأيت؛
أصرف وجه قصدنا أبي تمام. فركضنا ذات اليمين حيناً، ويشتدُّ في إثرنا فارسٌ كأنه
الأسد، على فرس كأنها العقاب، وهو في عدوه ذلك يُنشد:

طعنتُ ابن عبد القيس طعنة تائر لها نفذ، لولا الشعاعُ، أضاءها
استربتُ منه، فقال لي زهير: لا عليك، هذا أبو الخطار صاحب قيس ابن
الخطيم. فاستبى لي من إنشاده البيت، وازددتُ خوفاً لُجرائته، وأتينا لم نُعرج عليه.
فصرف إليه زهير وجه الأدم، وقال: حيّاك الله أبا الخطار! فقال: أهكذا يُحادُّ عن
أبي الخطار، ولا يُخطرُ عليه؟ قال: علمناك صاحب قنص، وخفنا أن نشغلك.
فقال لي: أنشدنا يا أشجعي، وأقسم أنك إن لم تُجد ليكوننَّ يوم شر. فأنشدته
قولي من قصيدة:

منازلهم تبكي إليك عفاها ومنها:

خليلي عوجا، بارك الله فيكما، بدارتها الأولى نُحيّ فناءها!
فلم أر أسرابا كأسرابها الدُّمى، ولا ذئب مثل قد رعى ثم شاءها
ولا كضلال كان أهدي لصبوتي، ليالي يهديني الغرامُ خباءها
وما هاج هذا الشوق إلا حمائم، بكيتُ لها لما سمعتُ بُكاءها
عجبتُ لنفسي كيف مُلكها الهوى، وكيف استفزَّ الغانياتُ إباءها
ولو أنني أنحتُ عليّ أكارم؛ ترصّيتُ بالعرض الكريم جزاءها
ولكنَّ جُرذان الثُّغور رميني، فأكرمتُ نفسي أن تُريق دماءها

فهاتان القصيدتان اتفقا في الوزن واختلفا في المعنى.

ومن قلدهم أبو عامر أوظهر أنه معجب بشعرهم ، أبو تمام، وفي حوارهِ مع
صاحبه يستمع إليه أبوتمام وهو ينشد في الفخر والثناء قوله :

إني امرؤ لعب الزمان بهمتي وسقيت من كأس الخطوب دهاقها

وكبوت طرفاً في العلا فاستضحكت
إلى قوله، حمر الأنام فما تريم نفاقها

وإذا ارتمت نحوي المنى لأنها
وفي الرثاء قوله: وإذا أبو يحيى تأخر نفسه
وقف الزمان لها هناك فعاقها
فمتى أوئل في الزمان لحاقها^١

أعينا امرءاً نرحت عينه ولا تعجبا من جفون جماد
إذا القلب أحرقه بثه فإن المدامع شلو الفؤاد
يود الفتى منهلاً خالياً وسعد المنية في كل واد
ويصرف للكون ما في يديه وما الكون إلا نذير الفساد
لقد عثر الدهر بالسابقي ولم يعجز الموت ركض الجواد
لعمرك ما رد ريب الردى أريب ولا جاهد باجتهاد^٢

وكان أبو عامر إذا انتهى قصيدته قال له صاحب أبي تمام: زدني، أوأنشدني من
رثائك، ثم يختم مجلسه معه بأن يستمع إلى وصية حيث فقال: إن كنت ولا بدَّ
قائلاً، فإذا دعيتك نفسك إلى القول فلا تكذِّ قريحتك، فإذا أكملتَ فجمامُ ثلاثة لا
أقلَّ. ونقح بعد ذلك، وتذكر قوله:

وجشمتني خوفُ ابنِ عفَّانَ ردَّها، فثقفْتُها حولاً كريئاً ومربعا
وقد كان في نفسي عليها زيادة، فلم أرَ إلا أن أُطيعَ وأسمعا
وما أنتَ إلا مُحسِنٌ على إساءةِ زمانك. فقبلتُ على رأسه، وغاصَ في العين.
ويتضح لنا من ذلك حرص أبي عامر على إبراز اهتمامه بأبي تمام مما يدل على
أن أبا تمام كان يشغل حيزاً كبيراً من ذهنه ويستغرق كثيراً من اهتمامه، وعلي الرغم

١ الذخيرة ج ١، ص ٢١٧

٢ ديوان ابن شهيد الأندلسي، ص ٧١

من جميع محاولات أبي عامر في عدم إظهار تقليده لأبي تمام فإن هذا التقليد واضح كل الوضوح من النصوص السابقة أولاً حيث أشار إلى الأخذ برأيه والتلقي عنه.
وثانياً:

عناية أبي عامر بالصنعة اللفظية بل وإفراطه فيها إلى حد كبير حتى لا نكاد نخلو قصيدة من قصائده من المجاز أو الاستعارة أو التشبيه أو غيرها من ألوان الصناعة اللفظية وإشارته إلى إفراط أبي تمام في الصناعة حتى طاب ذلك منه.

وترسم بعد ذلك أبو عامر خطى الشعراء الإسلاميين فعارض البحري في قصيدته كما ذكر في الذخيرة ” فخرج إلينا فتى على فرس أشعل، ويده قناة، فقال له زهير: إنك مؤتمنا، فقال: لا، صاحبك أشمخ مارناً من ذلك لولا أنه ينقصه؛ قلت: أبا الطبع على رسلك، إن الرجال لا تكال بالقفزان، أنشدنا من شعرك . فأنشد: قصيدته البائية“^١ ومطلعها:

ما على الركب من وقوف الركاب في معاني الصبا ورسم التصابي حتى أكملها،
ومنها

أين أهل القباب بالأجرع الفر دتولو؟ ألا أين أهل القباب
سقم جون أيخن ذات سقم وعذاب دون الثنايا العذاب^٢

فعارضه أبو عامر بقصيدته البائية ، التي مطلعها:

هذه دار زينب والر باب ، ومنها:

وارتكضنا حتى مضى الليل يسعى وأتى الصبح قاطع الأسباب
فكأن النجوم في الليل جيش دخلوا للكمون في جوف غاب
وكأن الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب^٣

١ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢٢٠

٢ ديوان البحري، ص ٨٣

٣ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٥٦، ٥٧ أيضاً الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢٢٠

ولكن الفرق بين القصيدتين من حيث المعنى فأبوعامر فيما ذكره من أبيات قصيدته يغفل كذلك بكاء الأطلال حين لم يذكر من أبياته سوى الشطر الأول ثم يأتي إلي الفخر بنفسه وبصحبه إلي إثنا عشر أبياتا ، أما البحري فبكاء الأطلال يستغرق منه الكثير حيث يعرج منه علي ذكر بعض ساعاته مع حبيبته ثم يفخر.

ثم بعد ذلك التقي أبوعامر بصاحب أبي نواس فقال فضرب زهير الأدهم بالسوط، فسار بنا في قنته ، وسرنا حتى انتهينا إلى أصل "جبل ديرحنة" فشق سمعي قرع النواقيس، فصحت: من منازل أبي نواس، ورب الكعبة العليا؛ فقالوا: أهلاً بك يا زهير من زائر، وبصاحبك أبي عامر، ما بُغيتك، قال: حسين الدنان. قالوا: إنه لفي شرب الخمرة، منذ أيام عشرة، وما نراكما منتفعين به. فقال لي زهير: اقرع أذن نشوته بإحدى خمرياتك، فإنه ربما تنبه لبعض ذلك، فصحت أنشد من كلمة لي طويلة:^١

ولرب حان قد أدرت بديره خمر الصبا مزجت بصفو خموره
في فتية جعلوا الزقاق تكاءهم متصاغرين تخشعاً لكبيره
وإلى علي بطرفه وبكفه فأمال من رأسي لعب كبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم ففتحت من عيني لرجع هديره^٢

فينتفض أبو نواس ويفيق وينشد أباعامر بعض قصائده الجياد في الخمر والمجون ثم يطلب إلي أبي عامر أن ينشد، وقال له "أوعث ولا تنجد" فينشد قصيدته الدالية في الخمر والمجون ومطلعها:

أصفيح شيم أم برق بدا أم سنا المحبوب أوري أزندا

ولكن نلاحظ في حوار أبي عامر مع صاحب أبي نواس أنه لم ينسج على منواله في قصيدة من القصائد التي أنشدها أبونواس أمامه، ولكن تقليد أبي عامر له في

١ رسالة التوابع والزوابع، ص ١٤١، ١٤٢

٢ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٨٥

أسلوب الجحون والخمر وتفصيل ساعات قضائها في حانة يشرب الخمر أو مع حبيب في ليلة من الليالي .. كل ذلك وأمثاله ترسم فيه أبو عامر خطي أبي نواس من حيث المعنى والأسلوب على الأقل.

وظهر لنا في هذا الباب قد حرص أبو عامر على ترسم خطي أهل المشرق بل وتقليده لهم، غير أن هذا التقليد قد لا يعدّ أمراً خطيراً وعبئاً كبيراً في شعرا أبي عامر لجملة أمور منها،
الأول:

في هذا الباب أن أبا عامر لا يترك المعنى التي يقلد فيها وغيره كما هي، ولكن أبا عامر أنه يحاول أن يجدّد صياغتها وأسلوبها بما يصبها من قوالب المجاز والاستعارة والتشبيه مما يجعلها كأنها المعنى الجديدة المبتكرة والمبدع، فبتأمل كثير من الأمثلة السابقة ثبت لنا أنه قد قلّد فيها مشرقيين، ولكن ذلك المعنى في ثوب جديد وأسلوب محبّب ومقبول، وأوضح مثل من ذلك معارضته لقصيدة البحري البائية، ولقصيدة إمري القيس وطرفة وقيس بن الخطيم وغير ذلك.

والثاني:

وهو أن هذا الرجل كان أصيل الملكة غزير التاج مرّ الشاعرية، فهو قد قال الشعر في أكثر الأغراض وخاصة الطبيعة والخمر والغزل، وهو لم يلزم اتجاه معيناً، وإنما سار في كل الاتجاهات حسب الأغراض والملابس والمواقف، وإن كان أميل إلى الاتجاهين المحدث والمحافظة الجديد، وليس معنى ذلك أنه كان حائل اللون عديم السمات، فقد كان شعرا بن شهيد ذاملامح مميّزة وقسمات دالة، كما اعترف ذلك الأديب الشهير أحمد هيكل.

”وله القدرة الفائقة على التصوير وربط الطبيعة بالنفس الإنسانية، وتناول القديم بطريقة جديدة، تلائم العصر والبيئة ومظاهر الحضارة، ثم الأخذ بأسلوب القص والحوار، والإكثار من الدعابة والفكاهة، وإجراء الشعر على السنة بعض

الحيوانات. كل ذلك مع إثارة لسهولة اللفظ ووضوح المعنى وبساطة التركيب
وإيضاح الموسيقى.^{١٤}

فمن شواهد قدرته الفائقة على التصوير. قوله في سهولة لفظ وبساطة معنى وخفة
روح: فقوله.

سهر الحيا برياضها	فأسألهما والنور نائم
حتى اغتدت زهراتها	كالغيد باللج العوائم
من ثياب لم تبيل	كشفت الحدود ولا المعاصم
وصغار أبكار شكت	نحجلاً فعادت بالكمائم
ورد كما نحجت خدو	د العين من لحظات هائم
وشقيق نعمان شكت	صفحاته من لطم لاطم
وغصون أشجار حكمت	رقص المآثم للمآثم
بكر الحسان يردفها	من كل واضحة الملاغم
وضحك عجباً فالتقت	فيها المباسم بالمباسم
ضحكت وأومض بارق	فظللت للبرقين شائم ^٢

ومن شواهد براعته الفنية في الربط بين الطبيعة والنفس الإنسانية ، قوله من
قطعة رائعة التصوير أيضاً، حيث يبدأ بوصف الطبيعة فيقول:

تردد فيها البرق حتى حسبته	يشير إلى نجم الربى بالأنامل
ربى نسجت أيدي الغمام للبسها	غلائك صفراً فوق بيض غلائل
سهرت بما أرعى النجوم وأنجماً	طوالع للراعين غير أوافل
وقد فغرت فاهما بما كل زهرة	إلى كل ضرع للغمامة حافل
ومرت جيوش المزن رهواً كأنها	عساكر زنج مذهبات المناصل

١ الأدب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، ص ٣٨٢، ٣٨٣

٢ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ١٢٣

وحلقت الخضراء في غر شهبها كلجة بحرٍ كللت باليعال
 تخال بها زهر الكواكب نرجساً على شط وادٍ للمجرة سائل
 وتلمح من جوزائها في غروبها تساقط عرش واهن الدعم مائل
 وتحسب صقراً وافعاً دبرانها بعش الثريا فوق حمر الحواصل
 وبدر الدجى فيها غديراً وحوله بنجوم كطلعات الحمام النواهل
 هذا هو التفصيل الموجز لشعر أبي عامر، والآن أبين قادمًا عن ميزات شعره
 الفنية، لكي نعلم ما كان خصائصه الذي نال بها شهرة عظيمة،

مميزات شعره الفنية

ونستطيع بعد ما تحدثنا عن شعر أبي عامر أن نلقى الضوء على خصائصه العامة.
الأولى:

وهي ظاهرة التقليد أو المعارضة لشعراء كثيرين بارزين في المشرق وبهذا يكون شعر أبي عامر جزء من شعر الأندلس عامة، الذي نجد فيه هذه الظاهرة الواضحة ظاهرة التقليد لشعر المشرق، منذ عصوره الأولى حتى القرن الخامس علي الأقل، ولا نجد بذلك أبا عامر قد شذّ عن معاصريه الأندلسيين، بل نجده قد أغرق في الاقتداء بأهل المشرق حتى لم واحداً منهم اشتهر في فن أو عدة فنون إلا وعارضه في قصيدة أو عرض عليه نماذج من شعره طالبا إجازته.

والثانية:

هي ظاهرة عامة أخرى، نلاحظها في شعر أبي عامر وهي حرصه على الصناعة اللفظية وحشر المزيد من صور البيان والبديع والمعاني في أغلب قصائده، ولعل من أهم أسباب لك ميله إلى النثر والصنعة في شعره إذاً يمكن أن تعد جزء من الظاهرة الأولى ذلك أن أبا عامر اقتدى بإبني تمام واعترف بأنه أستاذه. ثم وضعه في طبقة أصحاب التجنيس واعتبره زعيماً لأهل الصناعة في الشعر كما نجد في مقابلته لصاحب أبي تمام في التوابع.

ولكننا لا نجد هذه الصنعة في شعر أبي عامر متكلفة ثقيلة دائماً فهي لا تحلو من ملامح الجودة أحياناً مثل قوله في تصوير همومه وأحزانه. كما قال:

كأن الدجى همّي، ودمعي نجومه تحدرّ إشفاقاً لدهر الأراذل
هوت أنجم العلياء إلا أقلّها وغين بما يحظى به كل عاقل^١

فهذه الصورة وأمثالها علي قلتها أوضحت قدرة أبي عامر علي تأليف الصور بجمع أوجه الاستعارة والكناية والتشبيه في شعره، كما زادت المعني جمالا ورقة،

ولكنّها كما قلنا قليلة إذا قيست إلى أوجه الصنعة الأخرى التي بدى التكلف فيها
واضحا من جهة وافقد المعنى كثيرا من أوجه جماله من جهة أخرى.
ومن ميزاته الشعرية هي اقتباسه من القرآن الكريم وخاصة في شعر المرض حيث
نجد في فصيدته الدالية ألواناً متعددة من هذا الاقتباس مثل قوله :
ومطلعها:

يا صاحبي قم فقد أطلنا أنحن طول المدى هجود
حتى قال.

كل كأن لم يكن تقضى وشؤمه حاضر عتيد^١
يا ويلنا إن تنكبتنا رحمة من بطشه شديد^٢
”بطشه شديد“ ”حاضر عتيد“: وهي مأخوذ من ”سوة البروج“ ومن سورة
”ق“ من القرآن الكريم.

وهكذا قد لاحظته كثيرون من دارسي الأدب الأندلسي من المحدثين هذه
الحقيقة في شعر أبي عامر خاصة، والأندلسيين عامة. يقول أحد الباحثين في كلامه
عن شعر أبي عامر :

”كان الشعر في بيت أبي عامر عريق الأصول متشعب الفروع“^٣

أي مقبول مستساغ.

ويرى باحث آخر في أسلوب أبي عامر:

”أنه سلس العبارة جذاب لما فيه من الدعابة والرقّة في موضوعات اللهو،

وأكثره مقبول خال من الفحش والهجر“.

وقال المؤرخ الشهير فؤاد أفرام البستاني عن لغته الأبيات:

١ نفس المصدر، ص ٦٧

٢ دائرة المعارف للبستاني، ص ٢٧٢ ج ٢

انعكاسات الصنائع اللفظية والمعنوية في شعر أبي عامر

إن أبا عامر نظم في أكثر أغراض الشعر المعروفة، ونريد هنا أن نوضح قيمة الأفكار والمعاني التي ضمنها أبو عامر شعره في مختلف هذه الأغراض، وإذا جئنا إلى هذه المعني وجدنا الكثير منها غير جديد ولا مبتدع فالممدوح شجاع كريم ورث المجد عن آبائه وأجداده، وكل هذا من المعروف المتداول ومثل هذا يقال في الأغراض الشعرية الأخرى.

على أن أبا عامر لا يترك المعني السهل المعروف هكذا وإنما يجعله ملازماً لخاصتين مميزتين: أولهما :

الخيال : أما الخيال فإنه يستغرق المعاني حتى ليكاد يخرجها عن أصولها الحقيقة فتبدو افكرة جديدة، ومعنى مبتدع ذلك ما لاحظته الفاخوري في دراسته لابن عامر وشعره حيث قال :

”شعر أبي عامر يجنحه خيال واسع“^١

غير أن هذا الخيال يتباين قوة وضعفا حسب الأغراض عند أبي عامر، وأكثر ما نجد الخيال مستعملاً على نطاق واسع في شعر أبي عامر الوصفى، حيث مكّنه خياله الواسع وقدرته على التصوير وإبراز المعاني بأساليب جديدة، مكّنه ذلك من إخراج قطع وصفية لا تخلو من ملامح الدقة والبراعة وأن كانت متناثرة في القصائد متفرقة في البيتين أو الثلاثة أبيات، من ذلك الصورة التي يعرضها لنا عن همومه وتكاثرها وكثرة دموعه المنهمرة في الليل حيث تضاف ظلمته الحالكة إلى ثقل الهموم وتراحمها.

كأن الدجى همي ودمعي نجومه تحدر إشفاقاً لدهر الأراذل
هوت أنجم العلياء إلا أقلها وغبن بما يحظى به كل عاقل
وأصبحت في خلف إذا ما محتهم تبينت أن الجهل إحدى الفضائل^٢

١ تاريخ الأدب العربي، ص ٨٤٠ للفاخوري

٢ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ١١١

”حفلت أشعاره بالرواسم الجمّده، والجمل المتداولة، فكان فيها مشترك الفكر والخيال والتعبير“.

ومميزات شعره أخرى:

وهي إنعدام وحدة الموضوع والاقتصار على وحدة البيت دون القصيدة وهذه صفة لازمت الشعر العربي في أغلب عصوره وفنونه، وهكذا لا نجد في قصيدته الواحدة فقط غرضاً واحداً بل نجد أغراضاً متعددة، فكثيراً ما يجمع أبوعامر الغزل إلى الفخر إلى المجون إلى المديح كما نجد في قصيدته الهائية:

هاتيك دارهم فقف بمعانها تجد الدموع تجد في هملانها
عجنا الركاب بها فهيج وجدنا دمن ذعرن السرب من أدمانها
دار عهدت بها الصبا لي دوحة أتفياً الفرحات من أفنانها
أرعي على بقر الأنيس بجوها وأحكم الصبوات في غزلانها
وإذا تهادت بالشموس نواعماً فيها الغصون جنيت من رمانها
قضت النوى بذياد رجح عينهم ظنماً وكان الدهر من أعوانها
رجروا اغتراباً من نعيب غراها وقضوا بين من مغرد بانها
فبدا لهم وجه الفراق موقحاً آت على خبر النوى بعيانها
يقذفن در الدمع في يوم النوى عن حمة لعب الأسى بجمانها
ودعتهم وبنات قرح في الحشا دون الضلوع تشب من نيرانها^١

فأنا نلاحظ يبدأها بمقدمة طيلة علي طريقة القدماء، ثم لم يلبث أن ينتقل إلى

قليل من الغزل ثم إلى الفخر ثم إلى المجون، ثم يغادره إلى المديح.

فنعلم أن أبيات أبي عامر جزء من أدبه عامة، كما كان جزء من مجتمعه وبيئته خاصة، وجزء من الشعر العربي والشعر المشرقي فيها كثير من سماته العامة وميزاته الواضحة البارزة.

فالمعني الأصلي معروف مشهور وهو كثرة السهاد لكثرة الهموم من دهر كثير فيه الخبث وساد الظلم.

ونجد في شعر أبي عامر الوصفي صوراً أخرى في معان هي أقرب إلى الهزل والطرافة منها إلى الجدّ والصرامة، تلك هي قطعة الوصفية في البرغوث والنحلة وغير ذلك :

ومن وصفه للبرغوث يقول:

ومنفر للنوم مسكنه إذا	نام المملك بين أثناء الثياب
يسري إلى الأجسام يهتم عدوه	عن كل جسمٍ صيغٍ بالنعى حجاب
ويعض أرداف الحسان وماله	كف ولكن فوه من أعدى الحراب
متحكم في كل جسم ناعم	متدلل ما بين الحاظ الكعاب
فإذا هممت بزجره ولى ولا	يثنيه عما قد تعود طـلاب
وترى مواضع عضه مخضوبة	بدم القلوب وما تعاوره خضاب
قرم من الليل البهيم مكور	يمشي البراز وما تواريه ثياب ^١

ومع أن البرغوث هذا الحيوان الحقير قد لا يعد وصفه ذاقمة، لكن أبا عامر بتصويره وخياله عبر عن حقيقته بأسلوب مقبول ومستساغ.

وكذلك نجد في أبياته من قصيدة يمدح فيها أبا عامر بن المظفر، الجناس وهي قسم من الصناعة اللفظية ، ”الجناس معناه تشابه اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى“^٢ كقول أبي عامر:

جمعت بطاعة حبك الأضداد وتألف الأفصاح والأعياد
كتب القضاء بأن جدك صاعد والصبح رق والظلام مداد^٣

١ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٥٩

٢ البلاغة الواضحة، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣

٣ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٦٦

ففي هذه الأبيات الألفاظ الأضداد، والأعياد، وصاعد، ومداد، وهي تشابه في النطق فقط واختلاف في المعنى.

وكذا أراد أبو عامر التعبير عن أن ممدوحه سليل المجد والكرم ينحدر إليه من الأجداد المشهورين بأيامهم وانتصاراتهم، ووجوههم المشرقة. وقال:

أنجته للمعالي أسرة نزلوا للمجد أعلى الرتب

بنفوس من سناء غضة في جسوم بضة من حسب

ووجوه مشرقات أومضت ضاحكات في وجوه الكرب

لهم أيام حربٍ كثرت في عداهم داعيات الحرب^١

وهذه صورة تعبر عن معاني الكرم والمجد والاباء بتصوير لا يخلوا من البراعة، على أن هذه الصورة اعتمد فيها أبو عامر على الصنعة اللفظية، فحشرفها على عاداته، ألوانا من الجواز والاستعارة والتشبيه حتى كادت الأبيات تخرج عن معنى المديح إلى الوصف وخاصة في البيتين الآخرين،

وكذلك إذا أراد أبو عامر يجرّد الحبّ ويفرد له وصفا مستقلاً متميزاً أحيانا فإنه لا يستطيع الوصول إلى ذلك إلا بمزيد من الصنعة اللفظية وحشر الصور البلاغية الكثيرة من مثل قوله،

سقياً لطيب زماننا وسروره وغرير عيش مسعف بغيره

وتكفري برداء وصل مقرطق كتبوا بنقس المسك في كافوره

متلفع بحريه متضمخ بعبيره مترنح بفتوره

وسنان ناولني مدامة طرفه فشربتها وسمعت من طنبوره

يدعو بلكنة بربري لم يزل يستف بالصحراء حب بريره

متقدم بمضائه متلفع بردائه متكلم في عـيره^٢

١ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٥٤

٢ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٨٣

ولا يخفى ما يلاحظ على هذه الأبيات من صناعة لفظية ومعنوية متكلفة إلى حد بعيد، تمثل في الحرص على الإغراب في الألفاظ وثقل بالقافية الهائية المسبوقة براء مكسورة وتزاحم في صور البديع والبيان، هذا إلى جانب ما يلاحظ على البيتين الثاني والثالث من حسن التقسيم، حيث احتوى علي ثلاثة أقسام: متلفع بحريه، متضمخ بغيره. مترنح بفتوره.

وكذا نجد "السجع" في أبياته كما قال ابن شهيد من خمريه نسجها علي منوال أبي نواس.

ولرب حان قد أدرت بديره خمر الصبا مزجت بصفو خموره
وإن في لفظتين "بديره وخموره" نجد توافق الفاصلتين في الحرف الأخير يقال في علم البديع "السجع"^١

وهكذا استعمل أبو عامر الاقتباس من القرآن الكريم، ونجد أحيانا ألفاظا فقهية أودينية في بعض أبيات شعر أبي عامر وذلك من مثل قوله :
سمعت يابنها تبتغي متراً لوصل التبتل والانقطاع^٢
حيث استعمل لفظي التبتل والانقطاع وهما من اصطلاحات العبادة والتقرب إلى الله في الإسلام .
ومن ذلك قوله:

وناقل فقه لم ير الله قلبه يظن بأن الدين حفظ المسائل^٣
وكذلك استعمل هنا بعض المصطلحات المتعلقة بالفقه كلفظة "الفقهة" نفسها ولفظة "المسائل" والمقصود بها المسائل الفقهية. يقال كل هذا الاقتباس هو أيضا من قسم "البديع".

١ البلاغة الواضحة ، ص ٢٧٣

٢ ديوان ابن شهيد الاندلسي، ص ٩٣

٣ نفس المصدر ، ص ١١٢

وفي هذه الأبيات التالية الصنائع اللفظية والمعنوية بحيث أن الشاعر يمزج بين الحب والفخر بأسلوب فيه عذوبة ورقة وقد ألفنا الحب يطغى على كل شئ عند الشعراء فإذا مارسوه نسوا في وقته على الأقل ، كل ما سواه.

أما أبو عامر فإنه يتذكر كرمه عند تألمه من الحبّ وحزنه الشديد من البعد فيبقى حائراً بين الإثنين ويكفيه من إثنين أحلاهما مرّاً ، لا يستطيع ترك الحب ولا يطيق ترك الكرم والسخاء. أبياته:

ألمت بالحب حتى لو دنا أجلي لما وجدت لطعم الموت من ألم
 وذادني كرمي عمن ولّيت به ويلى من الحب أو ويلى من الكرم
 تخونني رجال طالما شكرت عهدي وأثنت بما راعيت من ذمم
 لئن وردت سهيلاً غب ثالثة لتقرعن عليّ ألسن من ندم

ونجد في أبياته قسم من المحسنات المعنوية وهي "التورية" التورية هي أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان ، فقوله:

فقلت : إلى ذات الدخان ، فقال لي : وهل عرفت نار بغير دخان.
 وكذلك التشبيه من علم البيان فقوله.

وعممّ صُلع الهضب من قطر ثلجة يدان من الصبر تبتران
 ففي البيت الأول "ذات الدخان" هي لقب من ألقاب الممدوح
 "والدخان" في شطر الثاني هو "دخان" الذي يرفع من النار.

الباب الرابع

إبن شهيد كاتبا

- تطور النثر العربي في الأندلس
- الرسائل الفردية، والملوكية
- مساهمة إبن شهيد في تطور النثر الفني
- موضوعات نثر رسائله
- خصائص رسائله الفنية
- رسالة التوابع والزوابع- والقصة العربية
- إبن شهيد ناقدًا

تطور النثر الفني العربي في الأندلس

ومن المعلوم قد انتشر الإسلام بسرعة فائقة بين سكان شبه الجزيرة انتشرت اللغة العربية كذلك على نطاق أوسع بين سكان هذه البلاد، وعاشت في الأندلس نحو ثمانية قرون ، وتأثر بتلك البيئة التي عاش فيها، وأثر في بثيته وفيما جاورها من بيئات، وقد كان العرب الوافدين على الأندلس في شكل موجات كبيرة، أثر كبير في نشر اللغة العربية، وأول محاولتهم من هذه الخصائص ما يتصل بالناحية الصوتية، وقد كان منها ما يتصل باستعمال الألفاظ، كما نطق الأندلسيين للقاف قريبة من الكاف^١ وغلبة الإمالة عليهم^٢ ومما يتعلق باستعمال الألفاظ، اشتقاقهم لكثير من الكلمات، واقتراضهم أخرى، ثم تخصيصهم لأسماء هي في الأصل لمسميات عامة، وتعميمهم لأخرى هي في حقيقتها لمدلولات خاصة، وربما كان هذا الجانب المتصل باستعمال الألفاظ هو أبرز الجوانب التي تميز عربية الأندلس بعض التمييز. فقد كانت لهم ألفاظ خاصة كثيرة، منها ما يختص بالإدارة وشئون الحكم ، ومنها ما يتعلق بالزراعة ورى الأرض، ومنها ما يرتبط بالبناء ووسائل العمران، وغير ذلك، فمما يختص بالإدارة وشؤون الحكم، إطلاقهم كلمة "الوزير" على كل من يجلس الخليفة أو الملك ويعتبر من خاصته، وإن لم يشغل هذا المنصب الرسمي المعروف، وإطلاقهم كلمة "الحاجب" أو ذى الوزارتين على من يكون فن هذا المنصب الوزاري الرسمي خاصة^٣ ومما يتصل بالإدارة وشؤون الحكم كذلك إطلاقهم كلمة "خطة" على ما يعرف بالإدارة، فهم يقولون، "خطة الشرطة" و "خطة القضاء" و "خطة السوق". بمعنى الإدارات المسؤولة عن تلك الشؤون، ومما يتصل بذلك أيضا إطلاقهم كلمة "المسدد" على حاكم البلدة الصغيرة ، وكلمة "الدرب" على حارس الدرب.

^١ نفح الطيب، ج ١، ص ٥٩٢، ٥٩٣

^٢ الإحاطة، ج ١، ص ٣٥

^٣ نفح الطيب، ج ١ ص ١٠١

ومما يتلق بالزراعة والريّ، إطلاقهم كلمة ”المجشر“ على الضيعة، وقد أخذوا الكلمة من المجشر وهو القوم الذين يخرجون إلى المرعى بدواهم ويبيتون مكانهم، وإطلاقهم كلمة ”الوادي“ على النهر خاصة ، والكلمة في الأصل لكل منخفض من الأرض بين جبال أو تلال ومن هذا القبيل كذلك تخصيصهم كلمة ”باكور“ بما بكر من التين ، وإنما الكلمة لكل ما بكر من الثمار وغير ذلك.

وليس المراد حصر تلك الألفاظ الأندلسية ولا بيان أصولها، وإنما المراد فقط إيضاح كيف تميزت عربية الأندلسيين عن عربية الأقاليم الأخرى بعض التمييز. فهذه حالة الجزيرة من حيث اللغة، ولا شك أنه يضاف إلى ذلك إقبال أهل شبه الجزيرة أنفسهم على اللغة العربية، لا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم، نظرا لكونها لغة الحضارة الغالبة والعلم المتفوق، ولسان الممتازين ذوى السلطان، ولا أدل على مدى انتشار اللغة العربية في عصر مبكر بين المسحيين أنفسهم، من تلك الشكوى التي أطلقها أحد ”قساوستهم“^١ اسمه ”الفرو“ القرطبي (ت ٢٤٠هـ) ALVORO، CORDOBES حيث يقول:

”إن إخواني في الديني يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين، لا ليردّو عليها وينقضونها، وإنما لكي يكتبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وأين تجد الآن واحدا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحوارين، وآثار الأنبياء والرسل؟ يا للحسرة!! إن هؤلاء الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها، وهم ينفقون أموالا طائلة في جميع كتبها، ويفخرون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جدية بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في إزدراء بأنها غير جدية بأن يصرفوا إليها انتباههم، يا

^١ قساوسة، معناه الراهب الكبير

للألم!! لقد أنسى النصارى حتى لغتهم فلا نكاد تجد في الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتابا سليما من الخطأ، فأما عن الكتابة في لغة العرب ، فإنك واجد منهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب منمّق بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنّا وجمالا.^١

هكذا زحزحت العربية اللاتينية عن عرشها في شبه الجزيرة كما زحزح الإسلام المسيحية أيضا، وبهذا صارت العربية اللغة الرسمية للبلاد، كما صار الإسلام دينها الرسمي كذلك.

ثم تبدأ فترة الولاة وهي فترة المنافسة على الولاية والمنازعة في السلطة، بين العرب والبربر أولا، ثم بين العرب أنفسهم قحطانيين وعدنانيين ثانيا، وأن هذه الفترة عرفت بعض النافرين وكان لها حظ ولو ضئيل من النشر، بل ربما كان هذا الحظ على ضآلته أوفر من حظ الشعر، ذلك أنه كانت هناك دواعي النشر أكثر من دواعي الشعر، فالخطابة كانت ضرورة تقتضيها ظروف الحرب والتراع القبلي^٢ وتتطلبها مناسبات سياسية ودينية مختلفة، ولا يمكن أن نتصور المسلمين في الأندلس قد عاشوا فترة الولاة دون أن يصغوا إلى خطباء، فهم على الأقل كانوا يستمعون إلى هؤلاء الوعاظ والدعاة الذين كانوا عادة يصحبون الجنود ويفدون على الاقاليم الجديدة ليشبثوا المقاتلين، ويدعو للنظام الجديد،^٣

أما الخطابة : فهي فن الوصول إلى قلوب الجماهير وإقناعهم عن طريق التأثير العاطفي بكلام بليغ وموجز، واستخدمت في الدفاع عن القوم أو التحريض على القتال ونصرة الضعيف واستخدمها الملوك في رسائلهم وفي المناسبات الاجتماعية المختلفة وغير ذلك،

^١ تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٨٦، ٤٨٥، د\الحسين مؤسس

^٢ البيان المغرب، ج ٢، ص ٥٠

^٣ تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٨٤ ، ١٨٥

وكانت الخطابة في تلك الفترة تتميز بالوضوح والإيجاز والبعد عن التكلف، لأن الخطباء من الولاة والأمراء والقادة كانوا عرباً مطبوعين على الخطابة والارتجال، لكن عند ما استقرت الأمور ومال الناس إلى العيش والترف، ضعفت الخطابة الأندلسية، ولكن الخطابة الدينية ازدهرت بفضل العلماء، الذين كانوا يجيدون الخطابة، كالفاضي منذر بن سعيد البلوطي (٢٦٥هـ). وعند ما عادت الأندلس إلى عصر الاضطراب والحروب في عهد ملوك الطوائف والمرابطين والمؤحدين كانت الملكة العربية قد ضعفت، فلم تزدهر الخطابة من جديد مع وجود دواعي الازدهار، (وهي النزاع بين أمراء الأمويين ثم بين رؤس البربر) بل دخلها كثير من الصنعة اللفظية، وامتألت بالسجع الثقيل، فضعفت، ولم يعد لها تأثير يذكر، وأشهر خطباء الأندلس، طارق بن زياد، فاتح الأندلس، والأمير عبد الرحمن الداخل.

فمن أمثلة خطبة عبد الرحمن الداخل (١١٣هـ)، ما قاله لأصحابه يحثهم على القتال يوم خاض المعركة الفاصلة ضد يوسف الفهري، آخر ولاة الأندلس، قال عبد الرحمن:

”هذا اليوم هو أس ما يبني عليه، إما ذلّ الدهر وإما عزّ الدهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تربّحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون“^١

فبعد الخطابة ازدهرت الكتابة الأدبية في الأندلس، والكتابة كانت كذلك ضرورة تقتضيها ظروف الفتح والحكم وتسيير الشؤون، وتتطلبها أيضاً مناسبات رسمية وشخصية عديدة، وكانت أسلوبها يتسم بالوضوح والبعد عن التكلف والصناعة اللفظية، ثم هبّت رياح الصناعة اللفظية والتكلف من المشرق على الأندلس، فوجد من كتاب الأندلس من قلّد ابن العميد والصاحب بن عباد، وغير ذلك، ويمكننا أن نقسّم الكتابة الأدبية إلى عدة أقسام: الأول:

الرسائل:

هي صنف نثرى من قديم قد استعملت، لتوطيد العلاقات بين الدول الأخرى، إذ نرى الكتاب يتحوّل برسائلته في المودة والإخاء أو في العتاب أو في الرثاء أو حاجة الخلفاء إلى مراسلة ولائهم، وهى نتيجة لامتزاج الثقافة بالثقافات الأجنبية الأخرى، ولكن حينما نطالع التاريخ الجاهلي، لم نجد فيها رسائل خاصة، كما قال الدكتور شوقي ضيف:

”وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدلّ على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية خاصة، وتداولوها، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة، فقد عرفوها، غير أن صعوبة رسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الشعرية والنثرية“^١

وفي الدولة الإسلامية:

هو فن نثري ظهر جديدًا مع ظهور الإسلام واتسع باتساع الدولة الإسلامية وكانت الحاجة ملحة إلى استخدام الرسائل وذلك لرغبة النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة ملوك العالم إلى الدين الجديد، فتميّزت الرسائل في عصر صدر الإسلام بالوضوح التام والإيجاز والبعد عن التكلف، وقد انقسمت الرسائل في تلك الفترة إلى رسائل عامة وخاصة وكان لكل منهما صفات ومميزات تميزت بها عن الأخرى، على عكس الرسائل الخاصة التي امتازت بالإطناب وانتقاء الألفاظ وروعة التصوير وبراعة الخيال.

الرسائل الديوانية:

وهي الرسائل الرسمية التي تصدر من ديوان الخليفة أو والى إلى ولاية الأقاليم أو قادة الجيوش أو إلى الأعداء الخارجين على السلطة، وتشتمل أيضا الرسائل السلطانية، وكان الخلفاء يختارون كبار الأدباء إلا أنها تتعلق بالأمور الرسمية، ولذلك

^١ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، ص ٣٩٨، لشوقي ضيف

فإن الخيال والإبداع الأدبي فيها محدود، ومن كتاب الرسائل السلطانية ابن زيدون، وابن برد الأصغر، وغيرهما.

نماذج من الرسالة السلطانية، كما دار بين الفقيه أبي إبراهيم والأمير الحكم بن عبد الرحمن الناصر، وكان الفقيه قد دعى إلى حفل رسمي بالزهراء فتخلف فغضب الخليفة وأمر ابنه الحكم بالكتابة إليه في ذلك، فكتب،

”بسم الله الرحمن الرحيم، حفظك الله وتولاك، وسددك ورعاك، لما امتحن أمير المؤمنين مولاي وسيدي - أبقاه الله - الأولياء الذي يستعدّ بهم وجدك متقدماً في الولاية، متأخراً عن الصلة، على أنّه قد أُنذرك - أبقاه الله - خصوصاً للمشاركة في السرور الذي كان عنده، لا أعدمه الله توالي المسرة، ثم أُنذرت من قبل إبلاغاً في التكرمة، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المَعذرة، واستبلغ أمير المؤمنين في إنكاره ومعاتبتك عليهن فأعيت عليك عنك الحجّة، فعرفني - أكرمك الله - ما الذر الذي أوجب توقّفك عن إجابة دعوته، ومشاهدة السرور الذي سرّبه وغب المشاركة فيه، لنعرّفه - أبقاه الله - بذلك، فتسكن نفسه العزيزة عليه إن شاء الله تعالى“ فأجابه أبو إبراهيم:

”سلام على الأمير سيدي ورحمة الله، قرأت - أبقى الله الأمير سيدي - هذا الكتاب وفهمته، ولم يكن توقّفي لنفسي، إنّما كان لأمر المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه، لعلمي بمذهبه، وسكوني إلى تقواه، واقتفائه لأثر سلفه الطيّب رضوان الله عليهم، فإنّهم يسبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يشينها، ولا بما يغض منها نظرك إلى تنقيصها، يستعدون بما لديّهم، ويتزيّنون بما عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصّدهم، فلهذا تخلفت، ولعلمي بمذهبه توقفت، إن شاء الله تعالى.“^١

^١ نفح الطيب، ج ٢، ص ١٧٥، ١٧٦

والثاني: الرسائل الإخوانية:

وهي الرسائل التي تدور بين الإخوان والأصدقاء للتهنئة أو إظهار الودّ، أو الشوق، أو الشكر، أو العتاب، وللأدباء الأندلس رسائل إخوانية كثيرة، أجادوا فيها وأبدعوا، منها القصير ومنها الطويل، الذي يستوعب عدة صفحات، ومن أشهر كتاب هذا النوع من الرسائل، ابن زيدون، والفتح بن خاقان، وابن برد الأصغر، فمن النماذج رسالة في عتاب الصديق لابن برد الأصغر، قوله:

”خليت عنه يدي، وخلدت قللاه خلدي. بيض الأنوق من رفده أمكن، وصفا المشقر من خده ألين. متزور النوال، رث الفعال. أحاديث وعده لا تعود بنفع، ولا هي من غرب ولا نبع.“ مطمح الوجه، مهراق ماء الحياء، مظلم الخلق، دبوري الريح، مقشعر الوجه“^١

ثم بعد تطوّر من النوع النثر الفني وهي المناظرات.

المناظرات:

المناظرة وهي فن يهدف الكاتب بها إظهار مقدرته البائية وبراعته الاسلوبية وقد أجاد الأندلسيون في المناظرات الأدبية والمفاضلة بين الأشياء الواقعية كالمفاضلة بين المشرق والأندلس، أو بين مدن الأندلس كقرطبة وطليلة.

والثانية الخيالية:

كالمناظرة بين السيف والقلم، وبين أنواع الورود أو الفواكهة، وللمناظرات الأدبية ميدان فسيح للإبداع، وقد أكثر الأندلسيون من عقد المناظرات والمقارنات بين الأندلس وبلدان المشرق دفاعاً عن بلدهم ضدّ من اتهم الأندلس بالتقليد والتّبع للمشرق في كل شيء، كما فعل الإمام ابن حزم في كتابه ”فضائل الأندلس“ ومن المناظرات الخيالية التي عقدها ابن برد الأصغر بين السيف والقلم.

^١ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، ص ٣٩٨، لشوقي ضيف

”رسالة في السيف والقلم وكتبها إلى الموفق أبي الجيش مجاهد، يقول فيها:
 أما بعد حمد الله بجميع محامده وثنائه، والصلاة على خاتم أنبيائه، فإن التسابق من
 جوادين سبقا في حلبة، وقضيين نسقا في تربة؛ والتحاسد من نجمين أنارا في أفق،
 وسهمين صارا على نسق؛ والتفاخر من زهرتين تفتحتا من كمامة، وبارقتين توضحتا
 من غمامة، قاما يتباريان في المقال، ويتساجلان في الخصال، ويصف كل واحد منهما
 جلال نفسه، ويذكر فضل ما اجتني من غرسه، ويبأى بمنقبة نافرت السها، ومرتبة
 روضة خيسها، ورياسة من ذوائب الجوزاء صادها، ونباهة في صهوة العيوق أفادها.
 فقال: ها، الله أكبر! أيها المسائل بدءا من يعقل لسانك، ويحير جنانك، وبديهة تملأ
 سمعك، وتضيق ذرعك. خير الأقوال الحق، وأحمد السجايا الصدق. والأفضل من
 فضله الله عز وجل في تزييله، مقسماً به لرسوله، فقال: ”ن. والقلم وما يسطرون“.
 (القلم: ١) ، وقال: ”اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم“ (العلق: ٤) فجعل من
 مقسم، وعز من قسم، فما تراني، وقد حللت بين جفن الإيمان وناظره، وجلت بين
 قلب الإنسان وخاطره لقد أخذت الفضل برمته، وقدت الفخر بأزمت.

فقال السيف: عدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة إلى
 وصف الملة، لا أسر ولكن أعلن، قيمة كل امرئ ما يحسن. إن عاتقاً حمل نجادي
 لسعيد، وإن عضداً بات وسادي لسديد، وإن فتى اتخذني دليله لمهدي، وإن امرئاً
 صيرني رسيه لمفدي؛ يشق مني الدجى بمصباح، ويقابل كل باب بمفتاح. أفصح
 والبطل قد خرس، وأبتسم والأجل قد عبس؛ أقضي فلا أنصف، وأمضي فلا أصرف؛
 أزري بالوفاء، وأهتك الأمة هتك الرداء.^١

وكذا ازدهر بعده من النثر الفني وهي فن المقامات.

المقامات

^١ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، ص ٤٦٠ لشوفي ضيف

اللفظ ”مقامة“ جمعها مقامات ، معناه الخطبة والعظة ، والرواية التي تلقى في مجتمع الناس، المقامة وهي نوع من الشرافة نشأ في الأندلس على يد أبو طاهر محمد التميمي السرقسطي (ت ٣٧٢هـ-)، تحدثنا عن المقامات عن دراستنا للأدب العباسي، ونشير هنا إلى أن الأندلسيين قلّدوا المشاركة في فن المقامات فكتبوا مقامات عديدة ولكنها لم تنل شهرة مقامات بديع الزمان الهمداني ولا الحريري، ومن كتّاب المقامات في الأندلس، أبو حفص عمر الشهيد، أبو الحجاج القضاعي، وأبو الطاهر محمد التميمي السرقسطي، و أبي محمد بن مالك القرطبي. فمن النماذج من مقامة أبي محمد بن مالك القرطبي:

”كان أبو محمد يعيش زمنا بالمرية في ظل ابن صمادح على فقر بالغ، وبهذه المقامة خاطب ممدوحه المذكور، وقد اختار ابن بسام أيضا فصولا منها. والفصول الأولى منها كلها مدح وثناء على ابن صمادح وإعلان عن فرحة الكاتب واستبشاره بدولته، وتتصل المقامة بوصف يوم من أيام المعركة أو الاستعداد لها، ثم يصف ظهور ابن صمادح ”حتى لاح لنا من ملك الأملاك وثابت القمرين في الاحلاك وجه جلا هبوة ذلك العثير والعجاج إلا كدر“^١

وبعد ذلك عاد إلى وصف الجيش وأنواع الأسلحة فوصف الدرع والسيف والرمح وصفا مسهبا ووصف الخيل ذوات الألوان المختلفة من مبيض ومسود وورد وأصفر ومحجل، ثم تحدث عن مضاء رأي ممدوحه وعن استسلام عدوه:

”فرمى بيده صاغرا إلى السلم ثقة بعضو كظل المزنة الممدود، وكرم كشط اللخة المورودة، فلولا حلم كالجبال رصين، وجود كالسحاب هتون، لبادوا خلال تلك الديار كما بادت جديس في وبار، ونغلت تلك المنازل نغل الجلد، ومحت كما محت وشائع من برد“^٢

^١ تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص ٣١١

^٢ نفس المصدر، ص ٣١١

ثم وقف يؤنب الذين يغترون بفضل ممدوحه وكيف أنه حلیم لكنهم يخرجونه في حلمه وصوب رأي نفسه في قصده وزعم أنه لولا ذلك لكان له في الأرض العريضة مسارح ولكنه لن يستبدل سواه لأخلاقه التي خبرها فيه. فهو " ثالث القمرين وسراج الخافقين وعماد الثقلين المعتصم بالله (ذو) الرياستين " ثم يشكو حاله وكيف غادر زوجه وأولاده في حالة حاجة وعوز واعتذر عن عدم اشتراكه في الحرب معه بحاجة أولاده إليه. فقال:

”ولولا أفرخ كزغب القطا يدبون في نائله ديب الكرى فيستشفون علالي
ويستزفون بلالي لامتطيت من جدواه السابح العيوب وتقلدت من نداء الصارم
الرسوب“^١

عرفنا أن النثر في الأندلس في المرحلة الأولى تندفع نحو تقليد المشرق في عمله وأدبه، وكان هذا الاندفاع طابع الأقاليم العربية عامة، فهي جميعاً تتجه نحو الأم، نحو بغداد، تتغذى منها، وتستمد صفاتها وخصائصها، ومهما غربت وأبعدت عن بغداد، فلذا لا يظهر فيه كاتب كبير قبل القرن الرابع للهجرة، وذلك لسبب بسيط، وهو أن الشخصية الأدبية للأندلس لم تتكامل إلا في هذا القرن، وكان الناس قبل ذلك يكتبون نثرًا، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يرتفع بنثره إلى درجة تجعله يقف في صفوف كتاب العصر العباسي، كما قال شوقي ضيف:

”والحق أن الأندلس تبدأ نهضتها الأدبية منذ القرن الرابع، وعهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم، ذلك العهد الذي ألف فيه كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، وأملی فيه كتاب الأمالي، أملاه أبو علي القالي في قرطبة، ومنذ ذلك العهد المزدهر أخذت الأندلس تشعر بشخصيتها، وتحاول أن تصور هذه الشخصية في آثارها، ونماذجها الأدبية“^٢

^١ الذخيرة، ج ٢، ص ٧٤٧

^٢ الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص ٣٢١

مساهمة ابن شهيد في تطور النثر الفني وموضوعاته

مارس أبو عامر الجانب الثاني من التعبير العربي .(يعنى النثر) فكان له فيه باع طويل وآثار لا يستهان بها، دلت على مبلغ ثقافته ، وسعة إطلاعه في هذا الجانب الأدبي المهم، وقد طرق شتى الموضوعات مُظهرًا قدرته كما حاول إظهارها في الشعر، ويحتسب أنه قد وفق إلى حد كبير في النثر وربما فاق التوفيق الذي حاله في الشعر كما سنرى، والظاهر أن أبا عامر قد ترك تراثًا كبيرًا من النثر والرسائل كما يذكر ابن بسام فيقول.

”له رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال قصار وطوال برز فيها شأوه وبقاها في الناس خالدة بعده“^١

رسائل أبي عامر:

وأهم هذه الرسائل رسالة مطولة هي: فصول من رقعة خاطب بها المؤمن عبد العزيز بن عبد الرحمن أبي عامر (ت ٤٥٢ هـ)

كما يقول ابن بسام: وهذه الفصول -على ما يبدو- أجزاء من الرسالة المطولة التي أرسل بها أبو عامر إليه، وفي أول ما ذكره ابن بسام من هذه الرسالة تقرأ قول أبي عامر يخاطب المؤمن:

”لولا أن من العادة بين السادة والمسودين، والمالكة والمتملكين تطارح أدمة، وتدارس لطائف الحرمة، لأكبرته - أيده الله - عما أرغب ذكره، وأكرمه عما أطلب نشره“^٢

ثم يلي ذلك سرده لحادثتين من حوادث حياته في طفولته وصباه، يوضح فيها ما كان يتقلب فيه من نعيم وفضل في ظل المنصور بن أبي عامر وأهل بيته فيقول:

^١ الزخيرة، ق ١ ج ١، ص ١٦٢

^٢ الذخيرة، ق ١ ج ١، ص ١٦٤

”وأقل ما أمت به، وأنطق عنه، ممتد عنان الأمل، كارعاً في بحر الرجاء لا الوشل، من مواتي بالمنصور جده - رضي الله عنهما - أي نشأت في حجره، وربيت في قصره، وارتضعت ثدي كرائمه، واعتجرت رداء مكارمه؛ واغتذيت من فيه“^١.

وبعد ان يستعرض ما كان في تلك الحادثة، وحادثة التفاحة التي اعطاه إياها المنصور حين رآه ينظر إليها بكلف، يذكر بعد ذلك أنه لم يكن وحده الغارق في ذلك الفضل فإن أهله وأخوه به جميعاً كانوا كذلك، فقد انتزع المنصور أخاه موسى من أبيه وأحله محل بنيه،

”فاجتمعت الأفواه على الثدي، والتقت الشفاه على الدر المري؛ وقبضه الله إليه وقد رتع في مراتعكم“^٢

والقصد واضح من هذا التمهيد والاستطراد فيه، وهو ذكر قديم الصلة بين المنصور وأهله ثم سرد البراهين على هذه الصلة، وأخيراً يأتي إلى مقصده الأصيل وهو إثارة المؤمن وتحريك همته ليصل ما انقطع ويعيد العلاقات إلى ما كانت عليه من القوة والمحبة فيبذل ما يشاء ليبقى أبوعامر متقلباً في النعيم ولا يحرم من شيء اعتاده طيلة حياته، وإذا جاء أبوعامر إلى غرضه الأصيل هذا فإنه لا يلجأ إلى التلميح، إنما يذكر حجته بصراحة فيقول للمؤمن :

ومملوكك عاكف على الوطن، عكوف الراهب على الوثن، ولم يبق من النعمة غير مصاصة بلةٍ قد آن لها أن ترتشف، وتفاهة ثمرة حان لها أن تحترف؛ وعرج لمآله، والنظر لعاقبة حاله، على استخراج ما يمكن من أصول نعمتكم، ليصون بها جمّة وجنته، ويفر عليها.

^١ الذخيرة، ق ١ ج ١، ص ١٦٣

^٢ نفس المصدر، ق ١ ج ١، ص ١٦٢

نطفة صفحته، إذ لا سبيل إلى التعرّيج على غير ذلك قطعاً، ولا إلى الالتباس بسواه حتماً، ولو لحس التراب، وذاب في الثياب^١.

وهنا أبو عامر الكاتب المتكسب الذي لا يستطيع الاستغناء عن الأمراء ورعايتهم وعطاياهم، وإذا كانت الحاجة هي التي دفعته - كما يذكر - وأنه لم يبق عنده شيء غير مصاصة بلة.. مع حرصه على ذكر عدم استطاعته أن يمدّ يده إلى غيره أياً كان ومهما اشتدت الحاجة وعظمت عليه رزية الفقر حتى ولو لحس التراب وذاب في الثياب، فإن أبا عامر مع ذلك لا يخرج عن كونه متكسباً في كتابته مستغلاً قلمه للعيش مع تذلل شديد واستعطاف متهالك.

ويستطرد في سرد أوصاف الهدية التي جاء بها والده إلى المنصور بعد أن سمح له بالرجوع وكيف أن المنصور لم يأخذ منه شيئاً وإنما زاد، في عطائه وأقره على ما عنده، ثم يجعل مديح المنصور والثناء على كرمه وشمائله العالية ختاماً لهذا الفصل من الرسالة، وإذا شعر أبو عامر أنه أطال النثر ولم يرد أن يترك الرسالة هكذا خالية من الشعر حاول أن ينوع فيأتي بشعر يمهّد له بقوله :

”ولما عز الخطاب، ووقع الكتاب، وكان عبدك منسوباً إلى شيء من نظم الكلام، قال على كلة الذهن وقلة الغرب بالحال، وشغل البال، ما علم وفهم:
أما الرياح بجو عاصم فحلبن أخلاف الغمام

يقول فيها:

سهر الحيا برياضه	فأسالها والنور نائم
حتى اغتدت زهراتها	كالغيد باللج العوائم
من ثيابٍ لم تبل	كشف الحدود ولا المعاصم ^(٢)

^١ نفس المصدر، ق ١ ج ١، ص ١٦٦

^٢ الذخيرة، ق ١ ج ١، ص ١٦٧

ولا يقتصر أبو عامر في نثره وشعره على غرض المديح صراحة وبصورة مباشرة وتقديم فروض الطاعة والولاء وتوكيد المحبة والوفاء، وإنما يضمن غرضه هذا موضوعاً آخر لعلّه يعد من الموضوعات المهمة في الأدب، إذ يحاول المفاضلة بين الكتاب ووضع مقاييس للكتابة الناجحة والكتاب الناجحين، ويبدأ ذلك بتمهيد بأن يصطنع اعتراضاً أوتصوره على شعره هذا بأنه لا يناسب الملوك ولا يجوز أن يخاطبه بمثله، ثم يرد على ذلك بأن مثل هؤلاء يجهلون الحقيقة، أما الخبر اليقين فعنده، فهو أقرب به من غيره في هذا المجال، ولو شاء أن يقول ما يناسب الملوك لقال الشئ الكثير والاقراطيس... وقال:

”فإن طعن طاعن على نسيب هذا الشعر، وقال: إن الملوك لا تقابل بمثله، والعظماء لا تتلقى بشبهه، قلنا: ذلك لجهله بأخبارهم، وقلة روايته لآثارهم؛ ولو شئت أن أملاً الصحف وأرقم القراطيس بما جرى عند الملوك ومعهم، وما استعمل لهم، وتوصل به إليهم، لفعلت، ولكني اقتصرت من ذلك على قريب معجب، واكتفيت منه بحديث مطرب“.

قال ابن بسام: وأنشد أبو عامر إثر هذا قطعة شعرٍ لأبيه، هي ثابتة في القسم الرابع من هذا التصنيف، قال فيها:

وبعد أن يورد كلمة من أشعاره في الخمر والمجون ووصف الغمام مما تبدو الصلة بعيدة بينه وبين الغرض الأصلي، يرجع إلى المؤمن موجهها له الخطاب بأنه إذا قرأ هذه الأبيات وأبدى كأنه فيها فهو أهل لذلك بما يملكه من ذوق أدبي وحس مرهف، وقال:

”فإن يراجع أعزك الله المؤمن منصفاً فهو أولى به وأسير له، لا كقوم عندنا، حظهم من الفهم الحفظ، ومن العلم الذكر، وهذا حظ القصاص، وأعلى منازل النواح“^١.

ويجب أن لا يفوتنا هنا، التنويه إلى أن أبا عامر على كثرة ما كتب للمؤمن لا يقتصر على مخاطبته أن مخاطبة بنى عامر عامة ، بل أنه كما نفهم من الآثار الأخرى يخاطب غير هؤلاء وليس ذلك مستحيلا ولا صعبا، مادام أبو عامر ينشد المنفعة ويحرص على استمرار الصلة بمن يملكون الجاه والمال ، وبنفس هذا الدافع نجد أبا عامر يكتب رسائل أخرى إلى أمراء آخرين.

ومن هذه الرسائل: "رقعة خاطب بها مجاهدا أمير دانية وقته" ^١ كما سماها ابن بسام، يذكر ابو عامر فيها المراحل التي اجتازتها اتصالاته بمجاهد ومحاولاته للحصول منه على شيء، فيستهلها بكلام عام فيه تبرير للتقصير واعتذار للمقصر:

"قد يحلف الغمام، وتغدر اللثام، وتقطع الأرحام. من عز بز، ومن ريش طار، ومن سارت به الأيام سار، وعلى الجد المدار. جد كبا، وحسام نبا، وآمال تفرقت أيدي سبا. كلمات أنثرها عليك، وآمال أصرفها إليك. كنا قبل أن ترمي بنا النوى مراميها، وتلقي الخطوب علينا مراسيها، وتمخضنا الأيام مخضاً، وتركض بنا الليالي ركضاً، تربي صحبة، وحلفي صبوة؛ قد تخلينا عن الأنساب، وانتسبنا إلى الآداب، والدار إذ ذاك صقب، والملقى كضب؛ فإذا شمع بأحدنا مارن، وثار به كمد ساكن، بعث على زمن، وتقصير بإرادة عن سكن، تعطينا كأس الشكوى، وتجادبنا جبل البلوى" ^٢

ثم يذكر كيف انفتح عروة مودتهما وتفرقا فأقبلت الأيام على مجاهد وجاءته السعادة من كل جانب وكان المفروض أن لا ينسى صاحبه أبا عامر ولكنه على العكس نسيه ولم يلتفت إليه وكان أول ما بدر منه تركه للخطاب والكتابة إليه مما أحزن أبا عامر وألمه أشد الألم: وقال:

^١ مجاهد بن عبدالله العامري، أمير دانية أصله مملوك من ممالك بن أبي عامر كان من أهل الأدب والشجاعة، نشأ بقرطبة وكانت له هم وجلاد، غلب دانية وبعض ما حولها. معجم الأدباء ج ١٧ ص ٨٠

”ونفحت عليك رياح السعد، وجاءتك المنى من قمامة ونجد، وامتنطيت ظهر الجوزاء، وافترشت لبدة العواء؛ وكلما دعيت إلى التزال والعراك، تترست بالثرثريا وطعنت بالسماك، فزحمت منكب الدهر، وقضيت أربك منه على قهر. فكان أول حيضتك عن الرفاء، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء، أن تركت المخاطبة، وأضربت عن المكاتبه، خشية أن يكون كلنا عليك، ورغبنا في ما لديك“^١.

وإذا شعر أن مثل هذا الأسلوب في الشجة والعباب المباشر الصريح في مخاطبة صاحبه الأمير قد لا ينفع كثيرا بل ربما أغضبه وأثاره، عاد إلى المداهنة والتملق واستدرار العطف بحمل حسن الظن إذ الأصل التقاء القلوب والأرواح لا الوجوه والأجسام.

”ثم قلت: حمل أحسن الظن أحمل، والقضاء بأكرم العهد قبل، قد تشتغل الرؤساء، وتتجاذب العظماء، وعينه مع ذلك راعية، وأذنه واعية، وإنما الوصل بالفؤاد لا بالمداد، والالتقاء بالحلوم لا بالجسوم“^٢.

وبهذا يبدو أبو عامر وكأنه يناقض نفسه ويهدم ما بناه، فهو بعد عتابه لمجاهد على عدم الكتابة والإجابة، يعود فيقرر أن ذلك ليس ضروريا وإنما الضروري المهم التقاء الأرواح والقلوب.

وفي الرسالة يسرد لنا أبو عامر تحذيره لمجاهد من الحاسدين ورجاءه له بعدم الالتفات إليهم أملاً في أن يتزله المتزلة اللائقة به، وبذلك يعطي الرجال حقهم ويزلهم منازلهم، وهذه كانت من أعز أمنياته لديه. وأرفع رغباتي لديه. وعلى الرغم من هذه المحاولات التي يبذلها أبو عامر بشتى أساليب الاستعطاف والتذلل فإنه —على ما يبدو— لم يحظ بجواب شاف يطمئن قلبه، ولكنه رجع بخفى حنين كما قال:

^١ نفس المصدر، ق ١ ج ١، ص ١٩٣

^٢ نفس المصدر، ق ١ ج ١، ص ١٩٥.

”وقصدتك من جهتي، فلم أشك ولم أقر، ولم أعرف ولم أنكر، وانصرفت بين الحالتين، لا قرب ولا شحط، ولا رضى ولا سخط.“^١

وهذا الأسلوب يختلف ، كما نرى ، عن أسلوب مخاطبته للأمراء العامرين مع أن الغرض واحد لم يتغير، ولعل أبا عامر كان يحرص في ذلك على التوفيق بين مطالبه المادية التي لا تنتهى وبين نوازع نفسه إلى الغرور والشعور بالعزة.

وهناك رسائل أخرى أوقف من رسائل تتضمن المديح للمخاطب والثناء على أخلاقه وذكر بعض مناقبه.

وقد وضعها ابن بسام تحت عنوان :

”فصول قصار اقتضبتها من طويل كلامه“^٢ منها قوله: ”جلا الشكوك بيقينه، واستنبط معرفة الأعمال من شئونه؛ وقسم ليله نصفين: نصفاً للتلاوة، ونصفاً للسياسة؛ ويومه شطرين: شطراً للميدان، وشطراً للديوان“.

منها قوله: ”لا نعمة للخالق على المخلوق أجمل عاقبة، وأحمد مغبة، وأروق بهاء، وأسبغ رداءً، وأبعد مأثرة، وأيسر مكرمة، من تقى يشعرها قلبه، وأدب يزين به عقله، ولسان مبين يفيضه عليه فيعرب به عن نفسه، ويكشف عن حقيقة ذاته“.

منها قوله: ”واصل الجهاد، واستأصل الكفر والعناد، واتخذ ظهر الجواد بيتاً، وظل اللواء كنأً، واستبدل من نقر الكران قرع الطبول؛ ومن نغم القيان شجا الصهيل، ومن وجبة المعازف لجب الجيوش؛ يمشي في الهير، ويسري في الزمهرير، ويحن إلى الأذان والتكبير؛ في خطة إبليس، ومصدق الناقوس.“

منها قوله: ”كنت أسمع من هذه المآثر والمكارم مثل نفح الصبا، ويقرع أذني منها جرس ألد من نغمة الصبا، فلا أكذب، لصدق الشاهد، وأمانة الناقل، وكثرة القائل. والحكيم أبو فلان خادم الشيب، ومصلح العيب“.

^١ نفس المصدر، ق ١ ج ١، ص ١٩٧

^٢ نفس المصدر، ق ١ ج ١، ص ١٩٢ إلى ١٩٤

وخاتمة هذه القطع قوله: ”أجل ما بيننا ارتضاع الكاس، وشم الآس، والجري في حافات الصبا، والصيد بالسكر في الربى؛ وإن كانت هنات مخلقة، وأوقات موبقة، ذهبت وبقي وزرها، وظننت وأقام شرها، فإن المرجوع للعليم الحكيم، رب العرش العظيم“.

وهذه القطع التي نص ابن بسام على أنها فصول مقتضبة من طويل كلامه أكثرها في المديح وفيها من أغراض الحكمة والدعوة إلى الفضيلة التمسك بها ما يلفت النظر إذ لا نجد له مثيلا في الرسائل السابقة ، على الرغم مما يلاحظ على الجميع من غرض رئيسي هو المدح.

على أن ما يلفت النظر أكثر في هذه الرسائل خلّوها من طلب العون والتكسب وأكبر الظن أنها بأجزائها الكاملة لا تخلوا من هذا الغرض أوقد يكون بعضها فعلا جزء من بعض ما ذكرناه من رسائل، ولا يستبعد أن يكون ابن بسام قد حرص على إبراز هذه القطع من الرسائل فاقتضبها وأفردها في مكان مستقل ليدل بذلك على مما رسة أبي عامر للنشر في أغراض الحكمة والزهد والدعوة إلى الفضيلة وما يتعلق بها.

كما لا يستبعد من جهة أخرى أن يكون بعض هذه الرسائل موجّها في الأصل لأمرأى آخرين غير من ذكرنا، ولكن ابن بسام لم يتوصل إلى أسماء هؤلاء فترك هذه الرسائل دون عنوان، ولما كانت في الأصل -كما يظن -طويلة مسهبة، اقتضبها ابن بسام وذكر هذه الفقر منها ليدل على مزيد من النثر لأبي عامر في هذه الأغراض.

ورسالته الأخرى:

رسالة التوابع والزوابع: هذه الرسالة مشهورة لابن شهيد، وهي قصة خيالية يحكى فيها ابن شهيد رحلة قام بها في أرض الجن بصحبة جنيّ اصطفاه زهير بن نمير وقد اتصل خلال هذه الرحلة بتوابع الشعراء والكتاب، وعرض عليهم أثناء ذلك بعض آرائه في الأدب واللغة ، وكثيرا من نماذج شعره ونثره، فقال إجازتهم بالتفوق،

وانتزع إعجابهم، وقد بث فيها الفكاهات ونثر الطرائف والدعابات،^١ ولم تصلنا هذه الرسالة كاملة وإنما وصلنا منه أجزاء أوردها ابن بسام في ذخيرته، إن شاء الله أبين مقام هذه الرسالة الفنية والنثرية في الادب الأندلسي حينما نقارن مع رسالة الغفران لأبي العلا المعري في الباب الخامس.

رسائل أبي عامر الوصفية: وإذا كانت رسائل أبي عامر إلى الأمراء وكلامه بها على الحساد والمبغضين، تعكس حبه للمال وحرصه على ترف العيش، فإن رسائله الوصفية تعكس جانباً آخر من حياة أبي عامر اللاهية العابثة.. عبر عنه بالكتابة الوصفية وتناول فيه موضوعات متعددة، لذلك رأينا أن نقسمها إلى قسمين حسب الموضوعات التي عالجها:

ومنها رسالة في الوصف:

كتابة أبي عامر في وصف الأحياء، وفيها تناول عدة موضوعات، يصفها بأسلوبه الخاص، ومن هذه الموضوعات وصف أبي عامر لجارية، يسلك فيه سبل المجون حيث يتطرق إلى أوصاف الجارية الظاهرية أولاً في حركتها ونظراتها وشعرها ووجهها.. ثم يعود إلى أوصافها في ليلة مع حبيب وما يكون منها أثناء ذلك فيقول:

”أُخْتُ نَعْمَةٍ وَرَبِيبَةٍ نَعْمَةٍ كَأَنَّ شَعْرَهَا عَلَى غِرَّتِهَا الْغَرَاءُ غَرَابٌ يَسْفِدُ حَمَامَةً
بَيَضاءَ وَكَأَنَّ خَدَّهَا عَلَى جِيدِهَا الْمَشْرِقُ تَفَاحَةٌ قَدَمُهَا بِهَا إِبْرِيْقٌ مِنْ رَاوِقٍ تَكَلِّمُكَ
بِالْحَاضِظِهَا وَتَأْسُوكَ بِالْفَاضِظِهَا تَقَابُلُكَ مِنْ خَدَّهَا بَوْرْدَةٌ وَمِنْ عَيْنِهَا بِنَرْجَسَةٍ كَأَنَّهَا
تَغْرِهَا مِنْ جَوْهَرٍ وَشَفَتِهَا خَيْطُ حَرِيرٍ أَحْمَرٌ وَتَقْبَلُ إِلَيْكَ بِقَضِيبٍ بَانَ ثَمَرَتُهُ رِمَانَتَانِ
وَتَنْفُتِلُ عَلَيْكَ بِكَفَلٍ مَائِجٍ كَأَنَّهُ كَثِيبٌ عَالِجٌ تَنْطَوِي بِقَبْطِيَّةٍ وَتَقُومُ عَلَى أَنْبُوبٍ بَرْدِيَّةٍ
أَنْ اسْتَقْبَلَتْهَا بِرَكَانٍ تَضْحَكُ لَكَ عَنْ فَلَاقَةِ رِمَانٍ أَوْ يَطْحَنُكَ جَبْهَةٌ أَسَدٍ غَرِيرٍ
فَيَقْبِضُ رُوحَكَ قَبْضَ أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ“^٢.

^١ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ٣٧٧، ٣٧٨،

^٢ يتيمة الدهر، ج ٢، ص ٥٧

وهذا الوصف يبرز بوضوح ميل أبي عامر إلى المجون ونفسيته اللاهية، خاصة بعد أن يستمر في الوصف مصوراً لجارية في ليلة قضتها مع حبيب، وأبو عامر متحمّس لهذا الوصف معجب به، يعده نموذجاً يعرض للمباهاة بما فيه من معاني الغزل والحب بأسلوب المجون الذي لا يختلف كثيراً عن مجون أبي نواس، بل ربما لانكاد نفرق بينهما إلا من حيث أن هذا مجون نثري—وعند أبي نواس مجون شعري.

ومن وصفه لبعض الحيوانات: قد وصفه لبعض الحيوانات وفي مقدمتها نذكر وصفه للثعلب حيه يقول فيه:

”أدهى من عمرو وأفتك من قاتل حُذَيْفَةَ بن بدر كثير الوقائع في المُسلمين مُعْزِي بِإِقَامَةِ ذِمِّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا رَأَى الْفُرْصَةَ انْتَهَزَهَا وَإِنْ طَلَبَتْهُ الْكِمَاءُ أَعْجَزَهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ بَقْرَاطٌ فِي إِدَامِهِ وَجَالِينُوسٌ فِي اعْتِدَالِ طَعَامِهِ غِذَاؤُهُ حَمَامٌ وَدِرَاجٌ وَعِشَاؤُهُ بِذِرْحٍ وَدِجَاجٌ“^١.

وليس في هذا الوصف من الجديد ما يلفت النظر، فصوّره بسيطة عادية مستعملة لدى الشعراء والكتاب.

ووصفه للبرغوث:

وقد تناول أولاً صفاته الظاهرة من لون وحجم وحركة وشرت ووثب، ثم انتقل إلى ما يفعله بالناس لا فرق بينهم عنجه ولا ينجو منه أحد أبداً، لا يستأذن في الدخول ولا يمتنع عليه ملك أو صعلوك: وقال:

”أَسْوَدَ زَنْجِيٍّ وَأَهْلِيٍّ وَحَشِيٍّ لَيْسَ بَوَانٌ وَلَا زَمِيلٌ وَكَأَنَّهُ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ مِنْ لَيْلٍ أَوْ شَوْنِيزَةٍ أَوْ بَنْتَهَا عَزِيزَةٍ أَوْ نَقْطَةٍ مَدَدٍ أَوْ سَوِيدَاءِ قَلْبِ فُؤَادٍ شَرِبَهُ عِبٌّ وَمَشِيهِ وَثَبَ يَكْمَنُ نَهَارَهُ وَيَسِيرُ لَيْلَهُ يَدَارِكُ بَطْعَنَ مَوْءُومٍ وَيَسْتَحِلُّ دَمَ كُلِّ كَافِرٍ وَمُؤْسَلَمٍ مَسَاوِرٍ لِلْأَسَاوِرَةِ وَمُجَرَّدَ لَهُ عَلَى الْجَبَابِرَةِ يَتَكْفَنُ بِأَرْفَعِ الثِّيَابِ وَيَهْتِكُ كُلَّ حِجَابٍ وَلَا يَحْفَلُ بِبَوَابٍ يَرِدُ مَنَاهِلَ الْعَيْشِ الْعَذْبَةِ وَيَصِلُ إِلَى الْإِحْرَاجِ الرَّطْبَةِ وَلَا يَمْنَعُ مِنْهُ أَمِيرٌ وَلَا يَنْفَعُ

فِيهِ غَيْرَةٌ غَيُورٌ وَهُوَ أَحَقُّرٌ حَقِيرٌ شَرُّهُ مَبْثُوثٌ وَعَهْدُهُ مَنْكُوثٌ وَكَذَلِكَ كُلُّ بَرِغوثٍ كَفَىٰ بِهِذَا نُقْصَانًا لِلْإِنْسَانِ وَدَلَالَةً عَلَىٰ قُدْرَةِ الرَّحْمَنِ“^١.

ووصف أبو عامر البعوضة على النهج نفسه في وصفه للبرغوث فقال:
 ”مَالِكَةٌ لَا حَسَّ لَهَا سِوَاهَا تَحْقِرُهَا عَيْنٌ مِنْ رَأَاهَا تَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ بِنْدِهَا
 وَتَضْرِبُ بِجُبُوحَةِ دَارِهِ بِطَلْبِهَا تُؤْذِيهِ بِإِقْبَالِهَا وَتَعْرِفُهُ بِإِرَاقَةِ مَالِهَا فَتَعْجِزُ كَفَّهُ وَتَرْغَمُ أَنْفَهُ
 وَتَضْرُجُ خَدَّهُ وَتَفْرِي لَحْمَهُ وَجَلْدَهُ زَجْرَتَا تَسْلِيمِهَا وَرَمَحِهَا خَرْطُومُهَا تَذِلُّ صَعْبَكَ
 إِنْ كُنْتَ ذَا قُوَّةٍ وَعِزِّمْ وَتَسْفِكُ دَمَكَ وَإِنْ كُنْتَ ذَا حَلْفَةٍ وَعَسْكَرِ ضَخَمٍ تَنْقُضُ
 الْعِزَائِمَ وَهِيَ مَنْقُوضَةٌ وَتَعْجِزُ الْقَوَى وَهِيَ بَعُوضَةٌ لِيرِينَا اللَّهُ عَجَائِبُ قُدْرَتِهِ وَضَعْفُنَا عَنْ
 أَضْعَافِ خَلْقَتِهِ“^٢.

وهذا الوصف لا يختلف عن سابقه في صوره البسيطة المعروفة، مع حرص أبي عامر على الربط بين خلق هذه المخلوقات ووجوب العبرة من قبل الإنسان ، فقد سلط الله عليه مخلوقا ضعيفا حقيرا وهو الإنسان هذا المخلوق الذي يظن نفسه قويا كبيرا بل يعتبر نفسه أقوى من كثير من المخلوقات، لم يستطع التخلص منه أو إيقافه عند حده على الأقل، فليعرف الإنسان عظمة الله وقدرته من ذلك.

أما القسم الثاني: من وصف أبي عامر ، فهو وصف الأشياء ونقصد بها مالا ينطق أو يحس، وإن كان أبو عامر قد منحها بوصفه وتشبيهه حيوية وبهجة حتى بدت وكأنه كائنات حية ذات منطق وروح، ومن موضوعات هذا الوصف ماله صلة على ما يبدو بمجالس الأمراء ، وما كانت تتطلبه من أمور لادامتها ودفع الملal الذي قد يعترى المتحدثين.

ومن ذلك وصف أبي عامر للنار والبرد والخطب وفيه رسالة موجهة إلى أمير لم يذكر أبو عامر اسمه، يصف فيها كيف حبسهم البرد فلم يستطع الخروج حتى تغلب

^١ يتيمة الدهر، ج ٢ ، ص ٥٣، ٥٤

^٢ نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٤

عليه بأكداس الحطب رماها في النار ، فكان بينهما ما كان من الصراع والضجيج حتى استسلم الحطب لها ففرقت شمله وألفت شملها، ثم كان بعد ذلك الجمر المتوهج الذي يبعث بحممه فيلذع البرد لدعة وينكره نكرة ينهزم على أثرها وقال:

”أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ مَوْلَايَ الَّذِي اهْتَدَى بِمَصْبَاحِهِ وَاعْشَوْا إِلَى غُرَرِهِ وَأَوْضَاحِهِ
صَبَحْتَنَا الْيَوْمَ خَيْلَ الْبَرْدِ مُغِيرَةً فَانْقَبَضَتْ إِلَى اخْرِيَاتِ الْإِيْوَانِ وَقَدْ كَدَسْنِي بِصَارِمِ
وَسَنَانٍ فَجَعَلَتْ بِحِجِي حَطْبًا دَلَّ عَلَى نَفْسِهِ وَتَشْطَى مِنْ يَيْسِهِ فَسَلَطَتْ عَلَيْهِ صَاحِبَ
الشَّرِّ وَرَمَيْتَهُ مِنْهَا بَيْنَاتِ الْحَدِيدِ وَالْحَجَرِ فَوَاقِعَهُ قَلِيلًا وَعَارَكَهُ طَوِيلًا فَكَانَ لَهَا
عَجِيجٌ وَلَهُ مِنْ حَرْهَا ضَجِيجٌ“^١.

ثم يتطرق أبو عامر إلى حال أهل النار وتصرفاتهم وما يتساقون من أكواب الحر ويتعاورونه من أثواب القر، فيقول مصورا أحمام وخره ولظى نيرانه وحال الناس فيه، وقال:

”لَمَّا تَلَقَّى الْيَوْمَ الْبَرْدُ شَاكِرَكَ بِنَوْعٍ وَمَشَى إِلَيْهِ بِرُوعٍ وَكَانَ بِالْأَمْسِ بَرْدًا
أَجْحَفَ فَابْتَنَى مِنْ سَحَابَةٍ أَوْ طِفْ قَصْدَ بَيْتِ النَّارِ وَمُورِدِ الْأَبْرَارِ وَالْفَجَارِ فَلَمَّا رَأَى
النَّاسَ أَخْلَاطًا تَذَكُرُ جَهَنَّمَ وَلَفْحَهَا الْمُتَضَرِّمِ وَقَوْلَهُ تَعَالَى وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا وَاسْتِعَاذَ
بِاللَّهِ مِنْ لَهْبِهَا وَسَأَلَهُ أَنْ لَا يَكُونَ مِنْ حَطْبِهَا وَإِذَا بِأَهْلِهَا يَتَسَاقُونَ أَكْوَابَ الْحَرِّ
وَيَتَعَاوَرُونَ أَثْوَابَ الْقَرِّ فَلَمَّا أَخَذَتْ مِنْهُمْ حَمِيَاهُ تَهَلَّلَتِ الشَّفَاهُ وَأَنْطَلَقَتِ الْإِفْوَاهُ“^٢.

ومن رسائل أبي عامر التي في وصفه للماء فيقول:

”فقلت: يا زبدة الحقب، اقترح لي. قال: صف جارية، فوصفتها؛
قال: أحسنت ما أن تحسن؛ قلت: أسمعني وصفك للماء، قال: ذلك من العقم قلت:
بحياتي هاته، قال: أزرق كعين السنور، صاف كقضيبي البلور؛ انتخب من الفرات،
واستعمل بعد البيات، فجاء كلسان الشمعة، في صفاء الدمعة. فقلت: انظره يا سيدي

^١ نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٤

^٢ يتيمة الدهر، ج ٢ ص ٤٤ ، ٤٥

كأنه عصير صياح، أو ذوب قمرٍ ليّاح؛ لعه في إنائه، اصباب الكوكب من سمائه؛ العين حانوته، والفم عفريته، كأنه خيط من غزل فلق، أو محضر يضرب به من ورق؛ يرفع عنك فتردى، ويصدع به قلبك فتحيا.^١

وواضح أن أبا عامر في وصفه للماء يعارض البديع في وصفه له، إذ المسلك واحد من حيث المعنى والاسلوب، المعتمد على السجع وكثرة التشبيهات، خلا ما نلاحظه في وصف أبي عامر من براعة لفظية أخرجت تشبيهات غريبة جديدة عن تشبيهات البديع في الوصف نفسه وذلك أمر صيحي.

أسلوب الرسائل ابن شهيد وخصائصه:

وإذا ألقينا النظر إلى هذه الرسائل لأبي عامر وجدنا فيها عنايته بالصنعة اللفظية وحرصه على توشية كتابته بشق أفانين البيان والبديع كما في مقدمة ذلك السجع هو الصفة الغالبة التي لا تنفك عن الكتابة فنجد قوله في رسالته إلى مجاهد "قد يحلف الغمام، وتغدر اللثام، وتقطع الأرحام. من عز بز، ومن ريش طار، ومن سارت به الأيام سار، وعلى الجد المدار. جد كبا، وحسام نبا، وآمال تفرقت أيدي سبا".^٢ وهذا أمثاله سجع متكلف كثير في الكلام لا تكاد تخلو منه رسالة من رسائل أبي عامر مهما كان غرضها.

أما أسلوب عامر في كتابته فليس حظه أقل من حظ المعنى والغرض من الصناعة اللفظية؛ فنجده يطيل الكلام في الغرض الواحد ويسترسل إلى درجة قد تخرجه عن الموضوع الأساس الذي بدأه ويتجلى هذا بوضوح في رسائله إلى الأمراء وخاصة رسالته إلى المؤمن التي استغرقت صفحات كثيرة في معان قليلة وألفاظ مترادفة، وفواصل متعددة وازدوج في الكلام في مثل قوله يخاطب المؤمن:

^١ الذخيرة، ق ١ ج ١، ص ١٩٧

^٢ الذخيرة، ق ١ ج ١، ص ١٩٢

”لولا أن من العادة بين السادة والمسودين، والمالكة والمتملكين تطارح أدمه، وتدارس لطائف الحرمة، لأكبرته - أيده الله - عما أرغب ذكره، وأأكرمه عما أطلب نشره؛ ولولا أن من السياسة وعقد الحزامة تذكير أهل العلياء، بسوالف النعماء، لربأت بما ينته الآباء والأجداد“^١

وإذا أردنا قراءة هذه الرسالة إلى آخرها فلا نجد غير ما رأينا في هذه السطور من تكرار للمعنى الواحد بألفاظ مترادفة وفواصل كثيرة مع ما يترتب على ذلك من استطراد وإسهاب لا ضرورة له لولا الحرص الصنعة اللفظية وتسطير الكلام مباهاة أمام الكتاب وتحديا لهم فضلا عن الأغراض الأخرى.

ونجد في أسلوب أبي عامر التنويع بالانتقال من النثر إلى الشعر وبالعكس حالما يشعر بملل القارئ ويتجلى لنا هذا في رسالته المطولة للمؤمن كذلك حيث ذكر خلالها كثيرا من القصائد تجاوزت إحداها سبعين بيتا“^٢

وإلى جانب كل ذلك نلاحظ أن أسلوب أبي عامر يتغير بتغير حالته النفسية في كثير من الأحيان فنراه يميل إلى السهولة والوضوح حين يخاطب الأمراء ويكون هادئا مطمئنا ومثال ذلك قوله يخاطب مجاهدا أمير دانية:

”ولقيت إخواناً لقوك، فو الذي جعل الغدر من شعارهم، والحذر من دثارهم، ما أجروا في ذكرك، فضلاً على أن يجروا ذكري لك. وهم يعلمون أن مرماي غير مرماهم، ومغزاي سوى مغزاهم“^٣.

وكذلك في رسالته إلى المؤمن :

أما حين يكون منفعلا متحاملا على الحساد والمبغضين، أويكون في مجال التحدي أو المحاكاة والتقليد فإنه يغرب بعض الشيء في محاولة لإظهار في وصفه للبرغوث تحديا لخصمه الألد أبي القاسم الإفليلي في رسالة التوابع فيقول:

^١ نفس المصدر، ق ١ ج ١، ص ١٨٣

^٢ نفس المصدر، ق ١ ج ١، ص ١٧٧ قصيدته الميمية المطولة أياها ستة وسبعون بيتا

^٣ نفس المصدر، ق ١ ج ١، ص ١٩٣، ١٩٤

”أسود زنجي، وأهلي وحشي؛ ليس بون ولا زميل، وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل، وشونيزة، أو ثبتها غريزة، أو نقطة مداد، أو سويداء قلب قراد؛“^١

وهذا الوصف يحوي كلمات غريبة صعبة مثل شونيزة وزميل مما لا يتضح معناه لدى كثيرين إلا بالرجوع إلى المعاجم.

رسالة التوابع والزوابع - والقصة العربية

إن القصة من أقدم الأنواع الأدبية، وربما سبقت الشعر فالإنسان منذ كان شغوفاً متطلعاً إلى معرفة الأحداث الإنسانية، وأدرك الكتاب هذه الحقيقة منذ القدم فحكوا الحكايات ثم كتبوها وربما أضافوا إليها شيئاً من خيالهم، أو رَوَوْا أحداثاً من صنع الخيال وحده فأطفأ و بذلك عطشا كان في الصدور، كما قال الدكتور يوسف نجم "إن القصة مجموعة من الأحداث، يرويها الكاتب وهي تتناول حادثة أو عدة حوادث، تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة، على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض ويكون نصيبها في القصة متفاوتاً من حيث التأثير والتأثير".^١

القصة في العصر الجاهلي:

إن العرب منذ العصر الجاهلي كان لهم قصص وأخبار تدول حول الوقائع الحربية، وتروى الأساطير القديمة، وعند ما ظهر الإسلام ونزل القرآن الكريم جاءهم أحسن القصص ثم تكونت على هامش القرآن وتفسيره، قصص و حكايات استمرت موضوعها وعناصرها من تعليم الدين الجديد، فظهرت قصص الأنبياء، وقصص المعراج وسير النبي صلى الله عليه وسلم "فأقصص القصص لعلهم يتفكرون".^٢

ثم استخدم هذا الصنف في العصر الأموي نرى القصة فيها ظهرت بعناية كبيرة حتى صارت مهنة رسمية يشتغل بها رجالون يسألون عليها الأجر وهذا ما دفع الرواة على الخروج إلى الباردة لتأليف الروايات وجمع أخبار الأحناء والشعراء العاشقين كقصة عنترة وعبلة وليلي مجنون وجميل بثينة وكثير وعزه وغيرهم.

^١ فن القصة ص ٩

^٢ سورة الأعراف، آيت ١٧٦

هكذا تطورت القصة في العهد العباسي إذ بدأت طائفة من الكتاب يقلون القصص الأعجمية إلى العربية حيث بلغت حوز ستن ترجمة، ومن أشهرها كليله ودمنه لعبدالله بن المقفع حيث فتح بابا جديد في الأدب القصصي العربي وصار نموذجا مثاليا سار على منواله كثير من الكتاب المتأخرين الذين صاغوا أفكارهم الفلسفية على لسان الحيوانات، ومن القصص الأخرى الهامة "ألف ليله وليله" من أصل هندي أو إيراني وقد أثر هذا الكتاب في الأدب القصصي الجديدة، ومن القصص المؤلفة التي صاغها العرب أنفسهم هي "البخلاء" وقد صور فيها أخلاق فئات من الناس متعرضا لهم آخذا عليهم، ثم رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي وهي قصة خيالية موضوعتها لقاءات مع الشياطين الشعراء. والآن أركز بنا على رسالة التوابع والزوابع لأنها هي تتعلق موضوع مقالتي، وهذه القصة الفنية يحكى فيها أبو عامر قصة خيالية، تصور فيها نفسه وقد تعرف على جني اسمه زهير بن نمير في ظرف شديد توقف فيها عن الإنشاد. ثم ينتقل أبو عامر صورا عن جولات له مع زهير في أرض الجن قابل فيها توابع قسم من الشعراء والكتاب في مختلف العصور، وكانت له مواقف ومشاهد صور لنا أصدق تصوير وأبرعه حتى قال الأديب الشهير مصطفى شكعة.

"وكانت الرسالة تحتوي على الأغراض المختلفة منها فكاهية وهزلية، منها لغوية وبلاغية منها أدبية وسردية، وهي من إحدى القصص البارعة التي تعتبر رائدة من ألوان الأدب الإقناعي الأندلسي بصفة خاصة والأدب العربي بشكل عام".^١

وقال أديب آخر:

"وهذه الرسالة أقدم الرسائل ألفت في الأسلوب القصصي في القرن الرابع الهجري، هي التي تنبئ عن مهارة ابن شهيد في الشعروالنثر وقد اشتهر بفضلها بين الشعراء والكتاب".^١

^١ الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه لمصطفى شكعة، ص ٦٧٨

إن التوابع والزوابع كنص أدبي سردي توفرت له عدة خصائص عناصر سردية جعلت نصاً أدبياً ينتمى إلى مجال القص العربي القديم الذى كان من أهم دعائمه السرد والوصف والحوار والشخصيات وهذه العناصر لا يستطيع العمل السردى الاستغناء عنها، وخاصة "تقنيّ" السرد والوصف الملازمين له ، وسنبداً بعنصر السرد.

السرد: يسرد الكاتب أحداثه بأسلوبه الخاص والتميز عن أساليب غيره من الأدباء، ولكن للسرد صفات عامة يشترك فيها كتاب القصة هي السهولة والوضوح وملائمة المعانى، وفي نص التوابع والزوابع نجد السرد يعتمد أساساً على الذات المتكلمة ، أو الذات الثانية، كما اعتمد فيها على إطار زمنى محدود وهو الزمن الماضى بصيغة المعروفة، كقول الكاتب يسرد تمهيده للدخول إلى لب القصة:

”كنت أيام كتاب المهجاء أحن إلى الأدباء، وأصبو إلى تأليف الكلام، فأتبعت الدواوين وجلست إلى الأساتيد، فنبض لى عرق الفهم، ودرّ لى شريان العلم“.^٢

”وأحياناً يرتكز السرد على صيغة المفاعلة فى الزمن الماضى كقوله ”تذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء“.^٣

وقد يأتى السرد فى النص بصيغة الجمع فى الزمن الماضى، كقول الكاتب، يسرد رحلته رفقة تابعه زهير فى أرض الجن ”ركضنا -حضرنا- انصرفنا- رأينا -ملنا....“.^٤

ويتحوّل الخطب السردى أحياناً من المتكلم إلى الغائب كقول الكاتب:

”فضرب زهير الأدهم بالسوط فسار بنا على قننه“^١ ولم تأت أحداث نص ”التوابع والزوابع“ مسرودة دون وصف وتصوير لمشاهد هذه الأحداث، بل اعتمد السرد

^١ النثر الفنى فى القرن الرابع، ص ٨ ٣١

^٢ الذخيرة، ق ١ ج ١، ص ٢١٠، ٢١١

^٣ نفس المصدر، ص ٢١٢

^٤ نفس المصدر، ص ٢١٤

على تقنية ملازمة له، وهى تقنية الوصف إذ وصفت المشاهد والشخصيات وأماكن تواجدها فكيف تحققت طريقة الوصف في العملية السردية؟

أما الوصف في نص "التوابع والزوابع" فقد أخذ شكل التصوير، إذ قدّمت الأحداث المسرودة في كل مشاهد موصوفة وصف مرثياً، بما في ذلك شخوص القصة، فقد وصفها الكاتب وصفاً دقيقاً ملماً بجزئياتها المادية، من هيئة ولباس، أو وضعية جلوس أو ركوب، وقد جاءت هذه الأوصاف مطابقة للأجواء التي كان يتنفس فيها هؤلاء الشعراء والكاتب الذين لقي توابعهم، فإذا كان اللقاء مع تابعة الشاعر امرئ القيس، كان المكان إحدى الأدوية، ذات الأشجار المتمايلة، والطيور المغردة. وكان اللقاء مع صاحب البحري، كان المكان ناورداً^٢ قدام قصر عظيم لأحد الملوك. وأما اللقاء مع تابعة أبي نواس فكان في أصل جبل ديرحنة، يسمع منه قرع النواقيس، وتحيط به أديار وكنائس، وحانات خمر، ولم يقتصر الوصف على أمكنة تواجد هؤلاء التوابع، بل وصفت هذه الشخصيات في شكلها الخارجي المادي، تبعاً لشكل كل شاعر أو كاتب فتابعة الجاحظ كان "شيخاً أصلع، جاحظ العين اليمنى، على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة"^٣ وأما تابعة خصمه ابن الإفيلى فقد صوّره تصويراً "كاريكاتيرياً" غاية في الإضحاك، فكان في شكل "جنى أشمط ربعة، وارم الأنف، يتظالع في مشيته، كاسراً لطرفه، وزاويالأنفه"^٤، وذلك تعريضاً به وسخرية منه. وقد اعتمد الوصف أحياناً على أداة التشبيه، كما حدث في وصف الكاتب للماء عند لقائه لتابع بديع الزمان، إذ يقول:

^١ نفس المصدر ص، ٢١١

^٢ ناورداً: هنا بمعنى الميدان، وهي من الفارسية ومعناها: معركة قتال

^٣ الذخيرة، ج ١، ص ٢٢٨

^٤ نفس المصدر، ص ٢٣٣

”أنظره ياسيدي كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر ليّاح، له في إنائه انصباب الكوكب من سمائه، العين حانوته، والفم عفريته، كأنه خيط من غزل فلق، أو مخصر يضرب به من ورق“^١.
واتبع الوصف في نص "التوابع والزوابع" سبيل الدقة، سواء في وصف توابع الشعراء والكتاب أو في وصف بعض حيوان الجن، وخير مثال لذلك وصف الإوْزة، إذ يصفها بقوله:

”وكانت في البركة بقربنا إوزة بيضاء شهلاء، في مثل جثمان النعامة، كأنما ذر عليها الكافور، أو لبست غلالةً من دمس الحرير، لم أر أخف من رأسها حركة، ولا أحسن للماء في ظهرها صباً، تثني سالفتها، وتكسر حدقتها، وتلّولب قمحودتها، فترى الحسن مستعاراً منها، والشكل مأخوذاً عنها“^٢.
لقد وصفها وصفاً ممتعاً أخاذاً، متحرّكاً سلساً دقيقاً على حدّ تعبير مصطفى الشكعة، لقد وصفها وصفاً لم يسبقه إليه أديب قبله.^٣

الحوار: يلعب الحوار دوراً رئيسياً في تطوير الحدث، وفي الإبلاغ عنه في نفس الوقت^٤. والحوار عنصر من العناصر الهامة التي كونت نص التوابع والزوابع وقد اتخذ الحوار مساراً واحداً، كون الراوي الكاتب وهو شخص ذو ثقافة عالية وواسعة- هو الذي يتكلم دائماً على ألسنة شخصه، والحوار في النص دائم بين الكاتب الراوي، وبين تابعه زهير بن نمير، اعتماداً على صيغتي الحوار ”قال“ و ”قلت“، ومن ذلك قوله: وقلت له:

^١ نفس المصدر ص ٢٣٦

^٢ نفس المصدر، ص ٢٥٤

^٣ الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، (كتاب النشر) ص ٦٤٢

^٤ البنى السردية _ نقد الرواية، ص ٢٨١

”بأبي أنت، من أنت - قال أنا زهير بن نمير من أشجع الجن. فقلت: وما الذي حداك إلى التصور لي - فقال: هوى فيك. ورغبة في اصطفائك. قلت أهلاً بك أيها الوجه الوضاح“^١.

وقد يجرى الحوار بين أطراف عدّة، وفي مشهد واحد، كحوار الكاتب مع صاحب الجاحظ وتتخلله عدة مداخلات حوارية لصاحب عبد الحميد الكاتب، وبديع الزمان، وتابع إبراهيم بن الإفليلي، وهو حوار طويل أخذ حيزاً هاماً من النص،

أما حديث النفس، أو ما يسمّى في اللغة العربية النجواء، أو المناجاة، فقد ورد في عدة مواضع من النص متخذاً صيغة ”فقلت في نفسي“ والتي تكررت في بعض المقاطع السردية، ففي الحوار الكاتب لصاحب الجاحظ، قال تابعة الجاحظ:

”إنك لخطيب، وحائك للكلام مجيد، لولا أنك مغرى بالسجع، فكلامك نظم لانثر ‘قال ابن شهيد: فقلت في نفسي: قرعك الله بقارعتي، وجاءك بمماثلته“^٢.

وقال في موضع آخر: ”فقلت في نفسي: طبع عبد الحميد، ومساقه ورب الكعبة“^٣! وقد اتسعت دائرة الحوار في النص، إذ جرى على ألسنة الجن، وحيوان الجن أيضاً، كالحمير والبغال والإوز، فقد أجرى الكاتب حواراً طريفاً مع بغلة أبي عيسى ومنه ”وقالت لي البغلة، أما تعرفني أبا عامر؟ قلت: لو كان ثم علامة، فأماطت لثامها فإذا هي بغلة أبي عيسى والخال على خدها، قالت: ما أبقت الأيام منك؟ قلت: ما ترين، قالت شب عمرو عن الطرق“ وهو حوار يعبر عن الحالة النفسية التي يمر بها الكاتب، من مرارة لغدر الزمن وتقلباته، إذ تغير الأصحاب، فالتمس الصداقة والوفاء في الحيوان، بعد أن افتقدتهما في الإنسان.

^١ الذخيرة ق، ١ ج ١، ص ٢١١

^٢ الذخيرة ق، ١ ج ١، ص ٢٢٩

^٣ نفس المصدر، ص ٢٣٠

الشخصيات: تعتبر الشخصيات أهم المكونات في العمل القصصي، فهي عنصر أساسي ضروري في بنيته "إذ تشكل البنية الدلالية للخطاب من نسيج الروى، التي تصدر عن الشخصيات بوصفها فاعل في بنية الخطاب" ^١ وبما ان قصة التوابع والزوابع قصة خيالية فإن شخوصها ولا شك خيالية أيضا، فالقصة جرت أحداثها في أرض الجن، فجاءت شخوصها توابع من الجن، وبغض النظر عن خيالية الشخوص أو كونها من الجن، فإن علينا التعامل معها من خلال النص كشخوص قائمة بذاتها إذ ونحن نقرأ قصة التوابع والزوابع ويأخذنا خيط السرد المتواصل- ننسى أن تلك الشخصيات خيالية ولا وجود لها في الواقع، كما ننسى أنها من الجن وليست من الإنس، ففي زحمة السرد نعتقد أن الأشخاص قائمين بذاتهم، وأن لهم وجودا مستقلا عن المؤلف، وأن لا دخل له في تصرفاتهم، وننسى أن المتكلم الفعلى هو ابن شهيد ذاته راوى القصة ومؤلفها، ولقد عمد الكاتب في قصته إلى تنويع الشخصيات، إذ التقى بشخصيات مجالها فن المنظوم، وشخصيات مجالها فن المنثور وبالإضافة إلى بعض الشخصيات الأدبية التي مجالها اللغة والنحو.

وبعد القراءة الكاملة لنص "التوابع والزوابع" نستطيع القول إن الكاتب صور لنا عالما قصصيا قائما بذاته، حرص فيه تعالى جعل الشخوص تقوم بأدوارها المناسبة لرواة وأفكاره ومقاصده. كما حرص الكاتب على جعل شخوصه من الجن، تتفق مع الإنس من حيث السلوك والهيئة والجو المتواجدة فيه، وكيف وهي توابع لبعض الشعراء والكتاب وبعض علماء اللغة، إذ جعل الكاتب تطابقا بين هؤلاء التوابع من الجن، وبين الشعراء والكتاب الذين انتقاهم من العصرين، الجاهلى والعباسى، فتصويره مثلا لشخصية تابع إمري القيس المسمى "عتيبة بن نوفل" ينبئ فعلا عن هيئة هذا الشاعر، وما عرف به في العصر الجاهلى من خلال كتب التاريخ الأدبي، إذ

^١ تحليل النصوص الأدبية (قراءات نقدية في السرد والشعر)، ص ٣ ١٠، لعبد الله إبراهيم وصالح

صوّره يسكن وادياً من الأدوية ”ذى دوح تنكسر أشجاره، وتترنم أطيّاره“^١ وصوّره
وصوّره في صورة ”فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب“^٢ كما صورته يقبض عنان
فرسه الشقراء ويضربها بالسوط، وينشد شعراً لإمرئ القيس. والأمر ينطبق على باقى
الشعراء الآخرين مثل، طرفة بن العبد، وقيس بن الخطيم، وأبى تمام البحتري
والمتنبى، فقد وصف توابع هؤلاء وصفاً ينطبق على هؤلاء الشعراء، وما عرفوا به في
واقع حالهم.

أما الشخصيات التى هي توابع لبعض الكتاب المشاهير، كالجاحظ وعبد
الحميد الكاتب وبديع الزمان الهمداني، فقد وصفهم كذلك من حيث الشكل، ومن
حيث السلوك والهيئة، فيصوّر لنا تابع الجاحظ وهو شخصية عليها علامات السمة
والمهابة والتبجيل، فقد كان مركز هالة المجلس، يحيط به جمع من الناس ويستمعون
إلى كلامه كما صورته تصويراً مادياً دقيقاً، إذ هو ”شيخ أصلع، جاحظ العين اليمنى،
على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة“^٣ جعل الكاتب لشخصه أسماء فهذا ”عتيبة بن
نوفل“ صاحب إمرئ القيس، وهذا ”عترة بن عجلان“ صاحب الشاعر طرفة بن
العبد، وهذا أبو الخطار صاحب قيس بن الخطيم. وأحياناً يخضع اختيار اسم الشخصية
لاعتبارات كثيرة، فأحياناً يرمز إلى مذهب شعري مثلما هو الحال مع صاحب
البحتري المسمّى ”أبو الطبع“ إشارة إلى مذهب فنيّ في صناعة الشعر، وهو مدرسة
الطبع التى رائدها البحتري، وأحياناً يكون انتقاء اسم الشخصية يتوافق مع صفة
عرفت بها هذه الشخصية، مثلما هو الحال مع تابع أبى نواس الذى سمّاه الكاتب
”حسين الدنان“ رمزا إلى الخمرة التى كان يشربها ويتغنّى بها وبأدواتها.

^١ الذخيرة، ق ١ ج ١، ص ٢١٣

^٢ نفس المصدر

^٣ الذخيرة، ق ١ ج ١، ص ٢٢٨

وكذلك الأمر مع تابع الجاحظ المسمى "أبو عيينة" إشارة إلى جحوظ عينيه. أما تابع خصومه من أهل اللغة والنحو، فقد حرص الكاتب على تصويرهم تصويراً مضحكاً، وذلك سخرية منهم واستخفافاً بهم، وعلى رأس هؤلاء خصمه ابن الإفيليلي، هذا الأخير الذي صوّر تابعه في صورة "جني أشمط ربعة وادم الأنف يتظالع في مشيته، كاسراً لطرفه، وزاوياً لأنفه"^١ كما أطلق هذه الشخصية إسم "أنف الناقة" كناية عن ضخامة أنفه واستهزاءً بمظهره أما موقف تلك الشخصيات فمعظمها لصالح هدف الكاتب ومقصدية "البؤرة" إذ جعل يعرض على هؤلاء بضاعته من الشعر والنثر، وجعل تلك الشخصيات تنطق بما يمنحه الإجازة، فنخرج من كل لقاء مع هؤلاء مجازاً متفوقاً مشهوراً له بالعبقريّة، بل يشير أحياناً إلى اعتراف بعض الشخصيات الأدبية له بالتفوق عليهم، وخير مثال لذلك قوله على لسان تابع أبي نواس بعد ما عرض عليه الكاتب بضاعته من الشعر "وهذا والله لم نلهمه نحن"^٢ وقوله أيضاً على لسان صاحبي الجاحظ وعبد الحميد الكاتب "إننا لنخبط منك ببذاء حيرة وتفتق أسماعنا بعبرة، وما ندرى أنقول: شاعر أم خطيب؟ فقالوا: إذهب فإنك شاعر خطيب"^٣.

يمكن لنا أن نقول أن هذه القصة لإرسالة موجهة إلى الجمهور، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن، كيف استطاع ابن شهيد إيصالها إلى المتلقي؟ لقد استطاع ابن شهيد إيصال فكرته للمتلقي من خلال تألف التركيب، ووضوح اللفظ في رواية أحداث القصة التي أبرزت غير قليل من جوانبها، واضعاً نصب عينيه قضية التوصيل، والتأثير في المتلقي عن طريق السهولة والوضوح لأن الغموض في الرواية والإغراب في ألفاظها يقللان من قضية التأثير،

^١ نفس المصدر، ص ٢٣٣

^٢ نفس المصدر

^٣ الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٢٣٨

وفقدان النص الأدبي جمالية التوصيل لأنه يصبح حكرًا على طبقة محدّدة من المجتمع.

وكذلك ابن شهيد خلقها في إطار جمالي عن طريق لغة الحوار التي تجذب القارئ، وتجعله يفعل مع الشخصيات والأحداث، ومن خلال خصوبة خياله، فجمالية الأسلوب كانت سببًا في إيصال الفكرة للمتلقي، كما أن البعد الحضاري المتمثل بارتباط أدب المغرب بالمشرق كان سببًا في ذلك التوصيل وغاية ابن شهيد من ذلك التوصيل التنبيه على أن الفتنة ستكون سببًا في دمار حضارة الأندلس كما أن غايته إثبات مقدرة الأسلوبية الثرية والشعرية أمام المشاركة عن طريق مقابلة توابع الشعراء والكتاب، وكسب اعترافهم بتفوقه.

وابن شهيد لم يشبع الحاجة المعرفية للمتلقي بل أشبع جوعه الفني باستخدامه للحوار بصفته عنصرًا فنيًا هامًا في القصة، وهو لم يركز على الزمان الذي يمتد على مستويين الأول، حديث مع زهير عن توابع الشعراء والكتاب، ورحلته التي لم يحدّد زمنها، والثاني: لقاءه بتابع امرئ القيس ونيل الإجازة منه، وهنا لا بدّ لي من القول: إن هذه القصة هي قصة شخصية أولاً وأحداث وسلوك ثانيًا، محورها ابن شهيد وهو نقطة الارتكاز فيها.

والرسالة بالجملة تصور تدمره على دهره الذي أوجده بين قوم ضاع أدبه فيهم، فلم ينصفوه، ولا غرابة في ذلك فهم كما أخبر عنهم، حظهم من الفهم الحفظ، ومن العم الذكر، وهذا حظ القصاص، وأعلى منازل النواح، فترى المنخرق منهم إذا قرئ عليه الشعر يذوى أنفه، ويكسر طرفه وإذا عرضت عليه الخطبة يميل شقه، ويلوى شذقه.

ويرد ابن شهيد حاله وحال أمثاله إلى الفتنة التي ترى الفهم فيها بائع السلعة، خاسر الصفقة، يلمح بأعين الشنآن، ويستثقل بكل مكان.

نشأة النقد الأدبي في الأندلس

ومن المعلوم قد تطوّر العلوم المختلفة في الأندلس بالرحالة إلى الشرق، فأخذوا فيها الفنون الجديدة والمختلفة، منها النقد الأدبي، ثم انتقلوا إلى بلادهم الأندلس، فساهموا في نشأة النقد الأدبي في الأندلس، كما استمرّ الأندلسيون زماناً على الاكتفاء مما يردّهم من المشرق من ثمرة الفكر، ويعيننا من ذلك هنا الشعر والنثر والدواوين والآراء النقدية والأدبية، وغير ذلك .

وقد استمرّ إعجاب الأندلسيين بالمشاركة وبما هو مشرقي إلى آخر عهد المسلمين بالأندلس، إلا أنه مرت عليهم فترة أحسوا فيها بأنهم "اندلسيون" فأنجبت بلادهم علماء وشعراء وأدباء وشيوخاً في كل فن.

ومن المعروف أن الفترة الحقيقية لنهضة الأدب في الأندلس تبتدئ ببداية الحكم الأموي في عهد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨هـ - ٧٥٥م، وذلك أن كثيراً من أنصار الأمويين لاذوهم في إقليم الأندلس، وكان أكثرهم مثقفين ثقافة واسعة فأثروا على غيرهم، هذا هو السبب الأول في نشأة النقد في الأندلس، ولكن يامعان النظر في مصادر الأندلسية علمنا أن ههنا أمراً آخر سواه ازدهر به النقد الأدبي في الأندلس، وهو: أن الرحالة والمسافرين من الأندلس إلى المشرق من طلاب العلم وقصاد الحج وسواهم عادوا إلى بلادهم متسلّحين بثقافة مشرقية جديدة تستدعي التفات النظر، وجعلوا ينقلون ما لديهم من علوم ومعارف إلى سكّان بلادهم.

ومن الحقيقة أن النقد الأدبي كان ذاتياً، وتقليدياً في الأندلس حينما كانت الحركة النقدية في المشرق أصيلة واسعة نشيطة.

كما لا يخفى على دارس الأدب المشرقي أن النقد الأدبي ازدهر في العصر الأموي في ثلاث بيئات، وهي الحجاز، والعراق، والشام .

ففي الحجاز كثرت المجالس الغنائية والأدبية التي يتلقّى فيها الشعراء والمتأدّبون مما أدى إلى نشاط الحياة الأدبية في ذلك الوقت، ومن أشهر ناقدى هذه البيئة عبدالله

بن أبي عتيق وسكينة بنت الحسين (١١٧ هـ) التي كانت تجمع الأدباء في بيتها يسمعون الطرب ويخوضون في المناقشات والمناضرات ، وروى عن أبي عتيق بعض انتقادات لطيفة، وكان يفضل شعر عمر بن أبي ربيعة ، ويقول ماعصى الله عزوجل بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبي ربيعة^١.

وهناك مجالس تنعقد في المساجد مثل المسجد الحرام أو الحرم النبوي بالمدينة تجري فيها مناقشات وأحاديث حول الشعر والأدب، ومن أبرز علماء هذه المجالس ابن عباس وقصته مع نافع بن الأزرق مشهورة. أما في العراق:

فقد استعاد العرب ذكريات سوق عكاظ بسوق المربد والكناسة التي كان يحضرها الناس للاستماع إلى جرير وفرزدق والأخطل الذين أغنوا الأدب العربي بتلك النقائض الجميلة والتي تبين مقدرة كل منهم وطول باعه ، وشغل التميز بين الثلاثة وهو جرير، وفرزدق، والأخطل، حيزاً كبيراً من تفكير النقاد ومن محاوراتهم، وكانت لهم أحكام نقدية في ميزة كل شاعر ووجوه ضعفه ووجوه قوته ، وكذلك لهم أحكام في الموازنة بين الشعراء^٢ أما في الشام:-

نرى شعر المديح قد طغى على غيره من الأغراض لمكانة دمشق من الخلافة وتشجيع بني أمية الشعراء، وجرى شعر المديح. وفي هذا يقول الأديب أحمد أمين:

”والأدب الذي يناسب القصور هو أدب المديح ، لهذا لوّ الأدب الشامي بلون المديح ولوّ النقد بلون الأدب“^٣.

^١ تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص ٢٣٥ د ، رضوان الدايه

^٢ النقد الأدبي لأحمد أمين، ص ٤٢٤ ٤٢٦

^٣ النقد الأدبي لأحمد أمين، ص ٤٣٠

وخير من نقد هذا اللون الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي نقد بعض قصائد جرير وعبد الله بن قيس الرقيات وغيرهما.

فإذا وصلنا إلى العصر العباسي نرى أن الحضارة العربية بلغ أوج مجدها فعمّ الرخاء، ومال الناس إلى حياة الترف، واتصل العرب بغيرهم من الأمم في فن طريق الترجمة التي نشطت في ذلك الوقت، وأصبح الذوق الفطري في حكم المعلوم وحلّ محلّه الذوقي الثقافي، كذلك أصبح النقد يأخذ مادّته من عدة روافد أولاً: الشعراء والكتاب أمثال بشار بن برد وأبي نواس أبي تمام وعبد الله المعتز وغيرهم.

ثانياً: نقد اللغويين الذين جمعوا ما باستطاعتهم جمعه من اللغة والشعر والأخبار فدوّنوا ذلك في مؤلفات وكانت لهم بعض الملاحظات النقدية المهمة ومن أمثال هؤلاء الأصمعي، أبو عمرو بن العلاء، وابن سلام وغيرهم.

ثالثاً: المتكلمون الذين اهتمّوا بمسائل البيان والبلاغة لاتصالها بما كانوا ينهضون به من الخطابة والمناظرة.^١

وفي نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري، اتّجه النقد إلى المنهجية والمقارنة وكان لإنقسام النقاد في تفصيل أبي تمام علي البحتري و العكس أثر كبير في دفع عجلة النقد فألف الصولي (ت ٣٣٥هـ) كتابه "أخبار أبي تمام" ثم ظهر بعد ذلك كتاب "الموازنة" لأبي القاسم الأمدى (ت ٣٧٠هـ) ويُعدّ هذا الكتاب من أعظم كتب النقد وأجلها، فيه أخبار الشاعر التي هي له والتي عليه بمعنى ما ذكر في الثناء علي شعره وما نقل من معانيه والكتاب بشكل عام دفاع حار عن أبي تمام وهجوم على خصومه.^٢

^١ تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص ٢٢٢

^٢ نفس المصدر، ص ٢٥١

ثم جاء المتنبّي فملأ الدنيا وشغل الناس وتارت حوله خصومات عنيفة بعضها في عصره ، وامتد بعضها الآخر إلى ما بعد عصره ، وأشهر كتاب ألف في هذا المجال ”الوساطة“ للقاضي الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) .

هذه إلمامة سريعة عن صورة النقد في المشرق ، والآن نريد أن ننقل من هذه الإشارات العابرة إلى حالة النقد الأدبي في الأندلس، والذي يُعدّ صدى لتلك الاتجاهات التي وجدت عند المشرقيين.

كما بينا سابقا ان النهضة الحقيقية للأدب الأندلسي كانت مع بداية عهد عبدالرحمن الداخل فمن الطبيعي أن لا تكون أي إشارات نقدية تستحق الذكر قبل هذه الفترة ، لأن النقد كما هو معروف، مرحلة ثانية تعتمد على الأدب الذي هو مصدر مادته.

وفي الواقع أن الأندلسيين ميزوا الشعر، وخاصة قبيل عصر الطوائف، بين مذهبين القديم والجديد وكانوا يسمّون المذهب الأول مذهب ”العرب“

والثاني مذهب المحدثين، ويقصدون بالأول فخامة اللفظ وجزالته والتزام صور العرب ومسلكهم في التعبير^١

وهذا هو معنى قول ابن حزم في ”شعر جعونة“ أحد شعراء الأندلس^٢ فهو جار على مذهب الأوائل وقول الزبيدي إن الرباحي – ”الشاعر الأندلسي نظم قصيدة في الرثاء علي مذهب العرب“ وقولهم أيضا إن أبا بكر الزبيدي رثي شيخه القالي البغدادي بقصيدة^٣ ”جزلة الألفاظ كثيرة الغريب“ صاغها صوغ فحول العرب.

وهذا النقد يلتفت في أكثر الأحيان إلى النحو والصرف واللغة ووضع الكلمة في موضعها المناسب من أمثلة ذلك ما يروي عن ”جودي“ النحوي الأندلسي الذي

^١ تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص ٢٦٣

^٢ تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص ٤٨

^٣ يتيمة الدهر، ج ٢، ص ٧٠

تزوّد من المشرق وصنف في النحو، وكانت له حلقة مشهورة يثّ علمه فيها ،
وتتدارس فيها الأخبار والأشعار، وفي حلقة أنكر على عباس بن ناصح الشاعر
الأندلسي قوله:

يشهد بالإخلاص نُوتُيُها لله فيها وهو نصرانيّ

فلحن حين لم يشدد ياء النسب ، وكان بالحضرة رجل من اصحاب عباس بن
ناصر. فسأه ذلك فقصد إلى عباس— وكان مسكنه الجزيرة _ فلما طلع على عباس
قال له : ما أقدمك أ عزك الله في هذه الآوان ؟ قال أقدمني لحنك! قال عباس :
وكيف ذلك؟ فأعلمه بما جرى من القول في البيت ، قال : فهلا أنشدتهم بيت
عمران بن حطان،

يوما يمان إذا لاقيتُ ذايمن وإن لقيت معدياً فعدنانيّ

قال : فلما سمع البيت كرّر راجعا فقال له عباس لو نزلت فأقمت عندنا، قال
مابي إلى ذلك من حاجة، ثم قدم قرطبة فاجتمع ”بجودي“ وأصحابه فأعلمهم^١ و
من ذلك أيضا: ما رواه ابن سعيد من أن عباس بن ناصح الثقفي الشاعر المعروف
وفد مرة على قرطبة في هذه الحكم الربضي. فجاءه أدباء ها للأخذ عنه فمرّت عليهم
قصيدة.^٢

لعمرك ما البلوى بعار و لا العدم إذ المرء لم يعدم تقى الله والكرم

حتى انتهى القارى إلى قوله:

تجافّ عن الدنيا فما لمعجّر ولا حازم إلا الذى خط بالقلم

^١ تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص ٢٧٢ ٢٧٣

^٢ المغرب لابن سعيد، ج١، ص ٣٢٤، ٣٢٥

فقال له يحيى الغزال. وهو حدث. أيها الشيخ و ما الذى يصنع مفعّل مع فاعل؟
فقال كيف تقول أنت ! قال (تجاف عن الدنيا فليس لعاجز) فقال عباس: والله لقد
طلبها عمّك ليالى فما وجدها.^١

وهكذا اعترض الخلفاء والكبراء على الشاعر من حيث اللغة و المعنى ومن
ذلك ما رواه الحميدى حين يقول^٢ ”لما قدم صاعد بن الحسن اللغوى على المنصور
بن أبي عامر جمعنا معه فسألناه عن مسائل من النحو غامضة، فقصر فيها، فلما راه
إبن أبي عامر كذلك قال : دعوه، فهو من طبقتى فى النحو، أنا أناظره ، قال : ثم
سألنا صاعد فقال:

ما معنى قول إمري القيس :

كأنّ دماء الهاديات بنحره عصارة حنّاء لشيب مرجّل :

هذا واضح و إنما وصف فرسا أشهب عقرت على الوحش فتطائر دمها إلى
صدره فجاء هكذا، فقال صاعد : سبحان الله ! أنسيتم قوله قبل هذا فى وصفه:

كميت يزّل اللبد عن حال متنه كما زلّت الصفواء بالمتنزل

قال فبهتنا والله، وكأنا لم نقرء هذا البيت قط. واضطرنا إلى سؤاله عنه، فقال إنما
عنى أحد وجهين : أما أنه تغشّى صدره بالعرق، و عرق الخيل أبيض فجاء مع الدم
كالشيب، وإما شيئاً كانت العرب تصنعه وهوائها كانت تتسّم باللبن الحارّفى
صدور الخيل، فيتمعّط ذلك الشعر وينبت مكانه شعر أبيض فأياها عنى أحد الوجهين
فالوصف مستقيم.

أما مذهب المحدّثين:

فيقصّدون به النهج على طريقة أبي نواس وأبي تمام وإبن المعتز، والبحثري،
وقد نالت هذه الطريقة من القسط الأكبر من إعجابهم حتى جعلوا يُنسجون على

^١ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ١٥٧

^٢ جذوة المقتبس، ص ٢٣٤

منوالهم، ومن البين أن صدى الخلاف بين النقاد عن الطائيتين قد انتقل إلى الأندلس، وإن لم يأخذ طابع الحدة الذي تار بها في المشرق.

فجاء المتنبي فكما شغل أهل المشرق كذلك شغل أهل الأندلس أيضاً، ووجد من يتعصب له وكان ابن دراج^١ يسمى متنبي الأندلس.

وشرح بعض الأدباء الأندلسيين ديوان المتنبي مثل أبي القاسم بن الإفليلي وغيره، يقول الدكتور الدايه:

”ولم يلبث أن ظهر المعري وانتقل كثير من شعره وكتبه إلى الأندلس وبان أثره على الشعراء والكتّاب، ولعل في هذا ما يكفي للبرهنة على أن الاتجاهات النقدية في الشرق كان لها أثر واضح وملحوس في النقد الأندلسي الذي لم يبدأ في الاستقلال إلا على يد ابن شهيد وابن حزم وخاصة الأول، منهما الذي استطاع أن يبنى منهجاً نقدياً واضحاً في النقد الأدبي في الأندلس“.^٢

وكما كانت مشكلة السرقات موضوعاً هاماً في النقد الأدبي في المشرق عند النقاد كذلك أخذت هذه المسئلة أهمية بالغة في الأندلس منذ البداية، وقد حفظت لنا المصادر الأندلسية صوراً من ذلك وخاصة في مجلس الخلفاء والأمراء من ذلك ما يُروى عن المنصور أنه جئ إليه ”بوردة“ في غير أيامها، لم تستم فتح كمامها“^٣ فقال فيها صاعد على الارتجال:

أنتك أبا عامر وردة يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فقطعت بأكمامها رأسها

^١ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٤٤

^٢ تاريخ النقد الأدبي، د/ الدايه، ص ٢٦٨

^٣ الذخيرة، ق ١ ج ١، ص ٩٤

فسر بذلك المنصور، وكان ابن العريف حاضرا، فحسد وجرى إلى مناقضته، وقال لابن أبي عامر: إن هذين البيتين لغيره وقد أنشدنيهما بعض البغداديين بمصر نفسه، وهما عندى على ظهر كتاب بخطه، فقال له المنصور: أرنيه، فخرج ابن العريف وركب وجعل يحث حتى أتى مجلس ابن بدر، وكان أحسن أهل وقته بديهة فوصف له ماجرى :

عشوت إلى قصر عباسه وقد جدل النوم حراسها
فأليفتها وهي في خدرها وقد صرع السكر أناسها
فقلت: أسار على همة فقلت: بلى، فرمت كاسها
ومدت يديها إلى وردة يحاكي لك الطيب أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها رأسها
وقالت خف الله لا تفضحن في ابنه عمك أنفاسها
فوليت عنها على عفة وما خنت ناسي ولا ناسها

فطار ابن العريف بها وعلقها على ظهر كتاب بخط مصري، وروى وتحيل بمداد أشقر. ودخل بها على المنصور، فلما رآها اشتد غيظا على صاعد. وأهم كاتب ظهر قبل ابن شهيد وابن حزم في الأندلس هو ابن عبد ربه^١ (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ = ٨٦٠

^١ أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حُدَيْر بن سالم، أبو عمر: الأديب الإمام صاحب العقد الفريد. من أهل قرطبة. كان جده الأعلى (سالم) مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية. وكان ابن عبد ربه شاعرا مذكورا فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها. له شعر كثير. منه ما سماه (المحَصَّات) وهي قصائد ومقاطع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل والنسيب. وكانت له في عصره شهرة ذائعة. وهو أحد الذين أثروا بأدبهم بعد الفقر. أما كتابه (العقد الفريد - ط) فمن أشهر كتب الأدب. سماه (العقد) وأضاف السَّاخ المتأخرون لفظ (الفريد). وله أرجوزة تاريخية ذكر فيها الخلفاء وجعل معاوية رابعهم ولم يذكر عليا (رض) فيهم. وقد طبع من ديوانه (خمس قصائد) وأصيب بالفالج قبل وفاته بأيام. أنظر. الأعلام ص ٢٠٧

٨٦٠ - ٩٤٠ م) الذي اشتهر بمؤلفه الجليل "العقد الفريد" وقد جمع فيه كثيرا من الأشعار والأخبار والقصص، والحكاية، وخاصة من أهل المشرق فكأنما هي بضاعتهم ردت إليهم ولانكاد نلمس في هذا الكتاب الشخصية الأندلسية المستقلة وإنما هو لاحق بكتاب المختارات والمحاضرات على شاكلة ما كان شائعا في الشرق مثل بعض كتب الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وغيرهم.

من كل ما سبق يتبين لنا أن النقد الأدبي في الأندلس لم يستطع أن يأخذ شكله المميز وشخصيته المستقلة، وإنما اعتمد على الذوق الشخصي والحكم اللغوي، حتي جاء ابن شهيد فكوّن له منهجا واضحا وطريقة جليّة فكان بذلك واضع أسس النقد الأدبي في الأندلس وهذا ما لاحظته الدكتور احسان عباس.

"ولعل أعظم اثنين تمرّساً بالنقد في القرن الخامس، وربما ظلّا أعظم من نلقاهما في تاريخ النقد هنالك، هما ابن شهيد وابن حزم، وكانا صديقين يلتقيان على بعض شئون الحياة".^١

مساهمة ابن شهيد في تطور النقد الأدبي

لم يكن ابن شهيد شاعرا وكاتبا ينظم الشعر ويدوّن الرسائل فحسب، وإنما كان ذارأى عن كثير من المشكلات الأدبية المختلفة، منها ما يتعلق بالبيان والبلاغة وما يشترط فيمن يتصدى لهما، ومنها ما يتعلق بالسرقة وما تنطوى عليه (في رأيه) من ضروب التقصير والسذاجة والسطحية، أو ما يتعلق بسمات الأديب الناجح وما يشترط فيه من صفات طبعية ومكتسبة، ولا بدّ لنا قبل التفصيل عن هذه الآراء من الإشارة إلى لفظتين رئيسيتين استعملهما أبو عامر في كلامه، وهما اللفظ والمعنى :

اللفظ والمعنى:

لقد اختلف النقاد اختلافا كبيرا حول قضية اللفظ والمعنى فمنهم من آثر اللفظ على المعنى، ووضعوا الجاحظ على رأس هذه الفرقة،

^١ تاريخ النقد الأدبي عند العرب، لإحسان عباس، ص ٤٧٥

ومنهم من أثر المعنى على اللفظ قيل إن عبد القاهر الجرجاني من أصحاب هذا الرأي.

وفريق آخر: رأيه متوسط في هذا الأمر وهو أرجح أيضا:

هو أن المعنى روح واللفظ جسد ولا غنى لأحدهما عن الآخر، ومن هؤلاء ابن شهيد وابن رشيق وغيره من النقاد.

وأما هذا الرأي الذي بينّا أنه أرجح الآراء فهو رأى ابن شهيد أيضا، فأتى برأي يستحق التقدير قال: إنما يستحق إسم الصناعة بتقحم بحور البيان وتعمد كرائم المعنى والكلام^١ "فتساوى عند ابن شهيد الألفاظ والمعاني من حيث الأهمية، ويرى أن من الواجب على الأديب اختيار الجيد منها، ويعبر عن الألفاظ بالكلام وهذا التعبير لم يكن ارتجاليا من ابن شهيد وإنما كان له هدف في نفسه لأنه أدرك الصورة الأدبية في أوضح شكل لها، بل عبر عنها بنفس التعبير الحديث فقال :

"وإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب، واستيفاء مسائل النحو، وإنما يقوم بها الطبع مع وزنه من هذين: النحو والغريب؛ ومقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه، فمن كانت نفسه في أصل تركيبه مستولية على جسمه، كان مطبوعا روحانيا، يطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيأتها، وأرق لبساتها، ومن كان جسمه مستوليا على نفسه _من أصل تركيبه _والغالب على حسه _كان ما يطلع من تلك الصور ناقصا عن الدرجة الأولى في الكمال والتّمام، وحسن الرونق والنظام، فمن كانت نفسه مستولية على جسمه فقد تأتى منه في حسن النظام، صور رائعة من الكلام"^٢.

ومن الملاحظ أن ابن شهيد هو أول ناقد استطاع أن يعبر عن الصورة الأدبية بهذا التعبير، بل إن كلامه كان أقرب إليها من كلام ناقد آخر.

^١ الذخيرة، ق ١ ج ١، ص ١٦٦

^٢ نفس المصدر، ق ١ ج ١، ص ١٩٧

وكذلك هناك نص آخر لابن شهيد ينوّه فيه بالنظم مما يدل على أن هذه الفكرة يعنى "نظرية النظم" قد تبلورت في ذهنه فقال :

"إن للحروف أنسابا وقربايات تبدوا في الكلمات، فإذا جاور النسيب النسيب ومازج القريب القريب، طابت الألفة، وحسنت الصحبة، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر، وظلت المخابر، وللعذوبة إذا طلبت والفصاحة إذا التمسست قوانين من الكلام".^١

ويشير ابن شهيد أيضا إلى ناحية مهمّة في هذه القضية وهى الاحتراس من خداع الألفاظ وحلاوتها، إذا كانت لا تحمل معنى كريما أو كان من الممكن التعبير عن هذا المعنى بجملة واحدة فيعبر عنه بجملة متعددة مما يؤدّى على تكرار الألفاظ وتعدّد الأسماء دون الحاجة إلى ذلك، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن البلاغة في الإيجاز بأن تكون الألفاظ على قدر معناها دون زيادة أو نقصان ، قال ابن شهيد:

"فقد ترى الشعر فضيّ البشرة، وهو رصاصي المكسر، ذا ثوب معضّد أو مهلهل، وهو مشتمل على بهق أو برص، مبنياً بلبن التماثيل، وصفوان التهاويل، وهو لا يجن صاحبه عن النسيم فضلاً عن الحرجف، ولا يقيه رقيق ريق الندى فضلاً عن شؤبوب^٢ الكنهور، وقد ملحته ملاحاة الأسماء، واتّقد فيه الهوى، واضطربت في جانبه جانبه نيران الجوى، ولمع فيه البرق، واستنّ فيه الودق، وسفحت عليه الدموع، وبان فيه الخشوع، وهو (كسراب بقية يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) (النور: ٣٩) لا يستحق صاحبه غير أن يكون تلعباً، أو صاحب براعة".^٣

^١ رسالة التوابع والزوابع، ص ٨٠

^٢ شؤبوب: جمع الشأبيب معناه الدفعة من المطر والكنهور: السحاب المتراكب التخين

^٣ الذخيرة، ق ١، ص ٣١٨

قد اتّضح بهذا التفصيل أن ابن شهيد أول ناقد عربي اهتمّ بهذه الناحية المهمة في قضية اللفظ والمعنى، مما جعل تعبيره عن الصورة الأدبية أقرب إلى التعبير الحديث في النقد الأدبي.

النقد والبلاغة والبيان

كما بينا سابقا أن اللفظ والمعنى هما لفظتان اختلط معنى كل منهما بمعنى الأخرى، هكذا البلاغة والبيان، فإن أبا عامر يخلط بينهما ولا يكاد يميّز إحداهما عن الأخرى في المعنى، وهذا أمر لا ينفرد به وحده وإنما يشاركه به كثير من الباحثين السابقين له حيث خلطوا بين هاتين اللفظتين وكثيرا ما أطلقوا إحداهما وأرادوا الأخرى. وهكذا بين الدكتور شوقي ضيف فقد ذكر الدكتور مسالة اختلاط البلاغة بالنقد في معرض كلامه عن نقد الجاحظ في البيان والتبيين والحيوان وعن نشاط المتكلمين الواسع. فقال:

”وواضح من كل ما سبق أن نشاط المتكلمين كان واسعا وأنهم تحدّثوا في الشعر كما تحدّثوا في النثر وعنوا باللفظ كما عنوا بالمعنى. واختلطت عندهم كما نرى عند الجاحظ مسائل النقد بمسائل البلاغة، ولعلهم كانوا السبب في أن النقد العربي لم يتميّز منه البلاغة تميّزا تامّا، بل ظل دائما ممتزجا بها وحتى في النقد المقارن عند الآمدي وأمثاله، كان النقاد يناقشون الشعراء ويوازنون بينهم على أسس بلاغية وبذلك استمرّ العرب على مرّ العصور لا يفرقون بين النقد والبلاغة.“^١

على أن أبا عامر لم يرد بالبلاغة ما أراد البلاغيون منها، وإنما أراد البلاغة التي تعني الوضوح والسهولة والإيجاز. وهذا غير البلاغة بمعناها الاصطلاحي الذي يضمّ جملة علوم البديع والبيان والمعاني، وكذلك في البيان، حيث أراد أبو عامر الإفصاح والوضوح وهو أيضا غير المعنى الاصطلاحي للفظ البيان.

^١ في النقد الأدبي، دكتور شوقي ضيف

”ولعل أقرب المعاني التي أفادتها لفظتا البلاغة والبيان لدى السابقين قبل أبي عامر من المعنى الذى أراده، ذلك _ المعنى الذى أورده الجاحظ في البيان والتبيين حين عرف البلاغة كما يفهمها الفارسي واليوناني والرومي والهندي“^١.

ثم يرى أبو عامر بن شهيد بأن قوة البيان والملكة على أصول البلاغة والفصاحة هي أصلاً موهبة فطرية لا تكتسب فقط بالممارسة والقراءة، ولكن اشترط في الأديب أن يكون مطبوعاً بفطرته، إذ الطبع أول آلات الكتابة كما أنه أول درجات البيان، ولا يتهياً أى قدر من النجاح لأى كاتب ما لم يكن مطبوعاً، على أن الطبع لا يشترط الكثير من حفظ مسائل النحو والغريب وإنما يحتاج إلى قدر معين يتلاءم والطبع الذى عليه يتكلم كما يقول ابن شهيد:

”وإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب، واستيفاء مسائل النحو، وإنما يقوم بها الطبع مع وزنه من هذين“.

واستطرد ابن شهيد يقول، وهو يحاور تابعة ابن الإفليحي.

”فقال لي: دع عنك، أنا أبو البيان، قلت: لاها الله! إنما أنت كمغنٍ وسط، لا يحسن فيطرب، ولا يسيء فيلهي، قال: لقد علمنيه المؤدّبون، قلت ليس هو من شأنهم، إنما هو من تعليم الله تعالى حيث قال: (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) (الرحمن: ٣ - ٤) ليس من شعر يفسر، ولا أرض تكسر“^٢.

فهنا ينفي ابن شهيد تعليم البيان إذا لم تكن هناك موهبة أو ملكة فطرية تخلق مع الشخص، ولكن لا يعنى ذلك أنه يغفل أهمية الصقل أو التدريب بل عنده أهمية كبيرة للصقل والتعليم ولن من حرّمه الله نعمة الموهبة أو الملكة فمن المستحيل تعليمه البيان وجعله ذوى الفصاحة فيحكى بقول الجاحظ:

^١ البيان والتبيين، ج ١، ص ٨٨

^٢ الذخيرة، ق ١، ص ٢٣٤

”إنا إذا أكثرينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهماً في رأس كل شهر، ولو أكثرينا من يعلمهم البيان لما قنع منا بألف درهم“^١.
ولم ينظر ابن شهيد في هذا النص إلى كثرة الدراهم أوقلتها ، وإنما نظر إلى الاستحالة، فالمعلم لن يقنع منا بآلاف الدراهم كي يعلم الصبيان البيان لأنه ليس قادراً على ذلك فهو خارج على استطاعته.

ونستطيع القول ههنا بأن موقف ابن شهيد واضح كل الوضوح :وهو أن البيان موهبة من الله تعالى تحتاج إلى الصقل والتدريب الذين يجعلانها مُنتجة وخالقة ومُبدعة.

أثر البيئة في الأديب:

أثر البيئة والمكان كان أصلاً معروفاً عند القدماء ، هكذا هو أصل ثابت عند النقاد المعاصرين ، وهو أن البيئة قد تؤثر في الآثار الأدبية كما أشار إلى ذلك الجرجاني والجاحظ وغيرهم، وعبروا عنه بمثل هذه المصطلحات كالحضارة والبداءة والمؤثرات المحلية ، وكذلك يشير ابن شهيد إلى تأثير البيئة على الأديب وأهميتها في تكوين نفيسته وانعكاس ذلك كله على إنتاجه الأدبي فقال:

”وأصل قلة هذا الشأن وعدم البيان فساد الأزمنة ونبو الأمكنة“ وكما نعرف أن ابن شهيد يعطى البيئة أهمية خاصة في تأثير البيئة على الأديب وأدبه فإذا عاش في بيئة نشطة من الناحية العلمية والأدبية توفرت لها أسباب الرقي والازدهار في جميع المجالات ، كما في عصر ابن شهيد نفسه فإن الحركة العلمية في قرطبة ذلك الوقت كانت في ذروة عزّها، وكان الناس يتفاخرون بالمكاتب واقتناء الكتب النفيسة، هكذا إذا عاش الأديب في بيئة فاسدة خاملة لا يتوفر فيها نشاط أدبي وعلمي خرج بنفيس ، وقد انعكست عليها آثار تلك البيئة فجعلت حظّها من النجاح قليلاً ، وأقرب دليل على ذلك فترة عصر الانحطاط التي تردى فيها الأدب العربي حتى بلغ الحضيض.

فباستعراض آراء ابن شهيد خاصة وغيرهم من النقاد عامة حول هذا الموضوع قد تقرر أن الأدب يختلف من زمن إلى زمن كما يختلف من مكان إلى مكان ، وأنه يتغير بتغير الأمم اليوم وتداول الدول ، فما يصح لأمة لا يصح لأمة أخرى، وما يصح لأمة من الأمم اليوم أوفى عصر معين قد لا يوافقها غدا أوفى عصر آخر، لأن تأثير البيئة زمانا ومكانا في الأديب ونتاجه أمر مسلم عند جميع النقاد وحسب. بل كانت البيئة في بعض الأحيان مقياسا لجودة الشعور ودائته كما يروي لنا صاحب الموشح فيقول:

”أتى عمر بن أبي ربيعة الفرزدق فأنشده من شعره، وقال كيف ترى شعري ، قال أرى شعرا حجازيا إن أنجد^١ إقشعر^٢ ، فقال له حسدتي فقال يا ابن أخي ، علام أحسدك ؟ أنا والله أعظم منك فخرا، وأحسن منك شعرا، وأعلى منك ذكرا“.^٣ وقد اتخذ ابن سلام الجمحي هذه القاعدة مقياسا لأحكامه علي شعر الشعراء وقال ”وأشعار قريش أشعار فيها لين فتشكّل بعض الأشكال“.^٤ وقال في موضع آخر:

”وعدى بن زيد يسكن الحيرة ويраكن الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقته، فحمل عليه شئ كثير“.^٥

ويقول ابن شهيد في هذا المجال بالذات :

”كانت الملوك تعدل ببنيتها عن التنعم إلى شظف العيش، وتدني محالهم من البادية، وتبوئهم منازل الفصاحة لتحتد أفئدتهم وتمتد ألسنتهم“.^٥

^١ معناه إن كان شعرك يروح الي مكان نجد

^٢ الموشح للمرزباني، ص ٣٢٢

^٣ طبقات فحول الشعراء، ج ٢، ص ٢٤٥

^٤ نفس المصدر ج ١، ص ١٤٠

^٥ الذخيرة ق ا ج ١، ص ١٩١

هكذا تكلم ابن شهيد عن تطور الأساليب بتطور الأزمنة واختلافها باختلاف
الأمكنة، فنبّه بذلك إلى حقيقة لا يزال يكابر فيها بعض المحدثين فيقول ابن شهيد:
”وكما أن لكل مقام مقالاً، فكذلك لكل عصر بيان، ولكل دهر كلام،
ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة، وضرب من البلاغة، لا يوافقها
غيره ولا تهشّ لسواه. وكما أن للدنيا دواً، فكذلك للكلام نقل وتغايير في
العادة“^١.

هكذا تأثرت الكتابة بأثر البيئة عما كانت عليه في العصر الإسلامي والأموي
حتى وصلت إلى طريق عبد الحميد ثم في العصر العباسي حتى وصلت على طريقة سهل
وإبن المقفع وغيرهما، ثم تطوّرت بتبدّل الزمان وتحوّل الأحوال فكانت طريقة ابراهيم
بن العباس محمد بن الزيات وإبني وهب، ثم كانت إحالة أخرى بتبدّل الزمان كذلك،
فتغيّرت أساليب الكلام حتى كانت طريقة البديع وشمس المعالي وأصحابهما.
وعوداً على بدء نقول أن ابن شهيد قد فهم تأثير البيئة على الأديب في أوضح
صوره وأكمل وجه كما هو واضح من خلال أقواله وكذلك لإبن شهيد رأي في
الحرب وأثرها على الأدب والأدباء قال:

”وإن الفتنة نسخ للأشياء، من العنوم والأهواء، ترى الفهم فيها بائر
السلعة، خاسر الصفقة يلح بأعين الشنآن، ويستثقل بكل مكان. وهذا رأينا،
وحرربنا“^٢.

ولهذا السبب نستطيع أن نقول بأن ابن شهيد أو غيره من الأدباء كانوا صامتين
بالرغم من ذلك ما أنتجه أقلامهم من شعرونثر نجدهم فيها يتحدثون عنها في بعض
الأحيان ، يقول ابن شهيد:

أفي كل عام مصرع لعظيم أصاب المنايا حادثي وقديمي

^١ الذخيرة ق اج ١، ص ٢٠٢

^٢ الذخيرة، ق اج ١، ص ١٧٩

وقال في موضع آخر:

يا كسرة دهمتنا ليس تنجبر وسبةً لحقتنا ما لها عذر^١

السرقاٲ:

إن السرقاٲ الأدبية والشعرية من أهم القضايا النقدية في نقدنا العربي القديم وبلاغتنا العربية، فلا نجد مصنفًا في النقد الادبي أو البلاغة يخلوا من الحديث، والبحث في هذه القضية، فينبغي لنا أن نبين مفهوم السرقة الادبية أولاً:

حدّ السرقة:

السرقة الأدبية هي أن يعمد الشاعر إلى أبيات شاعر آخر، يسرق معانيها وألفاظها وقد يسطوا عليها لفظاً، أو معنًاً، ثم يدّعي ذلك لنفسه.^٢

ولقد ارتبط مصطلح السرقة في التراث النقدي والبلاغي العربي بدلالات إخلافية وتمجينية فقد استهجن النقاد العرب السرقة ووصفوها بأشبع الأوصاف، فهي سرقة، وانتهاب، وإغارة، وغصب، ومسخ، وانتحال وما إلى ذلك من الأوصاف التي تقدح بالسرقة وتحقر من صاحبها، وأما رأى ابن شهيد حول هذه القضية: فقال.

”إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسنَ تركيبه وأرقَّ حاشيته،

فاضرب عنه جملة، وإن لم يكن بد فقي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن، لتنشط طبيعتك، وتقوى منتك،“.^٣

قال عبدالله سالم المعطاني عن هذه العبارة:

”هو رأى قد تفرّد به ابن شهيد بين النقاد ويدل على ذكائه ولباقة لأن تغيير

العروض يُغيّر موسيقى البيت“.^٤

^١ الذخيرة، ق اج ١، ص ١٨٩

^٢ الحركة النقدية، ص ٢١٧، لخلدون بشير

^٣ الذخيرة، ق اج ١، ص ٢٤٤

^٤ ابن شهيد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي، ص ٧١

فيتحقق نوع من الاختلاف وهذا نوع من الحيلة أو الإخفاء، ولكن على الرغم من ذلك فإن الناقد المثقف الملمّ بالأشعار لا يخفى عليه مثل هذه الأشياء فهو يستطيع أن يخرج البيت المسروق مهما حاول قائله أن يغيّر ويبدّل. ولا يؤيد ابن شهيد أخذ المعنى الذي أحسن فيه قائله فأبدع تركيبه، لأن الأخذ لا يضمن تفوقه على القائل أو المبدع، وضرب لذلك مثل بعمر بن أبي ربيعة الذي أراد أن يأخذ معنى إمري القيس حين قال^١

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال
فقال عمر بن أبي ربيعة:^٢

ونفضت عني النوم أقبلت مشية ال حباب وركني خيفة النوم أزور
قال ابن شهيد:

ألا ترى عمر بن أبي ربيعة وهو من أطبع الناس حين رام الدنو منه والإمام به كيف افتضح... أنه أساء قسمة البيت وأراد أن يلطف التوصل فجاء مقبلا بركن كركنه أزور، وابن أبي ربيعة لو ركب غير عروضه لخلص فقلت أنا في ذلك.

ولما تملأ من سكره فنام ونامت عيون العسس
دنوت إليه على بعده دنو رفيق دري ما التمس
أدب إليه ديب الكرى وأسمو إليه سمو النفس^٣

وقد ذكر ابن شهيد المقطوعة السابقة بأكملها على الرغم أن الآخذ لم يتحقق إلا في البيت الثالث وقوله: "أدب إليه ديب الكرى" وهو في هذا الصدد يشير إلى قضية في غاية الأهمية، هي حسن الأخذ وقبحه.

أخيرا :

^١ ديوان إمري القيس، ص ١٤١

^٢ ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ١٣٣

^٣ الذخيرة، ق ١، ص ٢٤٤

يمكن لنا أن نقول بأن ابن شهيد قد فهم السرقة الأدبية والشعرية خاصة، بالرغم أنه لم يستعمل لفظة "سرقة" وإنما استبدل بها لفظة "أخذ" تساهلا في أمرها، لأنه يرى أنها ليست عيبا يقدح في مكانة السارق كما عرفنا،
هكذا ولا غرابة في اهتمام ابن شهيد بالأخذ والسرقة الشعرية لأنها قضية عامة، من السهل أن يفتن إليها كل ناقد وذلك خلافا لما يعتقد الدكتور احسان عباس حينما قال:

"وقد كانت مشكلة الأخذ فيما يبدوا من أكبر المسائل التي شغلت ابن شهيد لأنها أساس من الأسس التي تعتمد عليها طريقتة الشعرية، ولأرى أن هناك سببا يدعو ابن شهيد إلى الاهتمام بالأخذ اهتماما خاصا وإنما هي قضية عامة شغلت النقاد منذ القدم حتى يومنا هذا".^١

واجبات الناقد:

يرى أبو عامر في الناقد أن يفتش عن المعاني الشريفة السامية ولا يكون همه منصرفا إلى الكتابة فقط، دون عناية بالمعنى واختياره لما يناسب المقام، فكان على الأديب الناجح أن يجمع إلى المعاني الشريفة والألفاظ السهلة الواضحة التي تؤدي المعاني بأبهى صورة وأجملها، بعيدا عن التزويق اللفظي والصنعة الكلامية كما قال ابن شهيد:

"ومن الواجب على الناقد أن يبحث عن الكلام، ويفتش عن شرف المعاني، وينظر مواقع البيان، ويحترس من حلاوة خدع اللفظ، ويدع تزويق التركيب".^٢

أما المعاني الشريفة فلا نكاد نفهم قصد أبي عامر منها ذلك، أن المعاني معروفة متداولة بين الكتّاب والشعراء على اختلاف درجاتهم وتباين ثقافتهم، فهم في تناولها

^١ تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص ١٤٢

^٢ الذخيرة، ق اج ا، ص ٢٦٥

متساوون تقريبا، وإنما يتباينون في التعبير وسرعة إيصالها إلى المخاطبين وقوة التأثير بها على نفوسهم وهذا ما يعبر عنه الجاحظ بقوله:

”والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، والمدني. وإتما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج”.^١

فيوصي ابن شهيد الناقد بأن ينظر إلى جمال اللفظ وشرف المعاني وهما ركيزته الأولى للأدب وبهما يقوم الأديب وإنتاجه الأدبي.

كذلك يستحسن في الناقد أن يكون ذكياً نافذ البصيرة فلا يخدع بحلاوة الألفاظ وزخرفتها وزينتها البراق الذي يراه من أول وهله، وإنما يجب عليه أن ينظر ويتمعن في ما تحمله من معاني وأفكار.

هكذا قال ناقد آخر، عبدالله السالم المعطاني:

”يجب على الناقد أن يكون على مستوى الأحكام التي يصدرها فلا يتسرع في الحكم على النصوص كي يكون حكمه أكثر موضوعية وأقل خطأ”.^٢

أخيراً: نستطيع أن نقول يجب على كل ناقد أن يكون على درجة عالية من الإطلاع والثقافة والإلمام بالعلوم العصرية الذي يعيش فيه، ثم يُمكن له أن يجعل الفرق بين الجيد والردّي بطريق أحسن وأجود.

^١ الحيوان للجاحظ، ص ١٣٢ ١٣١، ج ٣

^٢ ابن شهيد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي، ص ٩٩، ١٠٠

الباب الخامس

رسالة التوابع والزوابع

دراسة أدبية ونقدية

- معنى التوابع والزوابع لغة واصطلاحاً
- أقسام الرسالة
- سبب التأليف
- تاريخ الرسالة
- مقارنة رسالة التوابع والزوابع مع رسالة الغفران

التوابع والزوابع

قد قام الأدباء الأندلسيون بآثراد ذخائر الأدب العربي بواسطة كتاباتهم الأدبية الفنية بكم حائل، ومن هذه الكتابات الأدبية "رسالة التوابع والزوابع". لكانتنا الشهير ابن شهيد الأندلسي، هذه الرسالة رسالة نثرية خاطب فيها ابن شهيد صديقه أبا بكر بن حزم وعرض فيها أروع نتاجه الشعري والنثري، وقرنه إلى نتاج كبار أدباء المشرق مبيّناً تفرّده وتفوّقه، وعرض بخصومه وحسّاده من معاصريه الأندلسيين والقرطبيين.

وكما من المعلوم أن هذه الرسالة قصة رحلة خيالية إلى عالم الجن قام بها ابن شهيد إلى أرض الجنّ بصحبة جنّي اصطفاه، زهير بن نمير، ولقي شياطين المشرق وكتّابهم، وجرت بينه وبينهم مطارحات أدبية، ومناقشات لغوية، تجلّت فيها آراء ابن شهيد النقدية، وانتزع اعترافهم بتفوّقه وجودة أدبه، فضلاً عن الفكاهات والطّرف وروح الدعابة التي سرت في هذه الرسالة، والنص الذي بين أيدينا ما هو إلا قصة جمالها في نسج أسلوبها، ودقة ألفاظها، وبعد مراميها الفكرية والحضارية والفنية، قبل أن نخوض هذا البحث ينبغي لنا أن نبين أولاً معنى التوابع والزوابع.

أن التوابع: جمع تابع وتابعة ومعناه: الجنّي والجنّة يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب^١

أما الزوابع: فجمع زوبعة، والزوبعة: إسم شيطان أورئيس للجنّ ومنه سمّي الإعصار زوبعة، وأمّ زوبعة، وأبا زوبعة، يقال فيه شيطان مارد^٢ هذا هو المعنى اللغوي.

^١ القاموس المحيط ص ١٤٩ للفيروز آبادي

^٢ نفس المصدر ٥٥١

أما المعنى الاصطلاحي: فلا يُبعد أن يكون هو نفسه المعنى اللغوي، فقد قصد أبو عامر توابع لشعراء أى أصحابهم من الجن الذين لا يفارقونهم حيثما ذهبوا، وتسمى رسالة التوابع والزوابع "بشجرة الفكاهة" كما نص على ذلك الحميدى في كتابه "جذوة المقتبس"^١

وهذه الرسالة يحكى فيها أبو عامر قصة خيالية، تصوّر فيها نفسه وقد تعرف على جني اسمه زهير بن نمير في ظرف شديد توقف فيه عن الإنشاد، وهذه فكرة قديمة لدى الشعراء كما يقول بعض المؤرخين والأدباء القدامى، قد كان العرب في الجاهلية وحتى في الإسلام يعتقدون بأن لفحول الشعراء شياطين تلازمهم وتعينهم على قول الشعر، ومن ذكر هذا الجاحظ حيث قال: أما قوله

بنت عمرو وخالها مسحل الخ — روخالي هميم صاحب عمرو

فأنهم يزعمون أن مع كل فحل من الشعراء شيطاناً يقول ذلك الفحل على لسانه الشعر، فزعم البهراني أن هذه الجنية بنت عمرو صاحب المخبل وأن خالها مسحل شيطان الأعشى^٢

ثم يورد الجاحظ في الصفحات التالية أمثلة على اعتقاد الشعراء بهذه الفكرة ويعرف بعد ذلك بالزوابع والشنقاق والشيصبان.

ويورد التالي الفكرة نفسها ويؤكددها بقوله " وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقي على أفواهها الشعر وتلقنها إياه وتعينها عليه، وتدعي أن لكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه، فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود."^٣ فقد تفرغ الدكتور عبد الرزاق حميدة في كتاب خاص مستقل لمناقشة هذه الفكرة وتتبعها منذ العصر الجاهلي حتى العصور العباسية، كما عرج في بحثه على

^١ جذوة المقتبس ٣٥١

^٢ الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٣٥٨

^٣ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ج ١ ص ٧٠

صلة أبي عامر ابن شهيد بالفكرة واعتماده عليها وذكر كيف أن أبا عامر "في رسالة التوابع والزوابع اخترع لنفسه شيطانا يخرج معه في رحلة يلقي بها عددا من شياطين الشعراء والكتاب"^١ ثم يأتي إلى تسمية أبي عامر لشيطان إمرئ القيس فيقول

"أما شيطان إمرئ القيس الذي حدثنا به ابن شهيد فإسمه عينة بن نوفل، وهذا الإسم اختراع أوحى به إلى ابن شهيد شيطانا لطرفة بن العبد واختار له إسمًا لعله لاحظ فيه بعض المعنى المتصل بطرفة..

وشيطان قيس بن الخطيم الذي أورده ابن شهيد لهذا الشاعر الفارس سماه أبا الخطار... وهذه الشياطين الثلاثة الجاهلية وراءها كثير من أسماء الشياطين الشعراء وكتاب من الإسلام وبني أمية والعباسين غاية ابن شهيد من لقائهم أن يقضوا له ببطولة في الأدب شعره ونثره...^٢

ثم ينقل أبو عامر صورا عن جولات له مع زهير في أرض الجن قابل فيها توابع قسم من الشعراء والكتاب في مختلف العصور وكانت له مواقف ومشاهد صورها لنا أصدق تصوير وأبرعه،

أما النص الأصلي للرسالة فهو فصول أوردها ابن بسام ضمن كلامه في فن أبي عامر بن شهيد فقال في العنوان الذي أشار به إليها

"فصول من رسالة سماها بالتوابع والزوابع" وإن صدرت عنه مصدر هزل، فتشتمل على بدائع روائع"^٣ والعنوان الذي عرف به ابن بسام هذه الرسالة يشير إلى أن ما ذكره منها جزء أو أجزاء وليس الكل، مما يدفع إلى الظن بأن النص الأصلي لم يعثر عليه حتى الآن، كما قال الدكتور مصطفى شكعة "وهي من إحدى

^١ شياطين الشعراء - حميدة، ص ٩٥

^٢ شياطين الشعراء - حميدة، ص ٩٦

^٣ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢١٠

القصص البارعة التي تعتبر رائدة من ألون الأدب الإقناعي الأندلسي بصفة خاصة والأدب العربي بشكل عام^١

وهي من أقدم الرسائل التي ألفت في الأسلوب القصصي في القرن الرابع الهجري، وقد قام بتحقيق الرسالة وشرحها وتبويبها الأديب اللبناني الشهير بطرس البستاني ونشرها سنة ١٩٥٦م وأول من وجّه نظرنا إلى هذه الرسالة هو المرحوم الأستاذ محمد المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية ١٩٥١م، ثم عاد الدكتور أحمد ضيف فحدثنا عنها عند ما اطلع عليها خلال دراسة مخطوطة "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام^٢

وقد قسم بطرس البستاني هذه الرسالة إلى مدخل وأربعة فصول:

القسم الأول: مع توابع الشعراء

والقسم الثاني: مع توابع الكتاب

والقسم الثالث: في مجلس من مجالس الجن

والقسم الرابع: يتكوّن هذا القسم من مشهدين ، الأول يقوم أبو عامر بجولة مع زهير، والثاني: قد وصل أبو عامر إلى بركة ماء حيث يرى إوزة جميلة تسبح فيها.

المدخل:

زهير بن نمير، يتحدث أبو عامر في مدخل رسالته إلى أبي بكر بن حزم، فيذكر له كيف نعلم، ونبض له عرق الفهم بقليل من المطالعة، ثم ينتقل إلى خبر حبيب له مات، وأخذ في رثائه، فأرتج عليه وإذ بجني اسمه زهير بن نمير يتصور له ويلقى إليه بتمة الشعر، رغبة في اصطفاؤه وكما تصطفي التوابع خلالها، فتأكد بينهما الصحبة، ثم ذكر له هذا الجنّي أبياتا يستهزه بإنشادها متى أراد وأوئب بعد

^١ الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه لمصطفى شكعة، ص ٦٧٨

^٢ النثر الفني في القرن الرابع لركي مبارك، ص ٣١٨

ذلك فرسه جدار الحائط وغاب، ويذكر ابن شهيد لأبي بكر أنه كلما ارتج عليه،
أنشد الأبيات فيمثل له صاحبه الجنّي زهير بن نمير فيعين قريحته وينطق لسانه حتى
تأكدت الصحبة بينهما.

ثم ينتقل أبو عامر إلى القسم الأول من أقسام الرسالة بعد المدخل مباشرة وهو
”توابع الشعراء“

وهو لقاء يتم مع توابع الشعراء بواسطة صاحبه زهير بعد أن يتذاكر معه
أخبار الشعراء ويسأله عن إمكانية اللقاء. بمن اتفق منهم، فيطير به على متن الجواد،
ثم يصطحب أبا عامر إلى أرض الجن..

”تذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء، وما كان يألّفهم
من التوابع والزوابع، وقلت: هل حيلة في لقاء من اتفق منهم - قال: حتى استأذن
شيخنا، وطار عني ثم انصرف كلمح بالبصر، وقد أذن له، فقال: حلّ على متن
الجواد. فصرنا عليه، وسار بنا كالطائر يجتاب الجو فالجو، ويقطع الدو فالدو، حتى
التمحت أرضاً لا كأرضنا، وشارفت جواً لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر،
فقال لي: حللت أرض الجن أبا عامر، فبمن تريد أن نبدأ“^١

وهذه السطور تعد مقدمة للقسم الأول نفسه إذ أنه حتى سئل زهير له بمن
تريد أن نبدأ لم يفصل شيئاً بالنسبة للمهمة التي جاء من أجلها، وحين سأله زهير
أجابه بأن الخطباء -ويقصد الكتاب- أولى بالتقديم ولكنه إلى الشعراء أشوق
فيجيبه زهير إلى ذلك وبناء على طلبه يبدأ له بشعراء الجاهلية ويلتقي أبو عامر منهم
بصاحب امرئ القيس وطرفة بن العبد وقيس بن الخطيم، ثم يثني بالبحثري وأبي
تمام وأبي نواس والمتنبي من الإسلاميين،

وتكون له مع هؤلاء محاورات طريفة ومناقشات رائعة يخرج منها جميعاً
منتصراً فخوراً بما حصل عليه من إجازاتهم له جميعاً بعد سماع كل منهم طرفاً من

شعره في غرض يناسب ذلك الشاعر وما اشتهر به من القصائد والأغراض والأماكن التي قيلت فيها:

”قال فبمن تريد أن نبداً - قلت: الخطباء أولى بالتقديم، لكنني إلى الشعراء أشوق. قال: فمن تريد منهم - قلت: صاحب امرئ القيس. فأمال العنان إلى وادٍ من الأودية ذي دوح تتكسر أشجاره، وتترنم أطياره، فصاح: يا عتيبة بن نوفل، بسقط اللوى فحومل، ويوم دارة جلجل، إلا ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك، وسمعت من الأنسي، وعرفتنا كيف أجازتك له. فظهر لنا فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير، وحيا صاحبك“^١.

ويتخلل ذلك وصف لصاحب الشاعر - كما نرى في امرئ القيس - وحرركاته وملبسه وكلامه، بما يصور لنا الشاعر في صورة دقيقة معبرة عن شخصيته الأصلية وهذا ما فعله من جميع توابع الشعراء وخاصة صاحب أبي نواس حين ذكر أنه، عند السؤال عنه، في دير حنة، الذي يزخر بالرهبان والعباد بألبستهم وهياتهم وأبونواس في مكان مهياً قد غرق في شرب الخمر حتى غلبه فلا يكاد يبين في كلامه.

”وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل دير حنة، فشق سمعي قرع النواقيس، فصحت: من منازل أبي نواس، ورب الكعبة العليا؛ وسرنا نجتأب أدياراً وكنائس وحنات، حتى انتهينا إلى دير عظيم تعبق ورائحه، وتصوك نوافحه. فوقف زهير ببابه وصاح: سلام على أهل دير حنة! فقلت لزهير: أو هل صرنا بذات الأكيراح“^٢.

قال: نعم. وأقبلت نحونا الرهايين، مشددة بالزنانير، قد قبضت على العكاكيز، بيض الحواجب واللمحي، إذا نظروا إلى المرء استحياء، مكثرين للتسييح،

^١ الذخيرة ج ١، ص ٢١٣

^٢ الذخيرة ج ١، ص ٢٢١

عليهم هدي المسيح؛ فقالوا: أهلاً بك يا زهير من زائر، وبصاحبك أبي عامر، ما بغيتك - قال: حسين الدنان..

ونلاحظ في هذا الوصف تسمية أبي نواس ب: حسين الدنان إشارة إلى تعلقه بالخمرة وحبّه الشديد لها، ولا يقف أبو عامر عند هذا الحد وإنما يمضي في تصويره المعبر عن حالة أبي نواس ساعة زيارتهم له وما الذي سمعوه عنه قبل مقابلته، فيبدأ بوصف البيت الذي يجلس فيه بدنانه وغزلانه، ثم مجلسه وما يحويه من زهر وعطر.. وقالو: "إنه لفي شرب الخمرة، منذ أيام عشرة، وما نراكما منتفعين به. فقال: وعلى ذلك. ونزلنا وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه، و عكفت غزلانه، وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة، قد افترش أضغاث زهر، واتكأ على زق خمر، ويده طرجهارة".^١ وحواليه صبية كأظب تعطو إلى عرارة. فصاح به زهير: حياك الله أبا الإحسان! فجاوب بجواب لا يعقل لغلبة الخمر عليه. فقال لي زهير: اقرع أذن نشوته بإحدى خمرياتك، فإنه ربما تنبه لبعض ذلك، فصحت أنشد من كلمة لي طويلة:

ولرب حان قد أدرت بديره خمر الصبا مزجت بصفو خموره
فصاح من حبائل نشوته: أشجعي؟ - قلت: أنا ذاك، فاستدعى ماءً قراحاً،
فشرب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إليّ من حاله،...^٢
وعلي هذا النهج نرى أبا عامر يتحدث عن لقاءاته مع توابع الشعراء ويسرد
من أوصافهم وما حصل من الإنشاد منه أو منهم، ثم النتيجة التي وصل إليها،
وخلال ذلك يصور أحوال الشعراء وهيئاتهم وأخلاقهم وما اشتهروا به "تارة
بالتلميح وطورا بالتصريح، ومن حين لاخير يجده، يجمل كلامه بالنادرة المستملحة
فيجعل القارئ يقبل عليه في سرور واثتناس".

^١ نفس المصدر، ص ٢٢٢

^٢ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢٢٢

أما الغرض ورود سرد هذه المرحلة الأدبية ومقابلته التي نخرج بها من هذا القسم وبعد عرض الخطوط العامة التي احتوتها لقاءات أبي عامر مع توابع الشعراء فيه، فهي: أن أبا عامر كان يقصد الحصول على إجازة الشعراء الفحول ممن ذكرنا، ثم عرض نماذج من شعره، لعلها أحسن ما قال، وكانت لديه آنذاك في شتي الأغراض وبذلك حصل أبو عامر علي أمرين مهمين: إجازة الشعراء الفحول ومساواة نفسه بهم... وعرض ما لديه من محاسن شعره .

القسم الثاني :

مع توابع الكتاب

وبعد أن فرغ أبو عامر من لقائه بتوابع الشعراء أبدى رغبة أمام زهير بأنه يريد أن يزور إلى توابع الكتاب، وقد كانوا أول بالتقديم كما اعترف هو شوقه إلى الشعراء.. وفي هذا اللقاء يصطحبه زهير إلى مكان يجتمع فيه حشد كبير من الأدباء يتصدرهم تابع الجاحظ وصاحب عبد الحميد فقلت:

”مل بي إلى الخطباء، فقد قضيت وطراً من الشعراء. فركضنا حيناً طاعنين في مطلع الشمس ولقينا فارساً أسراً إلى زهير، وانجزع عنا. فقال لي زهير: جمعت لك خطباء الجن بمرج دهمان، وبيننا وبينهم فرسخان، فقد كفيت العناء إليهم على انفرادهم. قلت: لم ذاك - قال: للفرق بين كلامين اختلف فيه فتیان الجن. وانتهينا إلى المرج فإذا بناد عظيم، قد جمع كل زعيم، فصاح زهير: السلام على فرسان الكلام، فردوا وأشاروا بالتزول، فأفرجوا حتى صرنا مركز هالة مجلسهم، والكل منهم ناظر إلى شيخ أصلع، جاحظ العين اليمنى. على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة“^١.

وهكذا يفتتح أبو عامر هذا القسم من رسالته الشائقة، غير أنه يبدو أصرح منه في القسم الأول في التعبير عن غرضه، خاصة هذا الإعجاب الكبير بالنفس مما

جعله يشعر بالتفوق وذيوع الشهرة حتي يجتمع له أساطين الكتابة وأعلام البيان ليعرضوا عليه أمرا بيانيا اختلفوا فيه، ثم هذا الاحترام الزائد المتمثل في الانتظار الاستقبال وإفساح المجال له حتي يتصدر المجلس مع صاحب الجاحظ وعبد الحميد علمي البيان في العصر الأموي والعصر العباسي ... وفي ثنايا الحوار الذي يعقده مع بعض هؤلاء نلمح حرص أبي عامر علي الظهور الأعجاب بالنفس مع الانحاء على أعدائه وتسميته لقسم منهم وذكره لبعض ما كان يلاقيه من مضايقاتهم وحسدتهم، ويصوغ كل ذلك على أنه أمر معروف متوقع، فأن أدبيا مشهورا مثله لا بد أن يكون له حساد ومبغضون، لهذا بادر صاحب الجاحظ وصاحب عبد الحميد بالسؤال عن هؤلاء ومن منهم أشد عليه من غيره وما الذي فعله تجاههم وكيف كان نضاله ضدهم، يذكر ذلك بعد جملة مناقشات مع صاحب عبد الحميد وصاحب بديع الزمان الذي يتصدى له ويتحداه أبو عامر ببعض رسائله كرسالته في الحلواء ..

وحين يورد ابو عامر مسألة حساده وكلامه عليهم، لا يوردها مجردة وإنما يسبقها ببحث مسألة مهمة في نثره لعلها كانت مما يشغل باله إذ هي ثغره ينفذ منها هؤلاء الحساد-ألا وهي السجع وكثرة استعماله له- فيحاول تبريرها بالحجة والحصول على إذن بها من صاحبي الجاحظ وعبد الحميد وإذا تم له ذلك تناول حساد إذ لم يبق لهم سلاح يحاربونه به ..

”وقالا: إن لسجعك موضعاً من القلب، ومكاناً من النفس، وقد أعرتة من طبعك، وحلاوة لفظك، وملاحة سوقك، ما أزال أفنه، ورفع غبنه. وقد بلغنا أنك لا تجارى في أبناء جنسك، ولا يمل من الطعن عليك، والاعتراض لك، فمن أشدهم عليك - قلت: جاران دارهما صقب، وثالث نابته نوب، فامتطى ظهر النوى، وألقت به في سرقسطة العصا. فقالا: إلى أبي محمد تشير، وأبي القاسم وأبي بكر -

قلت: أجل. قالاً: فأين بلغت فيهم - قلت أما أبو محمد فانتضى علي لسانه عند المستعين، وساعدته زرافة استهواها من الحاسدين، وبلغني ذلك فأنشدته شعراً، منه:

وبلغت أقواماً تجيش صدورهم علي، وإني منهم فارغ الصدر^١

وينال في ذلك أبا القاسم الإفليلي فيرد عليه تابعه، ثم يتدخل صاحب البديع فيجادل أبو عامر ويصف الماء أمامه وصفا يجعل البديع يتوارى من المجلس مخذولاً في غضب شديد وهنا تعتري الحيرة صاحبي الجاحظ وعبد الحميد في أمرأي عامر، فإنهما كيفما نظرا في أثارة وقوة بيانه أعجبا بما وبقياً في حيرتهما حتى صرحا بذلك له مما حملة على طلب القضاء وإصدار الحكم بالعدل والانصاف:

”وقال لي الأستاذان: إنا لنخبط منك ببذاء حيرة، وتفتق أسمعنا منك بعبرة، وما ندري أنقول: شاعر أم خطيب ؟ فقلت: الإنصاف أولى، والصدع بالحق أحجى، ولا بد من قضاء. فقالا: اذهب فإنك شاعر خطيب. وانفض الجمع والأبصار إلي ناظرة، والأعناق نحوي مائلة“^٢.

و بهذا المشهد البطولي يختتم أبو عامر هذا القسم وقد حصل على إجازة أكبر كاتبين لفترتين مهمتين من فترات الكتابة العربية والإجازة مزدوجة في النظم والنثر.

ويكون أبو عامر بذلك قد حقق الأغراض التي أرادها من هذا القسم ومن هنا إضافة إلى إظهار كفاءته الأدبية وقدرته...معالجة كثرة استعماله للسجع وحصول الإذن بذلك والكلام على حساده ومناظرتهم حتى جعلهم ينهزمون أمامه كصاحب أنف الناقة.

^١ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢٣٢ ٢٣٣

^٢ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢٣٨

القسم الثالث:

في مجلس من مجالس الجن:

ذكر المعاني المتداولة بين الشعراء :

أما هذا القسم فقد خصصه أبو عامر لمسألة مهمة في الشعر ، تلك هي سرقة الشعراء للمعاني بعضهم من البعض الآخر ، ومن أخذ فأحسن الأخذ وزاد ، ومن أخذ فقصر ولم يصل إلي درجة من سبقه في المعنى ، ويسمى أبو عامر هذا مجلساً من مجالس الجن ، حضره مع زهير :

”وحضرت أنا أيضاً وزهير مجلساً من مجالس الجن، فتذاكرنا ما تعاورته الشعراء من المعاني، ومن زاد فأحسن الأخذ، ومن قصر، فأنشد قول الأفوه بعض من حضر:

وترى الطير على آثارنا رأي عين ثقة أن ستمار وأنشد آخر
قول النابغة:*

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب
تراهن خلف القوم خزراً عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المranب جوانح
قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجيشان أول غالب^١
إلى آخر الخبر...”

^١ الذخيرة ج ١، ص ٢٤٢

* وأبيات النابغة من قصيدة طويلة في مدح عمرو بن الحارث الأصغر الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شمر ، حين هرب إلى الشام لما بلغه أن مرة بن ربيعة بن قريش وشى به إلى النعمان بن المنذر ومطلعها:

كليبي لهم يا أمية ناصب وليل أفاسيه بطيئ الكوكب

ديوان النابغة ، ص ٤٢ ٤٥

ويستمر في ذكر هذه الأمثلة الشعرية وغيرها مشيراً إلى من أحسن وأجاد،
ومن عجز عن المعنى وتثاقل في تأديته كما يجب، ثم بين كيف جاذب الفحول
وأخذ معانيهم فزاد وأجاد ويسوق ذلك مساق سؤال يسأله فيجيب عليه:
فقال لي فاتك بن الصقعب: فهل جاذبت أنت أحداً من الفحول ؟ قلت
نعم، قول أبي الطيب:

أخلع المجد عن كتفي وأطلبه .. وأترك الغيث في غمدي وأنتجع
قال لي: بماذا ؟ قلت بقولي:

ومن قبة لا يدرك الطرف رأسها تزل بها ريح الصبا فتحدر
إذا زاحمت منها المخارم صوبت هويّاً على بعد المدى وهي تجأر
تكلفتها والليل قد جاش بحره وقد جعلت أمواجه تتكسر
ومن تحت حضني أبيض ذو سفاسق وفي المف من عسالة الخط أسمر
هما صاحباي من لدن كنت يافعاً مقيلان من جد الفتى حين يعثر
فذا جدول في الغمد تسقى به المنى وذا غصن في الكف يحني فيثمر
فقال: والله لئن كان الغيث أبلغ، فلقد زدت زيادةً مليحة طريفة، واخترعت
معاني لطيفة. هل غير هذا ؟ فقلت: وقوله أيضاً: "١ ..

وفي أثناء ذلك يذكر أبو عامر رأياً له في مسألة الأخذ عن الشعراء يبسطه
بعد أن ينسبه إلي غيره خلال كلامه في معنى من المعاني فيقول:
”وما زلت مقدماً لهذا المعنى رجلاً، ومؤخراً عنه أخرى، حتى مررت بشيخ
يعلم بنياً له صناعة الشعر وهو يقول له: إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك
فأحسن تراكيبه وأرق حاشيته، فاضرب عنه جملة، وإن لم يكن بد ففي غير
العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن، لتنشط طبيعتك، وتقوى منتك“٢

١ الذخيرة ج ١، ص ٢٤٦

٢ نفس المصدر، ص ٢٤٤

فكان أبا عامر ساق هذا الرأس كقاعدة ثابتة تسوغ له أخذ المعاني على حسبها ولذلك رايناه يسرد ما أخذ عن المتنبى من المعاني فاجاد وأحسن طبقا لقاعدته التي قررهما، كما رايناه يزن كثيرا من المعاني التي أخذها الشعراء كذلك وقد سبقوا إليها فمنهم من اجاد وأحسن ومنهم من عجز وقصر.. أما هو فما من معنى تناوله إلا وألبسه ثوبا جديدا وحلة قشبية.... ثم يذكر جملة من الأبيات في معني مختلفة لأبيه وأخيه وعمه وجده وجد أبيه، يسوقها جوابا على سؤال يصطنعه كذلك... ولا يفوته بعد هذا أن يختم الفصل -على عادته- بموقف بطولي يدحر فيه الخصم، وذلك بعد أن يسأله أحدهم عن المعاني الشعرية لأقربائه، وكان ابو عامر قد سئل عن شعر، من الذي قاله؟ فقال:

”قلت: أنا، قال: والذي نفس فرعون بيده، لا عرضت لك أبداً، إني أراك عريقاً في الكلام، ثم قل واضمحل، حتى إن الخنفساء لتدوسه، فلا يشغل رجلها. فعجبت منه، وقلت لزهير: من هذا الجني؟ فقال لي: استعذ بالله منه“^١

وهذا وصف لا يحتاج إلى تعليق فهو يعبر عن نفسه وعن قدرة أبي عامر علي اصطناع المواقف وتأليف الصور مضمنا كل ذلك إعجابه بنفسه وتفوقه على كل من يعرض له مهما كان عليه من النبوغ والفهم.

وبهذا ينتهي هذا القسم من الرسالة ويكون أبو عامر قد نجح كما نحسب إلى حد كبير في معالجة الأمور التي تعرض لها وكانت مما يشغل باله ويضعف ثقته بنفسه وخاصة مسألة سرق المعاني من الشعراء فإنه يحسب بذلك أنه قد برره وأزال ما قد يكون عالقا من شبهة بسببه، هذا إلى جانب تأكيده، على مقارعة الفحول فضلا عن عامة الشعراء وأنه من بيت أدب وثقافة لم يمارس الأدب ارتجالا أو ينظم الشعر تطفلا وإنما ورث كل ذلك عن أبيه وجده... وكل هذه أغراض هذا القسم أداها على خير وجه في صورة المنتصر الظافر في جميع المواقف.

القسم الرابع والأخير:

ويتكون هذا القسم من مشهدين، بينهما بعض التشابه، ففي المشهد الأول:
يقوم أبو عامر بجولة: مع زهير في أرض الجن، يصلان قراره غناء فيها عانة من
حمرالجن وبغالها ويكون له في ذلك مشاهد ممتعة مليئة بالفكاهة والنادرة بأسلوب
شائق فيقول:

ومشيت يوماً أنا وزهير بأرض الجن أيضاً نتقري الفوائد، ونعتمد أهل
الآداب منهم، إذ أشرفنا على قراره غناء، تفر عن بركة ماء، وفيها عانة من
حمرالجن وبغالهم، قد أصابها أولق فهي تصطك بالحوافر، وتنفخ من المناخر،^١
وها هنا يظهر أبو عامر براعته كذلك ومبلغ معرفته بعالم الحيوان وعاداته
وطباعه، وهذا من شارات المشهد الجديد الممتع... وإذا ما استقر به المقام يفهم من
زهير ساعة وصولهما أن شعر البغلة شهباء وآخر لعمار، قد اختلف الجن فيهما وهم
ينتظرونه للحكم في ذلك، فيسمع من الإثنين ثم يحكم للبغلة على الحمار بأسلوب
يناسب لغة الحمير والبغال وينسجم مع ما ورد في شعريهما من ألفاظ:

”قللت: والله إن للروث رائحة كريهة، وقد كان أنف الناقة أجدر أن
يحكم في الشعر! فقالت: فهمت عنك، وأشارت إلى العانة أن دكينا مغلوب، ثم
انصرفت قانعة راضية، وقالت لي البغلة: أما تعرفني أبا عامر - قلت: لو كانت ثم
علامة! فأماطت لثامها، فإذا هي بغلة أبي عيسى، والخال على خدها، فتباكينا
طويلاً، وأخذنا في ذكر أيامنا، فقالت: ما أبقت الأيام منك - قلت: ما ترين،
قالت: شب عمرو عن الطوق! فما فعل الأحبة بعدي! أهم على العهد - قلت:
شب الغلمان، وشاخ الفتيان، وتنكرت الخلان، ومن إخوانك من بلغ الإمارة،
وانتهى إلى الوزارة“^٢.

^١ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢٥٢، ٢٥٣

^٢ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢٥٤

وينتهي هذا المشهد من القسم الأخير بعد أن أكد أبو عامر على غرضه الرئيس في الإعجاب بالنفس وإظهار قيمته الأدبية بين المتأدين، ولا يخفى ما حرص عليه أبو عامر من التجديد في الأسلوب بعد الأقسام الثلاثة الماضية من جهة، والإشارة إلى الأعداء والخصوم وغمز الوضع السياسي بأسلوب السخرية والازدراء حين يخبرها بأن من إخوانها من بلغ الوزارة كناية عن تولي الحكم أناس حمقي إغبياء قد لا يختلفون عن الحيوان إلا في النطق في حين أن أمثاله بعيدون منسيون لا يشعر بهم أحد.. هذا فضلا عن الوصف المعتمد على الفكاهة والنادرة، واللهو والمرح..

وبهذه الطريقة نفسها يصف أبو عامر المشهد الثاني من القسم الأخير، وفيه يصل إلى بركة ماء حيث يري إوزة جميلة تسبح فيها، تروح وتجيئ وتأتي بحركات سريعة رشيقة، تدل فيها بجمالها وتباهى بفهمها ومقدرتها، وتبدأ التحرش بأبي عامر بالاعتراض علي الحكم الذي أصدره بين البغلة والحمار، تريد بذلك إظهار جهله وعجزه وإثبات علمها وتفوقها عليه:

”وكانت في البركة بقربنا إوزة بيضاء شهلاء، في مثل جثمان النعامة، كأنما ذر عليها الكافور، أو لبست غلالةً من دمس الحرير، لم أر أخف من رأسها حركة، ولا أحسن للماء في ظهرها صبا، تثني سالفتها وتكسر حدقتها، وتلوب قمحدوتها، فترى الحسن مستعاراً منها، والشكل مأخوذاً عنها، فصاحت بالبغلة: لقد حكمتكم بالهوى، ورضيتم من حاكمكم بغير الرضا؛ فقلت لزهير: ما شأنها؟ قال: هي تابعة شيخ من مشيختكم، تسمى العاقلة، وتكنى أم خفيف، وهي ذات حظ من الأدب، فاستعد لها“^١.

ويدخل أبو عامر في نقاش مع الإوزة بعد أن يمدحها ويعاتبها عتاباً رقيقاً على عدم استقبالها له ما يليق، والذي نفهمه من المناقشة أن الإوزة امتحنت أبا

^١ الذخيرة ج ١، ص ٢٥٤

عامر بالنحو وسألته عن أمور تتعلق به فلم يجبها مباشرة وإنما راغ عن السؤال، واخذ يستهزئ بالنحو والنحويين ويقلل من قيمة النحو واللغة وخاصة في الشعر والنثر.

”فقلت: أيها الغار المغرور، كيف تحكم في الفروع وأنت لا تحكم الأصول؟ ما الذي تحسن؟ قلت: ارتجال شعر، واقتضاب خطبة على حكم المقترح والنسبة، قالت: ليس عن هذا أسألك، قلت: ولا بغير هذا أجابك، قالت: حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال، وأنا إنما أردت بذلك إحسان النحو والغريب اللذين هما أصل الكلام، ومادة البيان. قلت: لا جواب عندي غير ما سمعت“^١.

ويستمر أبو عامر في تفصيل هذه المناقشة الطريفة بينه وبين الإوزة، هي تريد من الجواب على سؤالها وهو لا يجيبها إلا كما يريد، وكأن أبا عامر أراد من هذا المشهد — بعد أن فخر بنفسه ونوع في أسلوبه في المشهد السابق — أن يستمر في سوق الكلام على لسان الحيوان بنوع آخر لما في ذلك من التنويع ودفع السامة أولاً ثم الطعن على النحاة واتهامهم بعدم الفهم وقلة العقل وفقدان الاتزان خاصة وأنه جعل الممثل للنحو والنحاة الإوزة وهي رمز البلاغة في الأدب ومثل لقلة الفهم فكأنه يريد أن يثبت بصورة غير مباشرة عدم الحاجة إلى التعمق في النحو والتخصص فيه إذ ليس له كبير أثر في الشعر والنثر كما يرى أبو عامر.

وإذ يمضي في نقاشه مع الأوزة لا يتركها — على عادته — حتى يرغمها على التسليم له بالتفوق والتزول عند رأيه فتعترف له بحق الأوز وقلة فهمه..

”فقلت: يا أم خفيف، بالذي جعل غذاءك ماء. وحشا رأسك هواء، ألا بما أفضل: الأدب أم العقل؟ قالت: بل العقل، قلت: فهل تعرفين في الخلائق أحق من إوزة، ودعيني من مثلهم في الحبارى؟ قلت: لا، قلت: فتطلي عقل التجربة، إذ

لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة، فإذا أحرزت منه وبؤت منه بحظ، فحينئذ ناظري في الأدب، فانصرفت وانصرفنا^١.

ولا يفوتنا بالنسبة لهذا المشهد ان نشير إلى غموز أبي عامر للوضع السياسي والاجتماعي إتماما لما بدأه في المشهد الأول فإنه لما بلغ الوزارة والأمانة من هم في عقول البغال وفههمها سادت الفوضى والتسيب حتى صال وجال من كان الغباء شعاره والحمق رثاءه لا يفهم من الأمور شيئا سوى الجدل والمراء من غير علم ولا ذكاء..

ويخرج ابوعامر من هذه المعركة ظافرا شأنه في جميع المعارك الأدبية التي اصطنعها وتصدى فيها للأدباء والشعراء أوتصدوا له سواء من الفحول أو غير الفحول أو الذين كانت تأخذه الهيبة من أشخاصهم كأبي نواس وأبي تمام والمتنبي أو الذين يزدرهم ولا يعبأ بهم كصاحب أنف الناقة وغير ذلك. هؤلاء جميعا أجازوا وأعجبوا بما لديه وهذا يكفيه للدلالة - كما أراد - على مبلغ علمه وفهمه وثقافته .

وبهذا تكون رسالة التوبع والزوابع قد أدت الغرض أو الأغراض التي أرادها أبوعامر منها خير أداء وأوصلته إلى المكانة التي كان يحلم بها ويرى في عجزه عن الوصول إليها نقصا كبيرا في قدرته وعييا في شخصيته الادبية حتى توصل إلى ذلك بعد أن أزاح من أمامه كل العقبات من حسد الحاسدين وشماتة الحاقدين..

سبب التأليف

كما عرفنا أن ابن شهيد قد قضى حياته في اللهو والجون والخمر والشباب، وكان يحضر مع الندماء والأمراء طول الليل والنهار، ولذا كان له أبيات كثيرة في وصف هذه المجالس الطربية والخمرية، ولكن بعد زوال حكومة العامرين لم ينل درجته العظيمة التي كان يحظى بها في ظل دولة العامرين، مع أنه بذل قصارى

^١ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢٥٦

جهوده لنيلها في العصور المتأخرة، لكن لم يمكنه أعداءه وحساده من حيث يشكون إلى الأمراء لهوه ومجونه.

قد ذكر ابن شهيد بعضا من خصومه أمثال أبي محمد القاسم الإفيلي وأبي بكر الذين كانوا يترصدون له في كل مكان ويطعنون عليه وينقدون على أشعاره وينقبون لمعائبه وقد لقي ابن شهيد من جانبهم نقدا لاذعا وجهدا شاقا، وألما شديدا، فجاش صدره وتغيظ قلبه حتى اهتدى إلى طريقة مبتدعة للمحاولة والمناقشة مع حساده ومعاصريه من الأدباء والشعراء والإجابة عن انتقاداتهم وتساءلاتهم حول مهارته في مجال الشعر والأدب فكتب هذه الرسالة كما قال البستاني أن الرسالة.

”لا تعدو هذا الغرض الذي يرمى إليه ابن شهيد وهو الطعن على أئداده ومنافسيه من الوزراء والأدباء وأهل السياسة والقلم والمنافحة عن أدبه بالرد على غمزات نقاده، ثم إظهار محاسنه وفضائله في المتقدمين والمتأخرين“.^١

كما يعيد البستاني رأيه مرة أخرى مع إضافة لمحات لأغراض أخرى للرسالة فيقول:

”فكيفما سرنا في رسالة التوابع والزوابع نجد أبا عامر شديد الإنحاء على خصمائه شديد المباهاة بأدبه ونبوغه يناقش الشرق والغرب والقديم والحديث، ويدفع حملات النقد والمتعنين ولا يرض أن يجاز إلا شاعرا وخطيبا على السواء“.^٢

وقد وافقه على هذا الرأي الأديب الشهير مصطفى شكعة فقال:

^١ رسالة التوابع والزوابع، ص ٩٦

^٢ نفس المصدر، ص ٩٧

”من الدوافع إلى كتابتها بأنه لم يلق من أدبائه المعاصرين التكرم الذى يفهم هوأهل له ولم يقدر أدبه بينهم حق قدر، بل العكس صار غرضاً وهدفاً لطعنهم فأراد أن يعطى نفسه حقها وأن ينال من الذين أهملوا ذكره حقداً عليه“.^١

نستطيع أن نقول حين ألف أبو عامر رسالة التوابع والزوابع أحسن أنه قد أبدع عملاً أدبياً مبتكراً لم يسبق إليه، يتجلى ذلك بكل وضوح من قوله في أول الرسالة: ”أما وقد قلتها أبابكر فانتظر أسمعك العجب العجائب كنت أيام كتاب الهجاء أحنّ إلى الأدباء“.^٢

تاريخ الرسالة، قد اختلف النقاد في تاريخ رسالة التوابع والزوابع، ولكن إذا أمعنا النظر في المصادر الأندلسية، نجد كثيراً من الباحثين لم يلقوا الضوء على مسألة تاريخ كتابة هذه الرسالة، مثلاً أولاً الدكتور إحسان عباس فإنه على الرغم من تخصصه في الأدب الأندلسي، قد أغفل عن مسألة زمن التوابع على كثرة ما كتب عن أبي عامر في مختلف مراحل حياته منذ نشأته حتى وفاته مشيراً إلى أهم خصائص شعره ونثره، وهكذا الدكتور أحمد ضيف في كتابه، ”بلاغة العرب في الأندلس“ وإن قد عرضه في كتابه المسئلة التقليد وغير ذلك.

وأما البستاني فإنه لم يتعرض كذلك مسألة الزمن أو شبهة التقليد في مصدرين من مصادره وهما ”دائرة المعارف“ و”أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث“، مع أنه تكلم عن أبي عامر، وهكذا سار على منوالهم الناقد المشهور الدكتور شوقي ضيف فقد أغفل عنه في كتابه ”الفن ومذاهبه في النثر العربي“ حين تكلم عن رسالة التوابع والزوابع، كذلك أغفل حنا الفاخوري مسألة الزمن عند كلامه رسالة التوابع والزوابع.

^١ الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص ٦٧٨

^٢ الذخيرة ق ١ ج ١، ص ٢١٠

أما الذين تعرضوا لمسألة الزمن وعالجوها بالأدلة المتوفرة لديهم، ففي مقدّماتهم الدكتور زكي مبارك في كتابه "النثر الفني في القرن الرابع" حين تكلم عن حياة أبي عامر وآثاره كثيرا في نشره الفني بجزئيه، قد أضاف فيه مسألة تحديد زمن كتابه رسالة التوابع والزوابع فقال في بدء البحث :

"وقد رأينا أن نحقق في المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذي وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع فلم نعتد ولكننا رأينا في الرسالة نفسها ما يدل علي أنه وضعها وهو كهل فقد جاء في الرسالة".^١

هكذا توجد بعض العبارات في كتابه تدلّ بأنها كتبت في عهد المستعين الذي بويق بقرطبة سنة (٤٠٠هـ) وحوادث أخرى تعود لتواريخ معينة، وهو أن بعض حسّاد ابن شهيد وشؤوا به عنده، ثم يرجع إلى تحديد زمن كتابه التوابع الذي قدره بحوالى سنة (٤٠٣هـ) أوسنة (٤٠٧هـ) فيقول :

"ومن هنا يمكن أن نرجّح أن رسالة التوابع والزوابع كتبت بين سنة ٤٠٣ (وسنة ٤٠٧هـ)، ومعروف أن هذه الخليفة قد حكم ما بين سنة ٤٠٣، ٤٠٧هـ".^٢

ثم يعود الدكتور مبارك إلى محاولة تحديد التاريخ كتبت فيه الغفران فيقدره بحوالي سنة (٤٢٢هـ) أو (٤٢٤هـ)، وبهذا يستنتج سبق التوابع للغفران فيقول:

"ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع بنحو عشرين سنة"^٢

وهنا طائفة أخرى من الباحثين في الأدب الأندلسي، ومن هذه الطائفة البستاني في رسالة التوابع والزوابع حين تناول الرأي القائل بسبق التوابع للغفران

^١ النثر لفني في القرن الرابع، ص ٣١٨

^٢ النثر لفني في القرن الرابع، ص ٣٢٠

بعشرين سنة، بعد أنه نسبته هذا الرأي إلى المستشرق بروكلمن دون الدكتور زكي مبارك كما يناقش البستاني في أول نقاشه.

”ليس في أخبار ابن شهيد ذكر للسنة التي وضع فيها رسالة التوابع والزوابع غير أن المستشرق بروكلمن يزعم أنها كتبت قبل الغفران بعشرين سنة، ومعلوم أن أبا العلا ألف رسالة الهزلية في أثناء عزله سنة (٤٢٤هـ) فيكون أبو عامر قد أنشأ التوابع والزوابع سنة (٤٠٤ هـ) علي رأى العالم الألماني“^١.

وقد اختلف عن هذا الرأي أعلاه الدكتور أحمد ضيف وقال:

”أن ابن شهيد هو الذي قلّد أبا العلا لأن الأول أدرك عصر الثاني وعصره يندرج في عصره فقد عاش ابن شهيد في عام (٣٨٢-٤٢٦هـ) وعاش أبو العلا (٣٦٣-٤٤٩هـ)، ولأن شهرة أبي العلا كانت ذائعة في المشرق والمغرب وكان أهل الأندلس يقلّدون أهل المشرق في كل شيء“^٢.

ومن سلك سبيل البستاني في بحث المسألة الدكتور بنت الشاطي وإن كانت قد توسّعت في نقاش المسألة ومزجت بينها بين شبهة التقليد حين ذكرت رأى الدكتور أحمد ضيف ورأى الدكتور مبارك.

وإذا جئنا إلى مناقشة الدكتور بنت الشاطي وجدناها تخلط بين مسألة الزمن وشبهة التقليد فتقول:

”تحت موضوع زمن الرسالتين“ ونبدأ بتحقيق زمن كتابة الرسالتين. قال الدكتور ضيف أن ابن شهيد هو الذي قلّد أبا العلا لأن الأول أدرك عصر الثاني، وقال الدكتور مبارك، أن أبا العلا هو المقلّد لأن رسالة التوابع كتبت قبل الغفران بنحو عشرين عاما فيما يقدر، وليس في قول أحدهما ما يقنع“^٣.

^١ رسالة التوابع والزوابع ، ص ٩١

^٢ بلاغة العرب في الاندلس، ص ٦٢

^٣ الغفران بنت الشاطي، ص ٣٠١

وبعد أن تستبعد احتمال سبق الغفران للتوابع بذكر زمن كتابة الغفران الذي كان فيه أبوعامر عليلاً وتستعرض صرفاً من شعره في العلة مما لا يتفق وروح التوابع من ذكر بعض الحوادث الدالة على كتابة الرسالة في عهد الشباب^١ تقول بعد كل ذلك :

هكذا انتهى من المسألة الزمنية قد تداعى قول الدكتور ضيف وبقي من قول الدكتور مبارك احتمال بأن الرسالة كتبت في شباب ابن شهيد قبل رسالة الغفران^٢

وهذا آخر ما تذكره الدكتور بخصيص مسألة الزمن حيث تنتقل بعدها إلى مناقشة شبهة التقليد، والدكتور بنت الشاطي إذ تصل إلى هذه النتيجة لاتقربها إلا بعد المناقشة الطويلة والتعرض لحوادث معينة مؤكدة احتمال كتابة التوابع في وقت متأخر عن الوقت الذي حدده الدكتور مبارك، ولكنها لا تحدّد الزمن بسنة معينة كما فعل الدكتور مبارك والبستاني وغيرهم.

أما الدكتور هيكل :

”فإنه يناقش مسألة الزمن حتى يصل إلى رأي قريب من رأي البستاني بل إنه ربما اعتمد عليه“^٣

على أن القول وهو القول بتقليد أبي العلا لأبي عامر خاصة وإن هذا الرأي من أقوى حججه سبق رسالة التوابع لرسالة الغفران وذلك ما ذهب إليه الدكتور مبارك بعد مناقشته مسألة الزمن وإثباته سبق التوابع للغفران فيقول:

^١ نفس المصدر، ص ٢٩٧ - ٣٠٠

^٢ نفس المصدر، ص ٣٠٢

^٣ تاريخ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ٣٨٢

وصار من المرجح أن يكون أبو العلا هو الذى قلد ابن شهيد، وقال الدكتور زكى مبارك "ولما كان الأندلسيون يقلّدون أهل المشرق في كل شئ، كان أهل المشرق أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية بالأندلس".^١

أما الأديب والمؤرخ الآخر: هو عبد العزيز محمد عيسى فقد أيد ترجيح الدكتور مبارك ضمن كلامه عن رسالة التوابع وإنها عمل خاص بأبي عامر لم يسبقه إليه أحد فقال :

"وإن كان هذا الحكم بحاجة إلى دليل فقد أوضح ذلك الدكتور مبارك ووفر علينا مؤونة البحث والتحقيق عن سبق ابن شهيد برسائلته وتقدّمه بتأليفها على تأليف أبي العلا لرسالة الغفران، إذ حقق في كتابه النشر الفني أن أبا عامر ابن شهيد ألف التوابع والزوابع قبل أن يخط أبو العلا في رسالة الغفران خطأ واحدا بنحو عشرين سنة، وإن من المرجح أن أبو العلا هو الذى قلد ابن شهيد واهتدى بأسلوبه وتفكيره في تأليف رسالته لوصول رسائل ابن شهيد إلى المشرق في شبابه أن توضع رسالة الغفران".^٢

ويتفق البستاني والدكتور هيكل مع الدكتور مبارك في هذا الرأي. وأخيراً قال الدكتور هيكل مؤكداً هذا الترجيح بقوله.

"أما تأثر أبي العلا فراجع من التشابه الشديد بين الرسالتين وأغلب الظن أن رسالة التوابع والزوابع قد نقلت إلى المشرق في حياة ابن شهيد وأبي العلا فقد أشاد بنصوصها مؤلفون مشاركة عاشوا في زمن الأديبين الكبيرين فالثعالبي وهو معاصر لابن شهيد وأبي العلا قد نقل في كتابه يتيمة الدهر بعض نصوص الرسالة كوصف ابن شهيد للماء والحلوى وغير ذلك".^٣

^١ الثر لفتي في القرن الرابع، ص ٣٢٠

^٢ الأدب العربي في الأندلس، ص ٨٨ لعبد العزيز محمد عيسى

^٣ تاريخ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ٣٨٤

مقارنة رسالة التوابع والزوابع مع رسالة الغفران

قد دارت المناقشة بين الأدباء والنقاد المعاصرين منذ طلع القرن العشرين حول قضية التأثير والتأثر بين رسالة التوابع والزوابع ورسالة الغفران للمعري، ولا شك بأن التشابه والتخالف يوجد بين الرسالتين من ناحية الفكر والفن، حيث جعل كلاهما لرسالتهما مسرحاً أو غير الأرض وهو عالم الجن والروح، "كما تأتي الدكتوراه الناقدة الشهيرة بنت الشاطي إلى دراسة الرسالتين وتلمس ما فيها من أوجه التشابه والنظر في هذه الأوجه ودرجة أهميتها وصلتها بأصول الرسالتين فتري أن هناك أوجه للشبه فعلاً كصياغة الأحكام الأدبية بأسلوب جذاب والقيام برحلة خيالية انطق كل منهما الجن والحيوان فيها، وحرص كل منهما على عرض براعته في الصنعة وتفوقه في الحفظ والإنشاء، ولكن هذه الأوجه على كثرتها، ليست خاصة بهما وإنما هي من الظواهر الأدبية التي يمكن أن تلمس عندغيرهما من أدباء العصر أو في الآداب على وجه العموم".^١

ومع ذلك فإن هذه الأوجه في الأسلوب والهدف لا تعد شيئاً إلى جانب الاختلاف الملاحظ في جوهر الموضوع بين رسالتين وتباين روح الكاتب وتغيير شخصية البطل وتورد الدكتوراه على ذلك بعضاً من الأمثلة تثبت فيها الاختلاف والتباين في الجوهر من ذلك .

(١). رسالة الغفران بطلها ابن القارح، أما أبو العلا فيتوارى كما يتوارى الملقن وراء الستار، لا يظهر على المسرح ولا يذكر اسمه على لسان.
والتوابع والزوابع ديوان من شعر ابن شهيد نفسه كاتب الرسالة ومؤلف الرحلة لا يتوارى في مشهد من مشاهد ولا يقوم وراء الستار بل هو موجود فيها كان ما كان، ثم حوار أو عرض أدبي إلا كان هو الشخصية الأولى على المسرح.

^١ الغفران بنت الشاطي، ص ٣٠١

(ب). الغفران تصور أشواق أبي العلا ومخاوفه وترسم أخلاقه وتسجل وراءه، وتعرض آراءه ومذاهبه النقدية.

والتوابع والزوابع ديوان من شعر ابن شهيد ومجال لإنشاء قصائده.
(ج). إن أبا العلا في رسالته الغفران أعمق تفكيراً، وأشمل نظراً إلى الحياة، ولكن أبا عامر الذي قد اكتفى فقط بعرض المشكلات الأدبية واللغوية التي شغلته وشغلت معاصريه.

ثم تعرض الدكتور بعد ذلك في عرض نماذج من رسالة التوابع والزوابع، تؤكد بها ما ذهبت إليه في النقاط السابقة وتتساءل بعد عرض النماذج بقولها.
”ألك عهد بمثل هذه المواقف في الغفران؟ أنها تذكر بالمقامات على فرق بينهما لا يغيب عن الحس الدقيق ولكن ما بينهما وبين الغفران بعيد“.^١

أما النتيجة التي تخلص إليها بعد هذا العرض المسهب والمناقشة الطويلة أن الرسالتين متباينتان في الجوهر لا في العرض وأن ما يلمح بينها من تشابه إنما هو ظواهر عابرة عامة فتقول :

”والواقع أن القائلين بالتشابه والمحاكاة لمحاظواهر عابرة مما تجد مثله في الغفران والتوابع والزوابع، ولو احتكموا إلى النصين لرؤا فيهما أثرين متميزين لأدبين مختلفين من إقليمين متباعدين، ولشق عليهم أن يتصورا أن يكون ابن شهيد قد كتب هذه الرسالة وهو في علته التي مات بها عام (٤٢٦هـ) أو أن أبا العلا قلده ومؤرخو الأدب الأدب الأندلسي في عصره غافلون أو صامتون“^٢

وبالملاحظة على رأى الدكتورة بنت الشاطى، أنها تستبعد فكرة التقليد من الطرفين ويجعل أوجه الشبه عامة مشتركة في حين أن أوجه الاختلاف جوهر أساسية.

^١ نفس المصدر، ص ٣٠٣

^٢ الغفران بنت الشاطى، ص ٢٨١

ثم يرجع الدكتور أحمد هيكल التوابع والزوابع في الأصل إلى قصة الإسراء والمعراج التي وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف، وذلك في بحثه من الأصل الذي اعتمده أبو عامر في التوابع فقال :

”على أنه لا يمكن أن يغفل هنا النبع الحقيقي لهذا النوع من القصص، فهو مصدرها الأصلي وجذرها الخفي، ذلك المصدر هو قصة المعراج الإسلامية التي تحكي صعود محمد عليه الصلوة والسلام، ليلة الإسراء إلى السماوات على ظهر البراق وفي صحبته جبرئيل عليه السلام حيث رأى عالما آخر غير عالمنا المادى الذى نعيش فيه، فالمعقول أن تكون قصة المعراج هى التى أوحى لابن شهيد بقصة التوابع والزوابع وذلك لان قصة المعراج أول قصة في التراث العربي ينتقل فيها البطل إلى عالم آخر“^١.

كما يرى الدكتور هيكل أن رسالة الغفران اجتمعت لأبى العلا من التوابع والمعراج فيقول:

”والمعقول أيضا أن تكون قصة المعراج وما اشتملت عليه من أوصاف للجنة والنار وطوائف المتعمين والمعذبين قد أمدت أبا العلا بكثير من المشاهد التى ضمّنها رسالة الغفران، وعلى هذا يرجح أن يكون أبو العلا قد أفاد من التوابع والزوابع وخاصة من ناحية مناقشة الأدباء وعرض بعض مسائل الأدب، وأفاد كذلك من المعراج وخاصة من ناحية وصف الفردوس“^٢.

أما القول بأصل الفكرة من المعراج فأمر لا يستبعد، غير أن الذى نراه أن ما يصح ان يكون أصلا للتوابع والغفران يكون أصلا لغيرهما من الرسائل والقصص المماثلة، ولعل اعتماد الغفران على المعراج أقرب احتمالا من التوابع لما في الغفران من صور النعيم والجنة وأهلها والنار وأهلها، ومهما يكن من أمر فإن صور الجنة

^١ تاريخ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة. ص ٣٨٥

^٢ نفس المصدر، ص ٣٨٥

والنار قد وردت في القرآن الكريم في آيات كثيرة مما يعين على القول باعتماد التوابع والغفران على هذه الفكرة من حيث الأصل.

وحيثما أن نقارن بين هذين الرسالتين بالإيجاز والاختصار، وهي (١). اتفاق الرسالتين في أنهما وجهتا إلي شخص معينين، الواحدة إلى ابن القارح والثانية إلى أبي بكر بن حزم.

(ب) مسرح ابن شهيد وادى الجن وعالمه عالم التوابع والزوابع، وأبطاله وممثلوه جنّ وأرواح ولكنه لم يستطيع أن يهزّنا في وصف العالم الغريب العجيب، ولم يستطع أن يصل إلى أعماقنا في وصف هذه الدنياوات الملتية بالعجائب والغرائب المحاطة بالأسرار والألغاز الغنية بالخرافات والأساطير.

ولكن مسرح أبي العلا فهو العالم الآخر، وكان في تصويره أبرع وأعمق من أبي عامر، لقد ظهرت الجنة بأثمارها وأشجارها وطعامها وشرابها، وجمال حورها من الصالحات والناجيات، وفيهن من كانت دميمة سوداء فأصبحت في الجنان حورا عينا، وشفافة بيضاء، أو من المنشآت في الخلد أبكارا أترابا، تنشقّ غصن الأثمار.

(ج) وفي رسالة الغفران أساطير وحكايات هي متعة للروح ولذة للنفس فهو في رحلته هذه يصل إلى حدائق الحور حيث يقوده مَلَكٌ من الملائكة خذ من ثمرة من هذا الثمر، فاكسرها، فأن هذا الشجر يعرف بشجر الخور، فيأخذ سفرجلة أو رمّانة، أو تفاحة. أو ما شاء الله من الثمار، فيكسرها^١. ولكن ليس بشئ مثل هذا الخيال الطريف في التوابع والزوابع. نستطيع أن نقول: إن مواضيع الغفران لا تتعدّى الثلاثة: (١) الحياة الآخرة كما تمثلها أبو العلا في الجنة والنار.

(٢) الزندقة والإلحاد والنبرة

(٣) اللغة والأدب والشعر والنقد، كل ذلك بأسلوب قصصيّ

أما رسالة التوابع والزوابع :

^١ رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ص ٧١

فلقد ذكرنا أنها تدور حول: (١) توابع الشعراء (٢) توابع الكتّاب (٣) نقاد الجن (٤) حيوان الجن.

قيمتها الأدبية

نستطيع ان نقدّر قيمة هذه الرسالة بالنسبة لأمرين مهمّين:
الأول: قيمتها بالنسبة لشخص أبي عامر، وكونها وسيلة للتوصل إلى أغراض معيّنة قصدها أبو عامر كما رأينا أنه قد وصل إلى كثير من الأغراض وحققها بنجاح، فضرب حسّاده وردّ حججهم وأباطيلهم، وأثبت مهارته ومقدرته الأدبية حين يقابل بفحول الشعراء وأعلام الكتاب يعارض معهم ثم يحصل على اجازاتهم إعجابهم.

قبل كتابة هذه الرسالة أنه كان يرى نفسه دون ما يستحق، بحيث لا شهرة ولا ذكر له في أكثر المستويات الثقافية الادبية خاصة، وكل من هبّ ودبّ ينقد عليه. واتهمه بالنقص والعجز عن أساليب شتى و من منافذ متعدّدة.

ولكن حين كتب التوابع والزوابع ألقى فيها كل ما عنده واستطاع أن يرتفع على درجة ما تشتهى نفسه، وأيقن أنه قد أكمل وأتم ما كان ينقصه بل زاد وأجاد وأحسن وجاء بالجديد المبتكر المبدع الذى أسكت حسادهم ونقادهم وأعجز عنه الكثيرون ممن يعيونه أو ينقدون عليه أو ينقصون من قدره، فقد أعجزهم بهذا الابتكار بما أورده فيه من نقاش وحوار أدبي أبطل به حججهم وقضى على دسائسهم كما أشار إلى ذلك في عدة مواضع، مرة بالتلميح، وأخرى بالتصريح، فكان أبو عامر إذن موفقاً في ذلك إلى حد كبير...، كما كانت الرسالة من جهة تأثيرها على شخصه وصلتها بمكانة الاجتماعية والأدبية وسيلة طيّعة لتقويم هذه الشخصية وإعطائها حقها الكامل وإنزالها المترلة اللائقة بها دون حيف أو غبن.

وبالملاحظة أن رسالة التوابع والزوابع وهى نموذجة أدبية فنية نادرة وإضافة قيمة في التراث الأدبي العربي الأندلسي. ومثال رائع في مجال الابتكار والتجديد، إذ

لم نألف هذا المنهج من الكتابة الاندلسية، صاغها أبو عامر كما رأينا بأسلوب قصصيّ فكه معتمد على النادرة والفكاهة بالإضافة إلى اعتماده على الخيال ودقة التصوير، إذا يمكننا أن نقول لم يحدث أن سلك هذا السبيل أديب أندلسي قبل أبي عامر، ولذا قال محمد فهمي عبد اللطيف :

”رسالة أدبية ممتعة، تعدّ من خير ما حُلف في تراثنا الأدبي قوة وجدة وطرافة“^١.

وإلى جانب آخر:

كما قد نظر آخرون من دارسي الأدب الأندلسي إلى هذه الرسالة فوجدوهم عنوانا بطريقة كتابية جديدة هي الكتابة الخيالية فضلا عما تضمنته من فكاهات ونوادر بأسلوب مرح وممتع وبقصص عسلى السنة الحيوان والطيور وغير ذلك.

”وهذا إلى أشياء كثيرة احتوتها الرسالة فجعلتها فذة في موضوعاتها، نادرة في صوغها، غير تابعة لمثال سابق ولا متمرسة خطي كاتب قبل تأليفها، وهي على الوصف الذي عليه تجعل ابن شهيد مبتكرا لهذا النوع من الكتابة الخيالية القصصية“^٢.

وهكذا قال البستاني:

”إن التوابع والزوابع تحفة من تحف الأدب“^٣.

وقال الدكتور هيكمل :

”والعمل الأدبي الذي كان ولا يزال مفخرة للأدب الأندلسي في هذا الفرع القصصي هو عمل أبي عامر بن شهيد الذي سّماه رسالة التوابع والزوابع“^١.

^١ مجلة الرسالة، السنة الثانية، العدد ٦٤، ص ١٥٨٦، محمد فهمي عبد اللطيف

^٢ الأدب العربي في الاندلس، ص ٨٨

^٣ أدباء العرب وعصر الانبعاث، ص ٢٠٥

يقول الدكتور مصطفى شكعة:

إنها "عمل أدبي جليل الأثر لأنها ترجمان لنفسية الكاتب ومجتمع زمانه، وأما أسلوبها فرشيق فكاهي مصنوع موشى أنيق، فيه سحر ورقة، وفيه شفافية واستهواء، وفيه فكاهة باسمية وسخرية لاذعة"^٢.

نستطيع أن نقول أن هذه الرسالة جمعت بين آفاق الخيال وتفاصيل حدود الحقيقة والواقع. وهي رسالة تعكس في خلفيتها طبيعة البيئة الأندلسية، الجميلة بما فيها من أزهار فواحة الشذى، وأثمار متلألئة جارية، وسماء صافية نقية، وأشجار باسقة ملتفة، وطيور تصدح في جنبات الدوح بتغريدها.

^١ تاريخ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ٣٨٥

^٢ الادب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص ٦٨ ٢

إن هذه الدراسة مما احتوته من جوانب متعددة تتعلق بحياة أبي عامر وثقافته وآثاره هي محاولة متواضعة في وضع أبي عامر في موضعه المناسب بين أدباء عصره من الأندلسيين خاصة وأدباء العرب عامة، وهذا كما سبق أن ذكرنا في المقدمة-أحد أهداف البحث، ففي حياة أبي عامر ونشأته وعناصر شخصيته وما انطوت عليه، وجدنا أنه قد ساهم في تكوينيهما أمران مهمان.

الأول: نشأته اللاهية في النعيم والترف بين أحضان المنصور، وفي رحاب أولاده من بعده مما كان له الأثر الكبير في تكوين كثير من طباعه ورغباته وتوجيهها الوجهة التي تناسب هذه النشأة.

والثاني: عائلته التي كانت - إلى جانب صلتها بذوى السلطان - تمارس الأدب والثقافة على نطاق واسع، رأينا ذلك متمثلاً في والده وجدّه وغيرهم، ممن أشارت إليهم بعض المصادر وأورد أبو عامر نفسه بعضاً من أشعارهم، وكان لذلك من غير شك، أثر لا يستهان به في تكوين ثقافة أبي عامر بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وفي دراستنا لشعره وجدنا أثر هذين الاتجاهين يتنازع أبا عامر - أوقلّ يساهم في تكوين ثقافته وأدبه - فقد مارس جميع أغراض الشعر المعروفة، لم يدع منها غرضاً إلا طرده حتى ولو عرض على أقل تقدير.

أما في الباب الثالث وقد حدثت عن نوعية شعر أبي عامر من حيث الإصالة والجودة أو التقليد والمحاكاة، فقد تبين لنا، من استعراض شعره بأنه قلّد الكثير من الشعراء المشاركة وعارض العديد من معانيهم، أما بنفس القافية والوزن أو على خلافهما وممن قلدهم أبو عامر امرؤ القيس وقيس بن الخطيم وأبو نواس والبحري وغيرهم.

ولكن ذلك لم يحرم أبا عامر من وجود ملامح تترع إلى التجديد في بعض صوره الوصفية كوصف همومه وأحزانه، أوفي قطع قليلة مكونة من بيت أو بيتين في أغراض أخرى.

يضاف إلى هذا ملاحظتنا، وأشرنا إليه في غير موضع، من حرصه على الصنعة اللفظية والإكثار من صور البديع والبيان إلى درجة تفقد الشعر قيمته الفنية والأدبية بما تحويه من صور مكدسة في التشبيه لغريب أحيانا أو المتتابع دون نسق أو نظام أحيانا أخرى.

ومثل هذا يقال في كثرة استعماله لصور البيان الأخرى كالاستعارة والكناية وصور البديع من تجنيس وطباق وغير ذلك.

وفي دراستنا لنثر أبي عامر وكتابات، قد استعرضت كلها غالباً، في الباب الرابع، وجدنا أن له آثاراً كثيرة في هذا المجال، منها الضائع الذي لم يصل إلينا عنه سوى الاسم، ككتاب كشف الدك، وإيضاح الشك وكتاب حانوت عطار، ومنها فصول من رسائل في أغراض مختلفة، فبعد ذلك قد استعرضت فيه لآراء ابن شهيد النقدية، فإن الكثير منها — كما تبين لنا — لا يختلف في أصوله عن آراء أهل المشرق من النقاد والبلاغيين وخاصة الجاحظ حيث اعتمد أبو عامر كثيراً من آراء أهل المشرق من النقاد والبلاغيين وخاصة الجاحظ حيث اعتمد أبو عامر كثيراً من آرائه كأساس لما أورده من ملاحظات وآراء في النقد والبلاغة، ومع ذلك قد ألقى الضوء الضئيل على رسالة التوابع والزوابع من حيث القصة وعناصرها، وأخيراً رسالة التوابع والزوابع وما وصلنا منها جملة فصول أوردها صاحب الذخيرة في كلامه عن أبي عامر وآثاره.

وأما الرسائل الأخرى — أو الفصول الواردة منها على الأصح — فلدى دراستها تبين لنا أنها تضم مجموعتين رئيسيتين.

المجموعة الأولى: رسائل إلى الأمراء وأشهرهم المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر حيث خاطبه أبو عامر برسالة مطولة ضمنها كثيراً مما كان يشغل باله وحاول فيها بشتى الوسائل تحديد الصلة وإعادة سابق المحبة الإعزاز الذي كان يتقلب فيه بين أحضان العامرين.

كما خاطب مجاهدا أمير دانية برقعة ضمنها نفس الأغراض التي احتوتها رسالته إلى المؤتمن تقريبا..

وفي هذه الرسائل كان أبو عامر لا ينسى الإنحاء على كساده باللائمة والتحمل عليهم والصاق الكثير من التهم والأوصاف الشائنة لاضعاف الثقة بهم والتوصل إلى نفور الأمراء منهم وأبتعادهم عنهم.

ولعل هذا كان الغرض المهم الثاني بعد مخاطبة الأمراء وذوي السلطان من هذه الرسائل.

أما المجموعة الثانية: فرسائل وصفية عرض فيها أبو عامر لوصف الأحياء فوصف الجارية والذئب والثعلب والبرغوث والبعوضة. وكما وصف أبو عامر الأشياء غير الأحياء كالنار والبرد والحطب ووصف الحلواء،

وقد اتضح لنا أن هذه الرسائل كانت معبرة عن حياة أبي عامر ونشأته سواء في مخاطبته للأمراء وتذليله لهم وحرصه على عطاياهم أو في رسائله الوصفية التي أبرزت رغبته في التلهي وقضاء الوقت مع الميل للدعابة والهزل، لا يخفى على من يقرأ رسائل المجموعتين.

وإذا نظرنا إلى قيمة هذه الرسائل من الناحية الفنية، وجدنا أن أبا عامر مقلد في بعضها لأدباء المشرق، وهكذا نجد فيها بوضوح استعمال أبي عامر السجع بكثرة إلى جانب أوجه البديع والبيان الأخرى مع غلبة الهزل والفكاهة ،

رسالة التوابع والزوابع: فلعلها أهم آثار أبي عامر النثرية والشعرية على الإطلاق وهذا انتهينا إليه بعد دراسة الرسالة مفصلاً في الباب الخامس بما يعيننا على ذكرهم النتائج التي توصلنا إليها من دراستها فنقول:

إن رسالة التوابع والزوابع رسالة قصصية خيالية، كتبها أبو عامر من فكره وقصد بها الشهرة الواسعة بما زعم أنه حصل عليه من إجازات فحول الشعراء والكتاب وطعن خلالها حساده ومبغضيه وحاول تجريدتهم من كل حسنة كما ألصق

بهم كل نقيصه، مع حرصه على تبرير نقائصه وعيوبه الأدبية وأخذ الإذن بالاستمرار ممارستها كمسألة إكثاره من السجع الذي كان _على ما يبدو_ مشكلة تشغل باله وسلاحاً يشهره الخصوم بوجهه، حتى حصل على الإذن باستعماله كما يشاء من صاحبي الجاحظ وعبد الحميد.

يضاف إلى هذا رغبة أبي عامر، بوصفه أدبياً شاعراً متأثراً بما حوله، أن تكون له آثار أدبية جديدة يسبق فيها غيره ويخلد بما ذكراه، فكان له ما أراد إلى حد بعيد برسالة التوابع والزوابع هذه،

٢. تاريخ كتابة الرسالة من المرجح أن يكون في شباب أبي عامر المتأخر، وقد نستطيع _استناداً إلى ما توفر لدينا من الأدلة_ أن نقرب زمن كتابتها بحوالي سنة (٤١٤، ٤١٥هـ) أي قبل وفاته بحوالي عشر سنين وقبل رسالة الغفران بحوالى هذه الفترة،

٣. أما علاقتها بالغفران فلا تعدوا علاقتها بأية رسالة أخرى من حيث توفر أمور عامة لا بد من توفرها في مثل هذا النوع من الكتابة، وما يلاحظ بينهما من تشابه ففى أمور عامة عارضة حيث اختلف طبيعة كل من الكاتبين وروحهما باختلاف البيئة والثقافة والزمن، وما قيل في تقليد التوابع للغفران فلا قيمة له، ويرد بالسبق الثابت للتوابع على الغفران.

أما القول باطلاع أبي العلا على التوابع ونسجه على منوالها في الغفران فشبهه محتملة ولكنها تفتقر إلى دليل ثابت قوي، وليس لدينا من ذلك شئ يعتمد.

٤. إن هذه الرسالة جديدة مبتكرة لا تعتمد على تقليد أو محاكاة لرسالة أخرى سابقة لها سواء من آثار المشرقين أو غيرهم.

٥. إن أصل الفكرة في الكتابة القصصية وما تحويه من صور العالم الآخر، يعتمد على القرآن الكريم ومعراج الرسول صلى الله عليه وسلم، بالذات وما ورد من آيات كثيرة في سور متعددة من ذكر الجنة والنار وأحوال الناس فيهما.

٦ غير أن التوابع تعتمد بالإضافة إلى ذلك على أساس آخر يلاحظ في تسميتها وفي كثير من تفصيلاتها ذلك هو الاعتقاد بوجود شيطان لكل شاعر فحل يعينه على قول الشعر، وقد بنى أبو عامر التوابع على هذه الفكرة بوصفها فكرة معروفة مشهورة في مختلف العصور الأدبية.

ولكل ما سبق فإن أبا عامر يُعدّ مجدداً مبدعاً في رسالته هذه، أضاف بها إلى المكتبة الأدبية العربية أثراً من الآثار المهمة الممتعة، سيبقي ناطقاً بما انطوت عليه شخصية أبي عامر في مختلف عناصرها وجوانب حياتها كلها،

أما أسلوب الرسالة من حيث الحرص على الصنعة اللفظية واطراد السجع في الكلام والميل إلى الدعابة والهزل.. إلى غير ذلك كل هذا قد لا يختلف في شيء عن أسلوبه في الرسائل الأخرى، قد ذكرت هذه التفصيل في الباب الخامس.

أما النتيجة: إن آراء أبي عامر حول الشعر والنثر والبلاغة والبيان كلها، التي قد بينا في هذه المقالة اثبتت إطلاع أبي عامر الواسع على آثار الأدباء في المشرق على اختلاف درجاتهم إلى جانب اطلاع على جملة من العلوم الأخرى، من البلاغية واللغوية والشعرية، وكانت له باع طويل في قضايا اللغة والنقد معرفة تامة عن نفسية الفنان وأثرها على إنتاجهم الأدبية، وحتى بعض الآراء في الفلسفة وعلم الكلام والمنطق.

وإن الجهد الكبير والوقت الطويل الذي انقضى في البحث والمقارنة وتقليب وجه النظر في جملة الآراء والأخبار والأقوال التي وردت في أبي عامر وآثاره، بتوجيهات أستاذنا الدكتور محمد سميع اختر حفظه الله المشرف على هذه المقالة حيث لم يأل جهداً في بذل المزيد من التوجيه والتقويم، وإذاً قد انتهت المقالة، فلا بد من التوجه بالشكر إلى الله أولاً، ثم إلى كل من ساعدني، إذالكمال إلى الله وحده وفوق كل ذي علم عليم، وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المصادر والمراجع

- (١) القرآن الكريم
- (٢) جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس المؤلف: محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحميدي أبو عبد الله بن أبي نصر، الناشر: الدار المصرية للتأليف والنشر - القاهرة، عام النشر: ١٩٦٦ م
- (٣) أعمال الإعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام. لدى الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب. حققه ليفي بروفنسال. الناشر دارالمكشوف بيروت سنة ١٩٥٦ م
- (٤) أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث. بطرس البستاني، الناشر مكتبة صادر بيروت. عام ١٩٥٧ م
- (٥) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) دكتور إحسان عباس الناشر: دار الثقافة - بيروت الطبعة: السابعة، ١٩٨٥ م
- (٦) تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، الطبعة الثانية المطبعة البولسية / ١٩٥٣ م
- (٧) تاريخ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة. الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر ١٩٩٣ م
- (٨) جمهرة أشعار العرب. لأبي زيد محمد بن خطاب القرشي - طبعة المطبعة الاميرية بيولا سنة ١٣٠٨ هـ -
- (٩) القاموس المحيط. الفيروز آبادي. الناشر مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٩٦ م ١٤١٦ هـ -
- (١٠) تاريخ الشعوب الإسلامية . كارل بروكلمن. نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي. طبعة دار العلم للملايين، بيروت.
- (١١) الحلة السيرة: لأبي محمد عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأيثار حققه وعلق عليه محمد عثمان. الناشر: شركة نوابغ الفكر ١٩ القطامية - القاهرة. الطبعة: الأولى، ٢٠٠٩ م ١٤٣٠ هـ -

(١٢) بلاغة العرب في الأندلس، الدكتور احمد ضيف، الطبعة الاولى. مطبعة مصر
١٩٢٤م

(١٣) الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسنم بن قتيبة الدينوري، الناشر: دار
الثقافة بيروت. عام النشر ١٩٦٤م

(١٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، المؤلف: أبو الحسن علي بن بسم
الشنتريني، القسم الأول المجلد الأول الناشر، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر القاهرة. ١٩٣٩م ١٣٥٨هـ—

(١٥) الحيوان، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان،
الشهير بالجاحظ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية،
١٤٢٤هـ—

(١٦) دائرة المعارف البستاني - بطرس البستاني - المجلد الأول، الناشر، مطبعة المعارف
بيروت ١٨٧٧م

(١٧) دائرة المعارف قاموس لكل فن ومطلب، المؤلف فؤاد أفرام البستاني الناشر
بيروت ، الجامعة اللبنانية ١٩٥٦م

(١٨) ابن شهيد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي، المؤلف، عبدالله سالم المعطاني،
الناشر مكتبة المعارف بالاسكندرية، سنة ١٩٧٧هـ—

(١٩) تاريخ الأدب العربي . حنا الفاخوري. بدون التاريخ والمطبعة.

(٢٠) في النقد الأدبي، الدكتور شوقي ضيف. دارالمعارف كورنيش النيل -
القاهرة. الطبعة التاسعة ٢٠٠٤م

(٢١) رسالة التوابع والزوابع . بطرس البستاني، مكتبة صادر بيروت مطبعة المناهل سنة
١٩٥١م

(٢٢) الطبيعة في الشعر الأندلسي، جودت الركابي، دارالمعارف بمصر. ب، ت

(٢٣) شذرات الذهب الجز الثالث مطبعة القدسي بجوار الأزهر الشريف سنة
١٣٥٠هـ—

- (٢٤) الغفران دراسة نقدية، الدكتورة بنت الشاطئ طبعة دارالمعارف كورنيش النيل
—القاهرة ١٩٩٩م
- (٢٥) ظهر الإسلام الجزء الثالث . احمد أمين. الطبعة الخامسة ١٣٨٨هـ—١٩٦٩م،
دارالكتاب العربي /بيروت —لبنان
- (٢٦) تاريخ الأدب العربي،لمصطفى صادق الرافعي، ج ٢، ٣، الناشر مكتبة الاستقامة
القاهرة الطبعة الثانية ١٩٥٤م
- (٢٧) ديوان ابن شهيد الأندلسي،جمع الأستاذ الدكتور محي الدين
ديب،المطبع.المكتبة العصرية، صيدا بيروت، عام ٢٠٠٢م ١٤٢٢هـ—
- (٢٨) تاريخ الأدب العربي،عصر الدول والإمارات الأندلس،لشوقي ضيف، الناشر
دارالمعارف القاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠٠٧م
- (٢٩) ديوان النابغة الذبياني، طبعة مطبعة الأهلية بيروت ١٩٢٩م
- (٣٠) ديوان قيس بن الخطيم .مطبعة العاني بغداد سنة ١٩٦٢م تحقيق أحمد مطلوب
وإبراهيم السامرائي
- (٣١) ديوان البحترى.تحقيق حسن كامل الصيرفي، الناشر دارالمعارف
القاهرة، ١٩٦٣م
- (٣٢) ديوان الخطيئة.شرح ابن السكيت والسجستاني.تحقيق نعمان أمين طه، الناشر
مكتبة المصطفى البابي ١٩٥٩م
- (٣٣) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة،حققه وشرحه إبراهيم الأعرابي. الناشر مكتبة
صادر بيروت ١٩٥٢م
- (٣٤) شرح ديوان طرفة بن العبد.تحقيق كرم البستاني طبعه مكتبة صادر بيروت عام
١٩٥٣م
- (٣٥) شرح ديوان إمرئ القيس.محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر دارالمعارف
القاهرة، سنة ١٩٥٨م

(٣٦) ديوان المتنبي. شرح عبدالرحمن البرقوقي، صبعة المطبعة التجارية الكبرى. سنة

١٩٣

(٣٧) مطمح الأنفس ومسرح الناس. المؤلف: الفتح بن محمد بن عبيد الله بن

خاقان ابن عبد الله القيسي، أبو نصر. المحقق: محمد علي شوابكة. الناشر:

مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٣ م

(٣٨) تاريخ علماء الأندلس. لعبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، أبو

الوليد، المعروف بابن الفرضي، عني بنشره؛ وصححه؛ ووقف على طبعه:

السيد عزت العطار الحسيني، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الثانية،

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

(٣٩) معجم المؤلفين، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي،

الناشر: مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٤٠) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل

أبو منصور الثعالبي، الناشر: دار المعارف - القاهرة

(٤١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور

الثعالبي، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد. الناشر: مكتبة الحسين التجارية

بمصر سنة ١٩٤٨ م ج ٢، ٣.

(٤٢) بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس. لأحمد بن يحيى بن أحمد بن

عميرة، أبو جعفر الضبي. الناشر: دار الكاتب العربي - القاهرة عام النشر:

١٩٦٧ م

(٤٣) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن

إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، المحقق محمد محي الدين عبد

الحميد، الناشر مكتبة الحسين التجارية ١٩٤٨ م القاهرة

- (٤٤) الإحاطة في أخبار غرناطة. المؤلف: محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ
- (٤٥) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس المقري التلمساني. المحقق: مصطفى السقا (المدرس بجامعة فؤاد الأول) - إبراهيم الإبياري (المدرس بالمدارس الأميرية) - عبد العظيم شليبي (المدرس بالمدارس الأميرية). الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، عام النشر: ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م
- (٤٦) الأعلام، المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، الناشر: دار العلم للملايين بيروت. الطبعة التاسعة. نوفمبر ١٩٩٠ م
- (٤٧) البيان والتبيين. المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ. الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت. عام النشر: ١٤٢٣ هـ
- (٤٨) لسان العرب. للإمام العلامة ابن منظور. الناشر دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة. بيروت، لبنان. ب ت
- (٤٩) العقد الفريد، المؤلف: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي. الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت. لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ م ١٩٨٩ هـ
- (٥٠) الموازنة بين أبي تمام والبحثري، المؤلف: أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي. المجلد الأول والثاني: تحقيق / السيد أحمد صقر، نشر / مكتبة الخانجي - الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م

- (٥١) الوساطة بين المتنبى وخصومه. المؤلف: أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني. التحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٤٨ م
- (٥٢) الصناعتين، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري. الناشر: المكتبة العنصرية - بيروت. عام النشر: ١٤١٩ هـ
- (٥٣) أسرار البلاغة، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر. الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.
- (٥٤) المختار من شعر شعراء الأندلس. علي بن منجب بن سليمان، أبو القاسم، تاج الرياسة، ابن الصيرفي. المحقق: الدكتور عبد الرزاق حسين. الناشر: دار البشير، عمان. الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م
- (٥٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٩ م مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر.
- (٥٦) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، الدكتور إحسان عباس، الناشر: دار الثقافة، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة: ١٩٧٨ م
- (٥٧) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، الدكتور إحسان عباس، الناشر: دار الثقافة، بيروت - لبنان، الطبعة: الرابعة، ١٩٨٣ م
- (٥٨) رسالة الغفران، المؤلف: أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان، أبو العلاء المعري، صحتها ووقف على طبعها: إبراهيم اليازجي، الطبعة: الأولى، ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م

(٥٩) معجم الشعراء، للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني. بتصحيح

وتعليق، عبد الستار أحمد فراج، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة

١٩٦٠م

(٦٠) معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. المؤلف: شهاب الدين أبو

عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي. المحقق: احسان عباس. الناشر:

دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م

(٦١) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس. المؤلف: أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن

بشكوال. عني بنشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحسيني.

الناشر: مكتبة الخانجي. الطبعة: الثانية، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م

(٦٢) الكامل في التاريخ. المؤلف: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن

عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير. تحقيق:

عمر عبد السلام تدمري. الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.

الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م

(٦٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب. المؤلف: عبد الواحد بن علي التميمي

المراكشي، محيي الدين. المحقق: محمد سعيد العربان ومحمد العربي العلمي،

الناشر: مطبعة الاستقامة القاهرة، عام النشر ١٩٤٩م

(٦٤) المغرب في حلى المغرب. المؤلف: أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي

الأندلسي، المحقق: د. شوقي ضيف. الناشر: دار المعارف - القاهرة، الطبعة:

الثالثة، ١٩٥٥م

(٦٥) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، المؤلف: ابن عذاري المراكشي، أبو

عبد الله محمد بن محمد. تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال،

الناشر: دار الثقافة، بيروت - لبنان. الطبعة: الثالثة، ١٩٨٣م

(٦٦) توشيع التوشيع. المؤلف: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي

- (٦٧) القصص في أدب العرب ماضيه وحاضره. محمد تيمور الناشر المطبعة المملوكية
١٩٥٨م
- (٦٨) فن القصة. المؤلف الدكتور محمد يوسف نجم. الناشر دار بيروت للطباعة
والنشر بيروت ١٩٥٦م الطبعة الثالثة.
- (٦٩) نقد الشعر. المؤلف: قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج.
الناشر: مطبعة الجوائب - قسطنطينية. الطبعة: الأولى، ١٣٠٢م
- (٧٠) دراسات في النقد العربي التاريخ- المصطلح- المنهج. دكتور عبد الحكيم
راضى. الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.
- (٧١) فن القصة. المؤلف أحمد أبو سعد. الناشر دارالشرق الجديد بيروت ١٩٥٩م
- (٧٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه. المؤلف: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني
الأزدي. المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة:
الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
- (٧٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي. المؤلف: أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير
بشوقي ضيف. الناشر: دار المعارف القاهرة ٢٠٠٤م الطبعة الثالثة عشر.
- (٧٤) الفن و مذاهبه في النثر العربي. الدكتور شوقي ضيف. طبعة دارالمعارف القاهرة،
الطبعة الثالثة عشر، ٢٠٠٣م
- (٧٥) تاريخ افتتاح الاندلس. لابن القوطيه، تحقيق جايا نجوس، نشر ريبيرا (مدير سنة
١٩٢٦)
- (٧٦) قصة الكتاب العربية. المؤلف إبراهيم جمعه. الناشر دارالمعارف مصر ١٩٤٨م
- (٧٧) الأدب القصصى عند العرب. المؤلف موسى سليمان. الناشر مكتبة المدرسة
ودارالكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت الطبعة الثالثة ١٩٦٠م
- (٧٨) الزجل في الأندلس :للدكتور عبد العزيز الأهواني (الرسالة. القاهرة سنة
١٩٥٧)
- (٧٩) المقدمة لابن خلدون (دار مصطفى محمد - القاهرة)

- (٨٠) النشر الفني في القرن الرابع: للدكتور زكي مبارك (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٢هـ) -
- (٨١) أصول النقد الأدبي. المؤلف أحمد شايب. الناشر مكتبة النهضة المصرية القاهرة الطبعة العاشرة ٢٠٠٦م
- (٨٢) الصقالية في إسبانيا: للدكتور أحمد مختار العبادي (مدريد ١٩٥٣)
- (٨٣) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. لمصطفى شكعة، دارالعلم للملأين بيروت لبنان، الطبعة السادسة ١٩٨٦م
- (٨٤) الموشحات الأندلسية بين ناقدتها قديما وحديثا. المؤلف د. أحمد مقبل محمد المنصوري. الناشر الجمهورية اليمنية وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ٢٠٠٤م
- ١٤٢٥هـ -